موسوعة
الحضارات القديمة

بكر محمد إبراهيم

الناشر

مركز الراية للنشر والإعلام

اسم الكتاب   موسوعة الحضارات القديمة

بقلـــم   بكر محمد إبراهيم

الطبعة   الأولى ٢٠٠٤

الناشر : مركز الراية للنشر والأعلام

فكرة الكتاب : للناشر أحمد فكرى .

رقم الإيداع : ٥٥٨٥ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولى
I.S.B.N. : 977 - 354 041 - 3

المقدمة

الحمد لله الواحد القهار، والصلاة والسلام على النبى المختار سيدنا محمدا بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن ولاه .

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ند ولا نظير ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الصادق الوعد الأمين .

وبعــــد ،،،

فهذا الكتاب يتضمن تاريخ كثير من الحضارات القديمة مثل حضارة عاد وحضارة ثمود وهما مذكوران فى القرآن الكريم، ومن كان من شأن هذه الشعوب وتكذيبها للرسل والدمار الذى حل بها وأماكن وجودها وتاريخ العرب القديم،

كما يتعرض للحضارة الرومانية وحروبها مع الفرس والحضارة الفارسية ويسجل تاريخ ملوك الفرس الأكاسرة وأسماءهم على مر الأحقاب والقرون وترجمة لكل من هؤلاء الأكاسرة .

كما يتضمن تاريخ ملوك الروم القياصرة والأباطرة ودياناتهم وتحولهم من الوثنية إلى المسيحية وحروبهم مع الفرس واحتلالهم لمصر والشام وغيرها من البلاد مثل بلاد القبطيين والبابليين وبختنصر .

كما يتضمن تاريخ اليونان وملوكهم البطالمة والاسكندر الأكبر وفتوحاته فى مصر والهند وفارس وغيرها من البلاد وبطولاته الخارقة وأخلاقه وتعاليمه.

كما يتضمن بالتفصيل الحضارة اليونانية والفنون مثل فنون النحت والتصوير والمسرح والأدب القصصى والقوانين والدساتير والقضاء والبرلمان وغير ذلك من أخبار الحضارة اليونانية الإغريقية .

فالكتاب سفر موسوعي تاريخي ضخم يؤرخ لفتره هامة من تاريخ البشرية ولعلنا نستكمل هذا التاريخ إن شاء الله بالكتابة عن دولة معين ودولة حمير وحضارة تدمر والحضارة الأشورية وغيرها من الحضارات

نفع الله به والحمد لله أولا وآخراً

المؤلف

بكر محمد إبراهيم

عضو اتحاد الكتاب

الفصل الأول

- طبقات العرب.

- قصة تقسيم العرب .

- أكذوبة تقسيم العرب

إلى عاربة ومستعربة .



طبقات العرب

البحث فى طبقات العرب وأقسامها شائك، يكتنفه الغموض. بل التناقض.

وقد اتفقوا على توزيع العرب إلى نوعين: عاربة ومستعربة.

وقد اختلفوا فى العاربة والمستعربة، فذهب ابن إسحاق إلى أن العاربة هم عاد وثمود ... الخ.

والمستعربة بنو قطحان بن عابر وبنو إسماعيل لأن لغة عابر وإسماعيل كانت أعجمية، إما السريانية أو العبرانية، فتعلم بنو قحطان العربية من العاربة، وتعلم بنو إسماعيل العربية من جرهم.

وقسم غيره العرب إلى ثلاث أقسام :

١- العرب العاربة، وهم تسع قبائل من ولد إرم بن سام بن نوح وهم عاد وثمود وأميم ثم عبيل وسطم وجديس وعمليق وجرهم ثم وبار.

٢- العرب المتعربة، وهم بنو قطحان بن عابر الذين نطقوا بلسان العرب العاربة وسكنوا ديارهم.

٣- العرب المستعربة وهم بنو إسماعيل بن إبراهيم.

وهنا تقسيم آخر:

١- عرب عاربة، وهم الخلص تسع قبائل من ولد إرم بن سام بن نوح: عاد وثمود.. الخ كما سبق عن النويرى.

٢- المتعربة، قال فى الصحاح : وهم الذين ليسوا بخلص، وهم بن قحطان.

٣- المستعربة الذين ليسوا بخلص أيضا. قال ابن دحية: وهم بنو إسماعيل ويظهر أن مصدر السيوطى هو النويرى.

أما ابن خلدون فقد قسم العرب إلى أربع طبقات

١- العرب العاربة وهم عاد وثمود وطسم وجديس. الخ.

٢- العرب المستعربة، من بنى حمير بن سبأ.

٣- العرب التابعة للعرب من قضاعة وقحطان وعدنان وشعبيهما العظيمين ربيعة ومضر.

٤- العرب المستعجمة.

والطريف أن ابن خلدون بعد أن قسم العرب إلى أربع طبقات تناول الثلاث الطبقات بشىء من التفصيل فى الجزء الأول. وكأنما شعر (بتهافت) هذا التقسيم فلم يشر إلى الطبقة (الرابعة) إلا فى أوائل الجزء السادس من تاريخه فقال (الطبقة الرابعة من العرب المستعجمة أهل الجيل الناشىء لهذا العهد من بقية أهل الدول الإسلامية من العرب) ثم قال موضحاً ماسبق :

«اندرج العرب أهل الحماية من القهر واختلطوا بالهمج ولم يراجعوا أحوال البداوات لبعدها. ولا تذكروا عهد الأنساب لدروسها فدثروا وتلاشوا شأن من قبلهم ومن بعدهم».

وظل الرواة يتوارثون هذا التقسيم كلما بحثوا فى تاريخ العرب قبل الإسلام وفى موضوع الأنساب. ولا حاجة بنا إلي أن نعود فنقول إن كل ماروى عن هذا التقسيم وما رواه الرواة من أخبار تلك الطبقات لم يرد إلينا عن طريق النصوص المدونة قبل الإسلام، وإنما ورد إلينا متواتراً من الكتب المدونة فى الإسلام، لذلك لا نستطيع أن نجرق. فنقول إن هذا التقسيم وضعه الجاهليون وتوارثوه كابراً عن كابر حتى وصل إلى صدر الإسلام ثم منه وصل إلينا.

قصة تقسيم العرب

سواء قسم الأخباريون العرت وتبعهم المؤرخون إلى ثلاثة أقسام أو إلى قسمين أو أربعة، فهم يرون أن العرب المستعربة هم بنو إسماعيل بن الخليل إبراهيم عليهما الصلاة والسلام وأنه كان غير عربى أصيل.

بل إن بعض المؤرخون يرون أن القطحانيين من العرب المستعربة أيضاً. كما سبق.

ولقد ثبت من الدراسات الحديثة أن سيدنا إبراهيم الخليل من (أرومة) عربية أصيلة قدمت من الجزيرة العربية فى موجة من موجات الهجرة.

وقد عالج المؤرخ المعاصر الدكتور أحمد سوسة موضوع هجرات العرب قبل الإسلام إلى الهلال الخصيب، وخلص إلى تقسيم الأحداث التاريخية إلى ثلاثة أدوار منفصلة، الواحد عن الآخر بالقياس إلى علم المقارنة بين اللغات : وهو المعيار الذى يعتمد عليه العلماء فى هذا العصر فى تعيين أصول الأقوام وصلات بعضها ببعض، وهذه الأدوار هى :

عصر إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب، ويرجع تاريخه إلى القرن الـ ١٩ق.م.. وهو عصر عربى بحت قائم بذاته بلغته وقوميته وديانته وهو مرتبط بالجزيرة العربية ولغتها الأم وبقبائلها التى سميت فيما بعد بالعرب البائدة لانقراضها.

ويقول الدكتور (هومل) إن الآراميين الذين يرجعون إلى أقدم الأزمان والذين ورد ذكرهم فى الكتابات القديمة، كانوا ينتمون إلى العرق البدوى الخالص، وهم يحملون نفس الأسماء التى نجدها فى التسميات العربية، لذلك فإننا لا نكون قد جازفنا فى الكلام عندما نؤكد أن الآراميين فى الألف الثانى قبل الميلاد بل وحتى فى العصور التالية التى تمتد إلى زمن ازدهار

الإمبراطورية الأشورية كانوا هم (والشعب العربى العظيم شعبا واحداً من عنصر واحد متماسك الأجزاء).

كما يشير (كرهمن) فى بحثه فى تاريخ العرب إلى أن الآراميين الذين تدخلوا فى شئون (بيت زمانى) فى أعالى الفرات سنة ٨٨٠ ق.م. وساعدوا أهلها على طرد معتمد الملك الأشورى (أشور ناصر بال الثانى ٨٨٤-٨٥٩ق.م) هم أسلاف العرب.

ثم قال : لذا يجب أن تحتل القبائل الآرامية مكانة متميزة فى تاريخ العرب قبل الإسلام لأنها تمثل الثقافة العربية القديمة، وخاصة أن النبى الخليل إبراهيم هو منهم. ففى حوالى الألف الثانية قبل الميلاد نزحت بعض الأسر الآرامية إلى جنوب العربية واستقرت فى مناطق بابل فكان إبراهيم الخليل من ذرية هذه الأسر ومن أمرائها.

وقد كتب الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله مقالا بعنوان (اللغة الأم) نلخص أهم ماجاء فيه :

إن الجزيرة العربية هى منبثق الحضارات السامية التى كيفت أقاليم الهلال الخصيب وما وراءه اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، ولذلك يمكن القول بأن العرب البائدة الآرامية التى ترجع إلى إرم بن سام بن نوح ومنهم قبائل إبراهيم الخليل هم العرب الأصليون الذين وضعوا لجميع الشعوب السامية لغتهم العربية الأم، وقد نزحوا حوالى الألف الثانية قبل الميلاد إلى جنوب العراق واستقروا فى مناطق بابل، وارتباط الخليل بجزيرة العرب بالحجاز (أى بيت الله العتيق) لم يرد فى القرآن وحده بل أبرزته الكشوفات الأثرية واللسانيات المقارنة حول الهجرات السامية.

أكذوبة تقسيم العرب

إلى عاربة ومستعربة

كتب الدكتور منير العجلانى بحثاً بهذا العنوان نلخص أبرز ماجاء فيه:

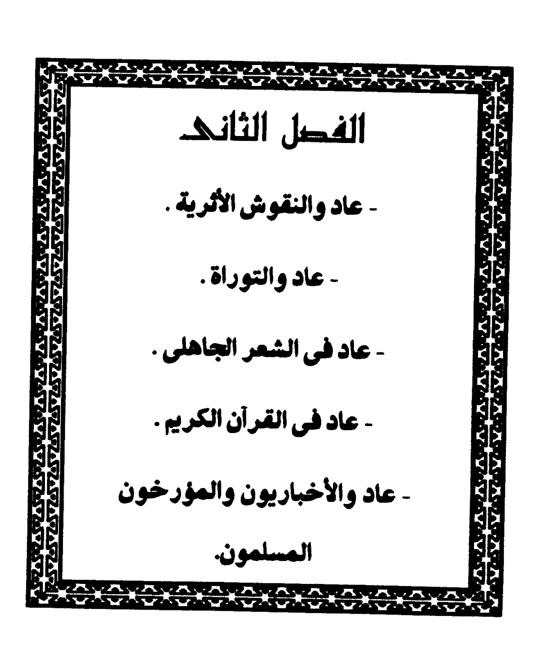
يقولون إن عشيرة محمد ﷺ الذى نزل القرآن بلسانه تعد كسائر العدنانيين أو المضريين من غير العرب وقد دخلوا على العرب العاربة.

ثم قال : ويبدو لنا أن العناصر البدوية الأولى فى الجزيرة العربية التى كانت تدعى (آرام) و(عبر) و(خابيرو) كانوا يقيمون أول الأمر فى منطقة تمتد بين الشام والعراق، وهذه المنطقة هى المهد الأول للساميين.

وختم بحثه بمايلى : فيا أيها المؤرخون الجدد إياكم واجترار الأساطير الملفقة. واعلموا أن الجزيرة إنما اكتسبت صفة العربية بهؤلاء العرب الذين نعتهم الأخباريون الكذابون الوضاعون بالمستعربة.

وبناء على ماسبق فان كون إبراهيم الخليل وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام وذريتهما من العرب المستعربة أسطورة ، وأرى أنه يمكن تقسيم العرب، سلالة عدنان وقطحان، على ضوء ما سبق إلى قسمين لا ثالث لهما العرب البائدة، والعرب الباقية – كشعوب.





الفصل الثاني

- عاد والنقوش الأثرية .
- عاد والتوراة .
- عاد في الشعر الجاهلي .
- عاد في القرآن الكريم .
- عاد والأخباريون والمؤرخون المسلمون.

عاد والنقوش الأثرية

كان المعروف بين المستشرقين أنه لم يرد نص أثرى عن شعب عاد وبعض الشعوب العربية البائدة التى ذكرها القرآن الكريم ، ولكن ظهرت أخيراً دراسة جادة لنصوص عثر عليها ونقلها الأستاذ عبدالعزيز على النفيسى فى (القرينية) فى وادى (حر يملاه) على بعد مائة كيلو شمالى الرياض، ثم قدمها إلى الأستاذ الرحالة عبدالله فلبى، وهذا بدوره قدمها مع مجموعة من نصوص أخرى إلى المستشرق ألبرت فن دن براندن. الأستاذ بجامعة لوفان.

ويهمنا من تلك النصوص : ما جاء فى السطر الرابع.

٤- زيات بن جر من قبيلة عاد - ريت معروف كاسم علم فى (C) وفى العقد الفريد ٤٢ : الزبات : G R - جر اسم علم صفوى - عاد ثم قال : يبدو لى أن اسم قبلى. ويعنى على الأرجح أحد أفراد قبيلة عاد التى يكثر ذكرها فى القرآن مع قبيلة ثمود.

وفى القرآن إن هذه القبيلة كانت تنزل (بالأحقاف).

وعسى أن يتحفنا العلامة الأستاذ حمد الجاسر بمزيد من هذه النصوص البالغة الأهمية التى تضع حداً لموقف جهات معينة مما جاء القرآن العظيم من ذكر شعوب بائدة وأرضين اختفى اسمها الأول. نظرا لتقادم الزمان أو للكوارث التى حاقت بها.

عاد والتوراة

لم يرد لعاد ذكر فى التوراة، وخاصة فى الأصحاح العاشر الذى يحتوى على قائمة طويلة لشعوب الشرق.

ويقول الطبرى فى هذا «فأما أهل التوراة فإنهم يزعمون أنه لا ذكر لعاد وثمود ولا لهود وصالح فى التوراة، وأمرهم عند العرب فى الشهرة فى الجاهلية والإسلام كشهرة إبراهيم وقومه».

ويقول ابن خلدون «وأهل التوراة لا يعرفون شيئا من أخبار عاد ولا ثمود، لأنهم لم يقع لهم ذكر فى التوراة، ولا لثمود ولا لصالح -عليهما السلام-، بل ولا لأحد من العرب العاربة، لأن سياق الأخبار فى التوراة عن أولئك الأمم إنما لمن كان في عمود النسب ما بين موسى وآدم صلوات الله عليهم. وليس لأحد من آباء هؤلاء الأجيال ذكر فى عمود ذلك النسب، فلم يذكروا فيها».

أما ابن كثير فذكر مايلى «ويقال إن هاتين الأمتين (يقصد عاداً وثمود) لا يعرف خبرهما أهل الكتاب، وليس لهما ذكر فى كتابهم التوراة، ولكن فى القرآن مايدل على أن موسى (أخبر عنهما)، كما قال تعالى فى سورة إبراهيم:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾ [إبراهيم]

والظاهر أن هنا من تمام كلام موسى مع قومه، ولكن لما كان هاتان

الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيداً، ولا اعتنوا بحفظه، وإن كان خبرهما مشهوراً فى زمن موسى عليه السلام».

وإذا استعرضنا أقوال هؤلاء المؤرخين، وهم أبرز مؤرخى المسلمين .

فنرى أن الطبرى امتنع عن التعليق على سبب عدم ذكر (عاد) فى التوراة بينما ابن خلدون يرى أن السبب فى عدم ذكر عاد وثمود أن التوراة لم تتعرض للأمم إلا لمن كان فى عمود النسب بين موسى وآدم، ومع تقديرنا لرأى ابن خلدون فإن هذا التعليل يحتاج إلى تأمل، لأن التوراة ذكرت أخبار بعض الأمم الأخر التى ليست فى عمود نسب موسى – آدم عليهما السلام.

أما ابن كثير فيبدو أن رأيه أكثر دقة من غيره، فإن العبرانيين بما عرف عنهم من انطواء وأنانية يرون أنفسهم (شعب الله المختار) لم يهتموا بأخبار أمتى عاد وثمود ولا رسوليهما، وليس من المستبعد أن يكونوا اهملوا عمداً ذكر عاد وثمود.

ومما يؤيد رأى ابن كثير من زاوية أخرى أن بروكلمان يرى أن واضعى التوراة العبرانيين قد تعمدوا إقصاء الكنعانيين والفينيقيين عن سلسلة النسب السامى لأسباب دينية وسياسية، مع علمهم الأكيد بأنهم على اتصال وثيق بهم».

ويمكن القول قياسا على إقصائهم الكنعانيين والفينيقيين من سلسلة النسب السامى أنهم أقصوا أيضا (عاداً) وثموداً لنفس السبب.

أما جرجى زيدان فقال : «عاد أقدم القبائل البائدة وأشهرها كلها وأما بدء أمرها فلا يتسنى الوقوف عليه، إذ لم يرد فى كتب العرب ما يدل على ذلك، ولا ورد فى التوراة نبأ صريح بشأنها فلم نجد ما يشفى غليلا».

ثم قال «أما نحن فقد اهتدينا بالبحث والتنقيب والمقابلة إلى ما نظنه موضحا لذلك الإشكال، واستخرجنا من كتب الرومان واليونان ذكراً لقبيلة عاد،

واهتدينا فى كتاب التوراة على نسبها، ومفتاح هذه العمعمات كلها أن قبيلة عاد تسمى أيضا (عاد إرم).

أما فى القرآن فقد ورد ذكرها مرة واحدة فى سورة الفجر، وهاك نص الآية :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) ﴾ [الفجر]

فهو يريد القبيلة واسمها (عاد إرم) واللفظان كلمة واحدة. وقرأ غيره (بعاد إرم) بسكون الراء على التخفيف، وقرأ آخر (بعاد إرم) بإضافة إرم إلى ذات العماد، وقرأ غيره غير ذلك».

ويؤخذ مما تقدم أن اسم القبيلة (عاد إرم).

ولعلها سميت بذلك بالإضافة إلى (إرم) جدها الأول، فتكون (إرم) عطف بيان لعاد، إيذاناً بأنها (عاد الأولى) وتمييزاً لها عن (عاد الأخرى) أو بالإضافة إلى (إرم) اسم المدينة إذا صح وجودها».

ثم قال «فإذا علمنا ذلك كانت هى القبيلة التى ورد ذكرها فى التوراة بين قبائل اليمن من نسل قطحان واسمها(هود ورام).

ثم تساءل الأستاذ زيدان فقال : ولعل كاتب سفر الخليقة رأى مقر تلك القبيلة فى بلاد اليمن، فقال إنها من نسل قحطان، لأن مقام عاد فى الأحقاف بين حضرموت واليمن، وكثيراً ما التبس على علماء التوراة فى (هود ورام) ومقر نسله، ولم يهتدوا إلى شىء عنه، مع أنهم اهتدوا إلى أماكن أكثر أبناء قحطان، وكلها بجوار الأحقاف، فعاد هى (هو دورام) الواردة فى التوراة ولا عبرة فى القرن بين نسب عاد فى الروايات العربية ونسب (هود ورام)، وإما أن يكون كاتب سفر الخليقة أراد بيان القبائل التى سكنت اليمن، وكلها تنسب إلى

قحطان» فرأى (عاد إرم) أو (هود ورام) فى جملتها فجعله من أولاد قحطان أو بعبارة أخرى من القبائل المتفرعة من قبيلة قحطان، وإما أن يكون بالحقيقة من نسل قحطان. ووهم من نسبه إلى إرم».

وذكر أيضا فى كتابه (العرب قبل الإسلام) «والصحيح فى اعتقادنا أن (إرم) اسم القبيلة، فقالوا عاد إرم كما قالوا ثمود إرم، والقبائل البائدة كلها عند العرب من نسل إرم، ويعرفون بالأرمان.

ويؤيد ذلك أن اليونانيين ذكروا فى جملة قبائل اليمن حوالى تاريخ الميلاد قبيلة يكتبونها بلسانهم وقد يتبادر إلى الذهن المراد بها حضرموت ولكن هذه يكتبونها باليونانية وباللاتينية أوردوا اللفظين معاً، فلو أرادوا قبيلة واحدة لما ذكروهما معاً، فالأرجح أن يراد بها العارميون أو العاديون.

وأحب أن أنبه إلى أن (بطلميوس) كتب اسم حضرموت على النحو الآتى:

كما أن هناك صورا أخرى كتبها (بيلينوس) و(نيوفراستوس) ورأى فورستر وجود صلة بين (عادة) وهى اسم زوجة (لامك) وبين عاد، وهى والدة (يابال) الذي كان أبا لسكان الخيام ورعاة المواشى ونسلها من الأعراب وقوم عاد من الأعراب كذلك، وذهب أيضا إلى أن هؤلاء هم.

ونص الآية «واتخذ لامك لنفسه امرأتين، اسم الواحدة عادة، واسم الأخرى صلة، فولدت عادة (يابال) الذى كان أبا لسكان الخيام ورعاة المواشى، واسم أخيه (يوبال) الذى كان أبا لكل ضارب بالعود والمزمار).

ويمكن القول أن لا صلة بين زوجة لامك (عادة) وبين قبيلة (عاد) يمكن لمؤرخ أن يسجلها كجزء من التاريخ الحضارى.

عاد فى الشعر الجاهلى

لقد بقى ذكر عاد معروفاً متداولا بين عرب الجاهلية وتناقل رواتهم شيئاً من أخبارهم بدليل ورود ذكره فى بعض أبيات لكبار الشعراء، والذي يلفت النظر أن هناك دولا عربية ظهرت فى جنوب الجزيرة العربية بعد (عاد) بقرون طويلة ومع هذا فلا يكاد يوجد لها ذكر فى الشعر الجاهلى مثل معين وحضرموت و(قتبان) و(أوسان) ولعل ذلك راجعاً إلى ما اشتهر عن (عاد) من قوة وبطش ولما شاهدوه من مبان نسبوها إلى (عاد) فقد جاء ذكره فى شعر النابغة قال :

أحلام عاد وأجساد مطهرة   من المعقة والآفات والإثم

وفى شعر متمم بن نويرة اليربوعى قال :

أفانين عاد ثم آل محرق   فتركتهم بادا وماقد جمعوا

وقال سويد بن كاهل اليشكرى :

غلبت عاداً ومن بعدهم   فأبت بعد فليست تتضع

ونكتفى بما سبق، إذ المراد التدليل على أن ذكر عاد احتل مكانا فى ذاكرة الشعراء الجاهليين، بالرغم من مرور مدة طويلة جداً على ذهاب دولتهم، ويجب القول أنها مجرد ذكرى عابرة، الأمر الذى يدل على أن معرفتهم بعاد بسيطة ومحدودة، فلم نطلع على تفاصيل حادثة لبطل (معين) على نحو مافعل(هوميروس) فى الإلياذة ولو بصورة مصغرة.

عاد فى القرآن الكريم

لقد أمدنا القرآن الكريم بمعلومات على جانب عظيم من الأهمية عن شعب عاد وماكانوا عليه من وثنية، وكيف أن هوداً عليه السلام دعاهم إلى عبادة الله، وما دار بينهم وبين هود من جدل، كما أوضح طريقته فى محاجة (هود) وإعراضهم عن دعوة التوحيد، وبين منازلهم وأنها بالأحقاف، وأشار إلى حضارتهم ومقدرتهم فى بناء المصانع وغرس الجنان، وكيف أنهم أصروا على الشرك واستمرار عبادة الأصنام، حتى أهلكم الله بالريح العقيم.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) ﴾ [الأعراف].

وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) ﴾ [هود].

وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) ﴾ [الأحقاف].

وقال تعالى : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ

الأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) ﴾ [الشعراء].

وقال تعالى: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) ﴾ [الذاريات].

وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) ﴾ [الحاقة].

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) ﴾ [الفجر].

قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١)

فَأَنجيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) ﴾ [الأعراف]

قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) ﴾ [هود]

قال تعالى : ﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ

حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ (٨) ﴾ [الحاقة]

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠) ﴾ [الشعراء]

عاد والأخباريون
والمؤرخون المسلمون

قسم بعض المؤرخين (عاداً) إلى قسمين (عاد الأولى وعاد الثانية) وواضح أن هذا التقسيم مأخوذ من قوله تعالى :

﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النجم].

وينسب الطبرى عاداً الأولى إلى عوص بن إرم بن سام بن نوح وأما عاد الثانية فسيأتى الحديث عنها فى موضعه.

وقد تبع القلقشندى. فيما ذهب إليه الطبرى فقال : عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، ويقال لهؤلاء عاد الأولى، وقعت إليهم الإشارة بقوله تعالى:

﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النجم].

ثم أضاف بقوله : ومن المفسرين من يقول إن الأولية فى وصف (عاد) باعتبار من تقدمها من الأمم. إشارة إلى قدم هذه الأمة، وبقوا الكل عاداً واحدة».

أما المسعودى فقال : ذكر جماعة من ذوى العناية بأخبار العالم أن (الملك) يؤثر من بعد نوح فى عاد الأولى التى بادت قبل سائر ممالك العرب كلها، ومصداق ذلك قوله عز وجل :

﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النجم].

فإنه يدل على تقدمهم، وأن هناك عاداً الثانية، وأخبر الله عن ملكهم ونطق بشدة بطشهم وما بنوه من الأبنية المشيدة التى تدعى على ممر الدهور العادية

وقد أخبر الله تعالى عن قول نبيه هود عليه السلام وخطابه إياهم:

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) ﴾

أما ابن الأثير فقد ذكر عاداً ولكنه كان حذراً، فلم يقسمها إلى قسمين، بل تحدث عنها كواحدة، ونسبها إلى عوص بن إرم.

وأشار ابن كثير إلى عاد الأولى فقال : وكانوا كثيراً مايسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام، كما قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) ﴾ أى « عاد إرم وهم عاد الأولى.

أما ابن خلدون فقال : فأما (عاد) وهم بنو عاد بن عوص بن إرم بن سام، ثم بعد أن سخر ممن ذكر أ (إرم ذات العماد) كمدينة قال : ولما اتصل ملك عاد وعظم طغيانهم وعتوهم انتحلوا عبادة الأصنام والأوثان من الحجارة والخشب، ويقال إن ذلك لانتحالهم دين الصابئة فبعث الله إليهم أخاهم (هودا) الخ».

وأضاف، ثم ملك لقمان ورهطه من قوم عاد، فاتصل لهم الملك فيما يقال ألف سنة أو يزيد، وانتقل ملكه إلى ولده لقمان، ولم يزل ملكهم متصلا إلى أن غلبهم عليه يعرب بن قطحان، واعتصموا بجبال حضرموت إلى أن انقرضوا.

ويمكن أن نفهم ضمناً مما ذكره ابن خلدون أن عاداً الثانية (هم قوم لقمان الذين استمر ملكهم أكثر من ألف سنة)، وأن عاداً الأولى هم الذين سبقوا الرسول هوداً عليه السلام، وكذا الذين بعث إليهم.

موطن عاد

أما موطن عاد فهو الأحقاف،

قال الله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) ﴾ [الأحقاف].

والأحقاف جمع حقف وهو ما أعوج من الرمل واستطال وهناك عدة أقوال ذكرها المؤرخون والبلدانيون والمفسرون فى تحديد موقع الأحقاف، نجتزىء بذكر أبرزها.

الأحقاف واد بين عمان وأرض المهرة، وينسب هذا الرأى لابن عباس.

الأحقاف رمل بين عمان إلى حضرموت، كما حكاه ابن إسحاق.

الأحقاف رمل مشرف على البحر بالشحر من أرض باليمن، قاله قتادة.

وقال أبو الفداء : ونزل عال لما تبلبلت الألسن فى حضرموت. ثم قال: وبلاد عاد يقال لها الأحقاف وهى بلاد متصلة باليمن وبلاد عمار.

قال المسعود: فحل عاد بن عوص وولده الأحقاف من بلاد حضرموت.

وقال ابن خلدون : فكانت مواطنهم الأولى بأحقاف الرمل بين اليمن وعمان إلى حضرموت والشحر.

أما البشارى فقال : ناحيتها الأحقاف بها من المدن حضرموت.

وذكر الإصطخرى: أن حضرموت شرق عدن بقرب البحر وبها رمال تعرف بالأحقاف.

وقال اليعقوبى : كانت منازلهم (أى عاد) بين أعالى حضرموت إلى أودية نجران.

وقال القرطبى المفسر: كانت عاد ينزلون الرمل رمل عالج، وكانت فيما يروى بنواحى حضرموت إلى اليمن.

أما الشريف عبد المحسن البركاتى فذكر أن بلاد حضرموت (وهى الأحقاف) واقعة بين ولاية اليمن وبلاد عمان والمحيط الهندى والصحراء الكبرى.

وقال الأستاذ عبد الوهاب النجار: كانت منازل عاد أرض الأحقاف وهى تقع شمال حضرموت.

قال الدكتور عبد الوهاب عزام. والذى فى شمال حضرموت وشرقها يسمى الأحقاف.

قال الدكتور فيليب متى : أما بنو عاد قيل إنهم سكنوا حضرموت القديمة.

وقال ابن كثير بعد أن ذكر عاداً : كانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن.

ونقل الخازن فى تفسيره عن مقاتل : كانت منازل عاد باليمن بحضرموت بموضع يقال له مهرة.

وقال الدكتور على إبراهيم حسن: عاد موطنها الأصلى حضرموت تتاخم بلاد اليمن.

وقاد محمد أفندى عارف : وكانوا (أى عاد) ينزلون فى الأحقاف بحضرموت.

وذكر الهمدانى فى معرض تحديده لقبر هود عليه السلام : قبر هود فى الكثيب الأحمر، ثم منه فى كهف مشرف من أسفل وادى الأحقاف، وهو واد يأخذ من بلد حضرموت إلى بلد مهرة. مسيرة أيام.

وقال القاضى نشوان الحميرى : الأحقاف رمال بأعينها فى أسفل حضرموت.

ذكر ياقوت الحموى أيضا مايلى عن الملك شداد بن عاد: وسار نحوها (أى إرم ذات العماد) وخلف على ملكه بحضرموت وسائر أرض العرب ابنه شداداً.

ذكر الأستاذ أحمد شرف الدين عن عاد : وقد عاشت بالأحقاف من أرض حضرموت.

قال الأستاذ سيد مظفر نادثى: عاشت عاد فى خير بقاع بلاد العرب وهى اليمن وحضرموت فانتشرت بين سواحل الخليج الفارسى وحدود أرض الجزيرة.

أما السيد عبدالرحمن بن عبيدالله السقاف مفتى حضرموت والمؤرخ المعاصر فيفهم مما ذكره أن عاداً سكنت الأحقاف بما فى ذلك حضرموت أيضاً.

ويقول الأستاذ محمد الشاطرى المؤرخ الحضرمى المعاصر: لم يذكر المؤرخون شعباً سكن حضرموت قبل عاد، وهو أول من سكن بعد الطوفان، وهو شعب سامى يعده المؤرخون من العرب البائدة التى تتكون منها الطبقة الأولى من العرب.

وقال الأستاذ سعيد عوض باو زير المؤرخ المعاصر عن وطن عاد: أما منازلهم فهى الأحقاف الواقعة بين حضرموت والبحرين واليمن فى رأى بعض المؤرخين.

وذكر الأستاذ صالح بن على الحامد المؤرخ المعاصر فقال: وأرض الأحقاف التى ذكرها الله تعالى فى القرآن الكريم بقوله:

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) ﴾ [الأحقاف].

ناحية بقرب حضرموت أو هى متصلة بها من ناحيتها الشرقية. كانت موطن عاد الأولى، ومن عهود غير قريبة قد كان وادى حضرموت يسمى وادى الأحقاف.

وقال الأستاذ الطنطاوى المفسر: وكانت منازل عاد باليمن فى حضرموت.

قال مطهر المقدسى المؤرخ عن عاد: نزلوا بهذا الرمل من عمان إلى حضرموت.

قال ابن حوقل: حضرموت شرقى عدن بقرب البحر ورمالها كثيرة غزيرة تعرف بالأحقاف.

قال السيد علوى بن طاهر الحداد: والمراد بالأحقاف جبال الرمل الموجودة فى الرمل المعروف بالبحر السافى فى شمال حضرموت، أضيف وادى حضرموت إليها لقربه منها.

ذكر الدكتور جواد على مايلى : وقد سبق أن قلت إن الذين ذكرهم بطليموس هم قوم عاد، وأنهم كانوا يسكنون فى الأرضين الشمالية الغربية من جزيرة العرب فى منطقة (حسمى) أى فى أعالى الحجاز على مقربة من مناطق ثمود، وهو أقرب إلى الصواب، إذ اقترن ذكر عاد فى القرآن بذكر (ثمود الذين جابوا الصخر بالواد) وحسمى أقرب إلى هذا الوصف من الرمال، ولم يعين القرآن موضع الأحقاف، وإنما عينه المفسرون. ولا يحتم تفسيرهم تخصيص الأحقاف بهذا المكان، حيث جعلوا رمال (وبار) فى جملة المناطق التى كانت لعاد.

وذكر الأستاذ إبراهيم الأبيارى ما يلى :

فقوم عاد كانوا باليمن لاشك فى ذلك، وكانوا بين تلك الأماكن المتقاربة فى أرض اليمن.

وكانت عاد ثلاث عشرة قبيلة ينزلون الرمل وبلادهم أخصب البلاد وكثرتهم وديارهم بالجو والدهناء وعالج ويبرين ووبار إلى عمان إلى حضرموت واليمن.

واستناداً إلى ما سبق فإن منازل عاد هى الأحقاف بصورة قاطعة بنص قوله تعالى:

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) ﴾ [الأحقاف].

إن معظم المؤرخين يجمعون على أن الأحقاف موطن عاد فى جنوب الجزيرة لا فى شمالها. ومع تقديرى لبعض الأدلة التى تشير إلى أن عاداً فى الشمال إلا أنى أرجح ما ذهب إليه جمرة المؤرخين والبلدانيين والمفسرين الذين استعرضنا أقوالهم من أن منازل عاد أصلا فى جنوب الجزيرة العربية ويشمل اليمن وحضرموت وعمان، ولا يمنع هذا من امتداد مجالهم الحيوى إلى شمال الجزيرة بل والهلال الخصيب، والأسباب الآتية توضح موطنهم الأصلى.

١- إن وادى حضرموت يسمى وادى الأحقاف، ولا تزال هذه التسمية باقية إلى يومنا.

٢- لا أعرف وادياً يحمل اسم (وادى الأحقاف) فى جميع أنحاء الجزيرة العربية سوى وادى حضرموت.

٣- إن الناحية الشمالية الغربية من جزيرة العرب شمال الحجاز إلى العقبة وما حولها وادى القرى ومدائن صالح ومنطقة حسمى كلها أرض شبه صخرية.

٤- ومن الكتب التى تحدثت عن مكان عاد كتاب «شمال الحجاز» للمستشرق أ.موسل ترجمة الدكتور عبدالمحسن الحسينى، طبع مطبعة رمسيس بالاسكندرية وكتاب (أرض الأنبياء) - مدائن صالح للمستشرق فلبى، ترجمة الأستاذ عمر الديراوى، من منشورات المكتبة الأهلية ببيروت عام ١٩٦٢، عنوان الكتاب أرض مدين، ولكن جعل المترجم عنوانه أرض الأنبياء - وكتاب فى شمال غرب الجزيرة العربية للعلامة حمد الجاسر نشر دار اليمامة عام ١٩٧٠ وكتاب مدائن صالح للأستاذ محمد عبدالحميد مراد، طبع القاهرة ١٩٧٠.

هذه المصادر لم تترك واردة ولا صادرة عن طبيعة هذه المنطقة إلا ذكرتها، ولم أر أى إشارة إلى وجود منطقة أحقاف فيها، بل إن الدكتور جواد على أمدنا بمعلومات واسعة وقيمة عن شمال الحجاز نجتزىء منها بما يلى، قال :

«ويقال للقسم الشمالى من الحجاز أرض (مدين وحسمى) نسبة إلى السلسلة الجبلية المسماة بهذا الإسم التى تتجه من الشمال نحو الجنوب وتتخللها أودية محصورة بين التية وأيله من جهة وأرض بنى عذرة من ظهر حرة نهيل من جهة أخرى.

وفى موضع آخر قال : وتعد حسمى فى المناطق الجبلية ومادات منطقة (حسمى) من المناطق الجبلية أو شبه صخرية فإنه لا ينطبق عليها بأنها أرض الأحقاف.

إرم ذات العماد

إرم بكسر أوله.

لم يشر الطبرى فى تاريخه إلى مدينة إرم ذات العماد، ولكن ذكر فى تفسير قوله تعالى :

﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ ﴾ [الفجر].

قوله يعنى عاداً، والهاء عائد على عاد. وذكر أنه يجوز أن تكون عائدة على (إرم) لما قد بينا أنها قبيلة.

ثم قال : وإنما عنى بقوله ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ ﴾ [الفجر]. فى العظمة والأيد.

أما الهمدانى فقال : يقول اليمانية وأكثر العلماء فى البلاد إن (إرم ذات العماد) فى (تيه أبين) وهو غائط[1] بين حضرموت وبين (أبين) وما سمعنا أحداً قال إنه عاينها إلا ما يذكر من خبر الرجل الذى أضل أبله فى تيه (أبين) فالتقطها ووصف بناءها وعجائبها فى زمن معاوية.

ثم قال : والعجم تذكر أن (إرم ذات العماد) بدمشق، وأن جيرون بن سعد بن عاد بنى مدينتها وسماها جيرون، ذات العماد لكبر أعمدة حجارتها، والله أعلم.

وذكر ابن خلدون ما يلى : والصحيح أنه ليس هناك مدينة اسمها إرم، وإنما هذا من خرافات القصاص، وإنما ينقله ضعفاء المفسرين وإرم المذكورة فى قوله تعالى ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ ﴾ القبيلة لا البلد.

---

(١) غائط : مكان منخفض

أما ابن الأثير فقد التزم الصمت فلم يشر إلى تلك المدينة الأسطورية.

بينما ذكر ابن كثير بعد قوله تعالى:

﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) ﴾ [الفجر].

أى مثل القبيلة، وقيل مثل العمد، والصحيح الأول.

وقال فى موضع آخر: وكمن زعم أن إرم مدينة من ذهب وفضة وهى تنتقل فى البلاد فقد غلط وأخطأ، وقال مالا دليل عليه.

وقد أشار المسعودى إلى أن منهم (أى عاد) جيرون بن سعد بن عاد، حل دمشق فلمصر مصرها وجمع أعمدة الرخام والمرمر إليها وشيد بنياتها وسماها ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) ﴾.. الخ.

أما البلدانيون فقد قال البكرى عن «إرم ذات العماد» ويقال إنها دمشق، وأن بها أربعمائة ألف عمود من حجارة ونزلها جيرون بن سعد بن عاد فسميت باسمه جيرون – ويقال إن إرم ذات العماد بتيه أبين من اليمن. وبهذا التيه سكن إرم بن سام بن نوح، فسميت به، وهو الذى فى التنزيل.

وأسهب ياقوت الحموى فى وصف إرم ذات العماد، ونقل الأساطير عن هذه المدينة، وأرى أن نلخص أبرز ما ذكره : «هى إرم عاد»، وبعد أن تناول الكلمة من ناحية الإعراب قال : ثم اختلف فيها فمنهم من جعلها مدينة، ومنهم من قال هى الاسكندرية، وأكثرهم يقولون هى دمشق، وكذلك قال شبيب بن يزيد بن النعمان بن بشر:

لولا التى علقتنى من علائقها   لم تمس لى إرم داراً ولا وطنا

ثم حكى عن الزمخشرى : إن إرم بلد منه الاسكندرية، وقال آخرون إن (إرم ذات العماد) فى اليمن بين حضرموت وصنعاء من بناء شداد ابن عاد.

ويعلق الأستاذ جرجى زيدان -بعد أن أورد رواية ياقوت- على مدينة الأحلام قائلا: وفى هذه الأقوال مبالغات لم يسمع بمثلها فى المعقولات، وإنما عمدوا إليها لاعتقادهم أن (إرم) مدينة، ورأوا أبنية الروم فى الشام، والفراعنة فى مصر، فأرادوا أن تكون مدينة عاد أعظم منها وأفخر، والصحيح فى اعتقادنا أن (إرم) اسم القبيلة، فقالوا: عاد إرم كما قالوا ثمود إرم، والقبائل البائدة كلها عند العرب من نسل إرم ويعرفون بالأرمان.

وقد أدلى بعض المستشرقين بدلوهم -كما عهدناهم- فى كل أحداث الشرق قديماً وحديثاً، فكتب فنسنك ما يلى ملخصاً.

«فإذا اعتبرت (إرم) مقابلة لـ (عاد) فإنه من الواضح أن تعتبر (إرم) أيضاً اسماً لنفس القوم من الناس».

ثم قال «أما إذا كانت الصلة بين إرم وعاد صلة إضافة فإنه يحتمل أن تكون (إرم ذات العماد) تعبيراً جغرافيا يدل على مكان الاستيطان، وهذا هو الرأى السائد بين المسلمين».

ثم قال ويرى ياقوت ويتبعه فى ذلك الكثيرون أن (ذات العماد) صفة دمشق وفيها استقر جيرون بن سعد بن عاد، وابتنى مدينة تحليها عمد من الرخام، وقد استغل لوث هذه الرواية لتدعيم رأيه القائل بأن اسم (إرم) لا يتصل إلا بالروايات الآرامية، ثم علق على رواية المسعودى فقال إنه بحسبها لا ينتهى تاريخ هذه المدينة على هذا الوجه المحزن، فقد رغب شداد فى أن يبنى ما يماثلها فى موضع مدينة الاسكندرية.

إن الاسكندر الأكبر لما أسس مدينة الاسكندرية بعد ذلك وجد فيها آثار بناء عظيم ذى عمد من الرخام على أحدها نقش اسم شداد بن عاد بن شداد بن عاد، وأنه قد شيد هذه المدينة على مثال (إرم ذات العماد) ولكن الله أهلكه

وحذر كل إنسان من القيام بمثل هذا العمل العظيم، ومن اليسير أن نلاحظ أن هذه الرواية قد أخذت من قصة الاسكندر التى تذهب إلى أنه قد اكتشف عند تشييده الاسكندرية معبداً فيه مسلات عليها نقش يشير إلى الملك الذي حكم المعمورة، مضاف إلى هذا أن ذلك النقش الذي يشير إليه المسعودى يتمشى مع قصة الاسكندر إلى حد بعيد، وإذن يجب أن لا نتنظر فى هذه الرواية أن تدلنا على موقع إرم».

ثم ختم بحثه قائلا: إنه لا حاجة بنا إلى الاعتراف بما ذهبت إليه الروايات الإسلامية من أن هناك صلة بين قوم إرم (آرم) وأرم ذات العماد، وتاريخ الكشف عن قبر أسرة عاد بن إرم».

وأحب أن أوضح هنا تعليقاً على ما سبق عن (فيتسنك) بأن إرم ذات العماد تعبير جغرافى يدل على مكان الاستيطان، وهذا الرأى السائد بين المسلمين.. الخ، والواقع أن ثقات المؤرخين المسلمين، ومنهم الطبرى وابن خلدون وابن الأثير، كل هؤلاء لا يؤيدون الرأى القائل بأن (إرم ذات العماد) (مدينة بعينها) على النحو الذى ذكره الأخباريون، بل إن منهم من لم يذكرها كلياً كما سبق، ولكن إذا كان المراد بمكان الاستيطان مجرد تعبير عن المناطق التى يسكنها شعب عاد وما أقامه فيها من مدن وقرى وسدود ومزارع فهذا رأى جديربالتقدير).

(وقد ذهب (موريتس) إلى أن موضع الذى ورد عن (بطليموس) هو إرم أو إرم ذات العماد . ويقال له الآن (رم). وقد أيد موسل رأى (موريتس)، غير أنه لم يذهب إلى ما ذهب إليه من أنه (إرم).

وقد أظهرت الحفريات التى قام بها المعهد الفرنسى فى القدس صحة هذا الرأى، إذ ورد فى الكتابات النبطية التى عثر عليها فى خرائب معبد اكتشف فى

(رم) أن اسم الموضع هو(إرم) فيتضح من ذلك أن هذا الموضع حافظ على اسمه القديم، غير أنه صار يعرف أخيراً بـ (رم) بدلا من (إرم).

وفى سنة ١٩٣٢ قام (هو رسفيلد) من دائرة الآثار فى المملكة الأردنية الهاشمية بحفريات فى موضع جبل (رم) ويقع على مسافة ٢٥٠ ميلا إلى الشرق من العقبة، ويقع المكان الذى بحث فيه عند واد على مقربة منه «عين ماء» ووجد فى جانب الجبل آثاراً جاهلية قديمة.

وقد حملت اكتشافات هذه الآثار واكتشافات سافيناك اكتشافات علي القول بأن هذا المكان هو موضع (إرم) الوارد ذكره فى القرآن، والذي كان قد حل به الخراب قبل الإسلام ، فلم يبق منه عند ظهور الإسلام غير «عين ماء» كان ينزل عليها التجار وأصحاب القوافل الذين يمرون بطريق الشام – مصر– الحجاز».

الفصل الثالث

ديانية عاد الوثنية .

أ صنام عاد .

أسماء أ صنام قوم عاد وأسماء أ صنام بعض الأمم التى بعدها .

الرسول هود عليه الصلاة والسلام .

هل المراد باسم هود اليهودية أو التهود.

ديانة عاد الوثنية

يحتل الدين مكاناً ساميا فى نفوس البشر سواء كان سماوياً أو وثنياً

ويطلق على هذا النوع الأول من الديانات مصطلح Montheism أى التوحيد مشتق من Monsos أى واحد ومن Thens بمعنى اله أى إله واحد ويقال للشرك الذى هو ضد التوحيد وهو مركب من كلمتى Poiys بمعنى تعدد وكثرة و Theos بمعنى إلهة أى تعدد الآلهة

يمكننا أن نفهم مما دكره ابن خلدون بأن الوثنية لم تكن ديانة عاد الأصلية، قال ثم لما اتصل ملك عاد وعظم طغيانهم وعتوهم انتحلوا عبادة الأصنام والأوثان مر الحجارة والخشب ويقال إن ذلك لانتحالهم دين الصابئة، فبعث الله إليهم أخاهم هوداً الخ

ويظهر أن التحول إلى الوثنية ينطبق على كل الشعوب السامية فى عهدها السابق.

وقد ذهب رينان إلى أن العرب هم مثل سائر الساميين الآخرين موحدون بطبعهم وأن ديانتهم هى من ديانات التوحيد، وهو رأى يخالفه فيه نفر من المستشرقين.

وقد أقام رينان نظريته هذه فى ظهور عقيدة التوحيد عند الساميين من دراسته للآلهة التى تعبد لها الساميون ومن وجود كلمة (ايل) فى لهجاتهم فادعى أن الشعوب السامية كانت تتعبد لإله واحد هو (ايل) الذى تحرف اسمه بين هذه اللهجات فصار (يهو) و(يهوه) و(الوهيم) عند العبرانيين، واللات وإله عند العرب، والأصل عند الجميع هو الإله (ايل)

وقال العلامة المؤرخ والمحدث عبد الرحمن المعلى

(ولابد أن يكون بقى دين نوح فى ذريته ماشاء الله، ثم غير وبقيت منه بقايا، ولعله بعث بعد نوح رسل لانعرفهم، وإنما نعرف من نص الله قصته، مثل رسولية هود وصالح وقومهما عاد وثمود، وكانوا من العرب قبل إبراهيم – عليه السلام- ،

قال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ (١٦) ﴾ [فصلت]

وذكر سبحانه وتعالى فى سورة الأحقاف عادا :

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا

إن مَكَّنَّاكُمْ فيـــه وجعلْنا لهُمْ سمْعًا وأَبْصارًا وأَفْئدةً فما أَغْنَىٰ عنْهُمْ سمْعُهُمْ ولا أبْصارُهُمْ ولا أَفْئدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إذْ كَانُوا يَجْحدُون بآيَات الـــلَّه وحاق بهم مَّا كانُوا به يسْتَهْزِئُونَ (٢٦) ﴾[الأحقاف].

ثم خاطب المشركين بقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الآيَات لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) ﴾ [الأحقاف]

والقرى التى حولهم قرى عاد وثمود وغيرهم ومما تقدم تبين أن عاداً وثمود بقى فيهم من دين الحق والإيمان بوجود الله وملائكته وأنهم يعبدون غيره قرباناً، أى تقرباً إلى الله زلفى، فالإيمان بوجود الله فطرى فى البشر.

أصنـام عاد

دراستنا لأصنام عاد تعطينا فرصة للتعرف على الأصنام التى عبدها العرب فى الجاهلية قبل ظهور الإسلام ومدى علاقتها بأصنام عاد.

ذكر الطبرى أن عاداً كانوا أهل أوثان ثلاثة يعبدونها يقال لأحدها «صدا» وللآخر «صمود» والثالث «الهياء».

أما ابن كثير فقال «وكان أصنامهم ثلاثة صدا وصمودا وهبا.

وقال ابن الأثير «وكانوا أهل أوثان ثلاثة يقال لأحدها ضرا وللآخر ضمور والثالث الهباء».

وقال النويرى عن عاد « وكان لهم ثلاثة أصنام صدا وهباء وصمو».

ويظهر أن الاختلاف فى بعض الأسماء مجرد تصحيف من النساخ.

ومما سبق نرى أنه لا يوجد فى أسماء أصنام عاد ما يحمل اسم صنم من أصنام قوم نوح الذين جاء ذكرهم فى قوله تعالى:

﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً ﴿٢٤﴾ ﴾ [نوح].

مع العلم بأن عادا أقرب إلى قوم نوح من غيرهم من الأمم ، كما جاء فى محكم التنزيل:

﴿ واذكروا إذا جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ .

والذى يدعو إلى العجب أن أسماء أصنام قوم نوح احتفظ بها بعض القبائل العربية وعبدوها إلى حين ظهور الإسلام بينما لم يعبد من أصنام عاد سوى عدد أقل بكثير من أصنام قوم نوح.

أسماء أصنام قوم عاد

وأسماء أصنام بعض الأمم التى بعدها

بالرغم من عدم ذكر أسماء أصنام (عاد) بصورة صريحة بين أسماء أصنام عرب الجزيرة إلا أنه يوجد شىء من التقارب بين أسماء أصنام عاد وأسماء أصنام بعض القبائل العربية التى جاءت بعدها بأمد طويل، ولكن بشىء من التحريف اقتضاه اختلاف اللهجات وطول الزمن فمثلا (صدا) لعله تحرف إلى (صدر) من آلهة الأشوريين والبابليين.

(صمود) فى رواية الطبرى والمسعودى أو (صمو) فى رواية النويرى، لعله تحرف إلى (صلمو) أو(صلم) وهو من آلهة ثمود المشهورة، وقد ورد اسمه فى كتاباتهم، كما جاءت كلمة (صلم) فى نصوص المسند بمعنى صنم (الهباء) ربما تحرف إلى (هبل) وكان لقريش أصنام فى جوف الكعبة وحولها، وكان أعظمها عندهم.

(ضمور) فى رواية ابن الأثير، لعله تحرف إلى (ضمار) وهو صنم عبده العباس بن مرداس السلمى.

الرسول هود

عليه الصلاة والسلام

هو هود بن عبدالله بن رياح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح.

ولا أحب أن أطيل على القارئ بذكر سلسلة نسب هود -عليه السلام- واختلاف المؤرخين فيها، إذ لا يوجد دليل قطعي مع أى فريق، والشيء المؤكد أن هوداً من شعب عاد،

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) ﴾ [الاعراف].

وقال تعالى : ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) ﴾ [هود].

هل المراد باسم هود

اليهود أو التهود ؟

نبه المستشرقون إلى وجود شبه بين (هود) و(هود) الواردة فى القرآن أيضا بمعنى (يهود)، ﴿ وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ﴾ ، وأشاروا إلى أن هوداً يعنى التهود، كما لاحظوا أن بعض النسابين قالوا إن هوداً هو عابر بن شالح بن أرفكشاد جد اليهود، فذهبوا إلى أن هوداً لم يكن اسم رجل، وإنما هو اسم جماعة من اليهود هاجرت إلى بلاد العرب، وأقامت فى الأحقاف وحاولت تهويد الوثنيين وعرفوا بـ (يهوذا) ومنها جاءت كلمة (هود) وإنما استعملت من باب التجوز علماً لشخص.

وكتب الأستاذ / جرجى زيدان مقالا مطولا فى مجلة الهلال نلخصه بمايلى:

«والظاهر أن (هوداً) ليس رجلا واحداً، وإنما جماعة كبيرة والعرب يذكرون الرجل ويريدون القبيلة. ربما كانت الحملة شرذمة من قوم موسى الذين خرجوا من مصر، فلما طال مقامهم فى التيه ملوا الإقامة فى شبه جزيرة سيناء فهم لا يستطيعون العودة إلى مصر ولا الذهاب إلى أرضهم لأن الكنعانيين أعداء لهم هناك».

ويفترض أنهم ربما رافقوا قافلة إلى أرض الأحقاف بعد أن أخبرتهم القافلة بخصب بلادهم، ويرى أنهم ربما كانوا من سبط (يهوذا) ثم تحول الإسم بالاستعمال حتى صار (هوداً)، وأنهم لما رأوا كفر (عاد) حاولوا هدايتهم إلى عبادة الواحد القادر على كل شيء.

ويختتم هذا الافتراض بقوله «وكان ماكان» ويرى أنه إذا صح هذا التعليل كان خراب عاد حوالى القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

إن القول بأن هوداً الوارد فى القرآن الكريم بمعنى التهود، أى الدخول في اليهودية، أو أن هوداً هو عابر بن شالح بن ارفكشاد جد اليهود، أو أن هوداً ليس رجلا واحداً وإنما جماعة، كل هذه افتراضات تحتم على الباحث أن يلغى أبسط قواعد اللغة العربية إلى الحد الذى لا يميز بين أسماء الأعلام من غيرها، كما يفرض على المؤرخ أن يتجاهل جملة وتفصيلا ما ذكره النسابون ، ويجعل (عابراً) جداً لليهود وحدهم.

والذى يلفت النظر أن أصحاب هذه الافتراضات يؤكدون وجود أرضين تسمى (الأحقاف)، وأنه عاش فيها شعب وثنى، مادام أن هناك جماعة من (اليهود) قدموا من سيناء من أرض التيه أو غيرها لهداية ذلك الشعب الوثنى وإدخاله فى اليهودية.

ولكن الشيء الذي لايمكن قبوله أو حتى تصوره لدى أولئك الذين يزعمون أنهم يكتبون التاريخ بتجرد وموضوعية أن يكون ذلك (الشعب عربيا) وأن الله بعث إليه (نبياً عربياً) هو (هود عليه السلام رسول الله)، بعث لهداية قومه عاد الشعب، العربي كما نص عليه القرآن وأجمع عليه المؤرخون المسلمون

إن التاريخ تراث حضاري عام لا يمكن إخضاعه لأغراض أو مؤثرات (عقائدية) أو عنصرية أو لهدف استعماري، وإذا انساق المؤرخ إلى هذا الدرك فعلي البحث العلمي العفاء

الفصل الرابع

رسالة هود إلى عاد .

رفض عاد الأولى لدعوة هود وهلاكهم.

عاد الثانية .

أجسامهم وأعمارهم .

وفاة هود ومو ضع قبره .

لغتهم .

حضارة عاد .

رسالة هود إلى عاد

دعا هود -عليه السلام- قومه إلى توحيد الله -عز وجل- ونبذ عبادة الأصنام، إلا أن غالبية شعب عاد أعرض عن الدعوة الكريمة وقابلها بتحد وشراسة.

قال الطبرى : فحبس الله عنهم -فيما ذكر- القطر سنين ثلاثاً حتى جهدوا، فأوفدوا وفدا ليستسقوا لهم إلى مكة ... إلخ

أما المسعودى فقال : وبغت عاد فى الأرض، ثم أشار إلى أصنامها فقال: فدعا عليهم (هود) فمنعوا من القطر ثلاث سنين، وأجدبت الأرض فلم يدر عليهم ضرع.

وقال ابن خلدون : ولما اتصل ملك عاد وعظم طغيانهم وعتوهم انتحلوا عبادة الأصنام والأوثان من الحجارة والخشب. ويقال إن ذلك لانتحالهم دين الصابئة، فبعث الله أخاهم هوداً.

وبعد أن أشار إلى لقمان وقومه ممن آمن بهود، وأن الخلجان وقومه كفروا امتنع هود بعشيرته من عاد، وحبس الله عنهم المطر ثلاث سنين، الوفد أرسلوا من قومهم إلى مكة يستسقون لهم.

وأرجح أن (الجفاف) الذى أصاب الجزيرة العربية سابق لعهد (عاد) بأمد طويل وأن الجزيرة لم تكن تستمتع بجو ممطر ولا بأنهار دائمة الجريان أيضاً من زمن بعيد وهذا يمكن أن يلاحظ من قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) ﴾ [الأحقاف].

والرأى بوجود الجفاف واستحكامه فى جو الجزيرة العربية نادى به بعض

المستشرقين وفى مقدمتهم الأمير كيتانى وأشبرنجر. وغيرهما وأنه بدأ من نحو عشرة آلاف عام أو أكثر من ذلك وأن هذا الجفاف هو السبب الرئيسى لموجات الهجرات من الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب وغيره.

ولا بأس أن نلخص بإيجاز ما ذكره المؤرخون عن إرسال (عاد) وفداً إلى (مكة المكرمة) للاستسقاء لدى (البيت العتيق) وأن الوفد إبان الطواف شاهد ثلاث سحائب إحداهما حمراء والثانية بيضاء والثالثة سوداء وأنه سمع مناديا : أن اختاروا إحدى الثلاث السحائب، فاختار الوفد السحابة السوداء وكان فيها هلاك قومهم- بالريح العقيم- أو ريح صرصر.

وأغرب من هذا أن (الوفد) لما رجع شاهد فى أثناء الطريق راكب ذلول سرعاً يطوى الفلاة وكان ذلك فى (ليل مقمرة) وأخبرهم أنه قطع المسافة بين (الأحقاف - والحجاز فى أربعة أيام وأن قومهم (عاد) هلكوا بالريح العقيم أو ريح صرصر.

هذه خلاصة ماذكره الطبرى وابن الأثير وابن كثير وابن خلدون.

والغريب أن هؤلاء هم كبار المؤرخين المسلمين ولم نجد من أحدهم نقداً لهذه الأخبار الملفقة، ثم أى استسقاء فى البيت العتيق ينتظر من شعب وثنى جبار متكبر حريص على ما كان يعبد آباؤه من أصنام ؟

وقد قابل رسالة (هود) -عليه السلام- بتحد وسخرية. ومع هذا فقد لخصنا ماذكره المؤرخون بالرغم من وجود بعض الاختلاف فى سرد التفاصيل لهذه الحكاية بينهم، ثم أى ذلول تستطيع قطع المسافة الشاسعة بين الأحقاف والحجاز خلال أربعة أيام ؟؟!

رفض عاد الأولى لدعوة هود وهلاكهم

وأخيرا حانت ساعة العقاب، وأهلك الله عاداً التى أعرضت عن رسالة هود - عليه السلام- لتوحيد الله عز وجل.

أما نوع العذاب الذى قضى على عاد الأولى فهو كما وصفه الله (الريح العقيم) أو (ريح صرصر).

قال الله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ (١٦) ﴾ [فصلت].

وقال تعالى: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) ﴾ [الذاريات].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠) ﴾ [القمر].

وقد استمر العذاب سبع ليال وثمانية أيام كاملة،

قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ (٨) ﴾ [الحاقة].

واضح أن هذا الوصف المرعب يفيد أن عاداً أهلكوا بظاهرة طبيعية غريبة، ويظهر أنها على شكل عاصفة أو إعصار مدمر،

بدليل قوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة]

وذكر المسفرون أن الريح كانت تدخل تحت الواحد منهم فتقلعه، أما هود -عليه السلام- والمؤمنون برسالته فقد نجوا من ذلك العذاب الغليظ.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨﴾ [هود].

وقد اعتزل هود فيما ذكر ومن معه من المؤمنين فى حظيرة ما يصيبه ومن معه فيها إلا ماتلين عليه الجلود وتلذ به الأنفس، وأن الريح لتمر من عاد بالطعن ما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة.

بينما ذكر ابن خلدون أن (هودا) -عليه السلام- ومن معه من المؤمنين ذهبوا إلى ساحل البحر بجبال حضرموت حينما وقع العذاب على عاد الوثنية.

عاد الثانية

إن المعلومات التى أمدنا بها المؤرخون والأخباريون عن عاد الثانية أقل من سابقتها (عاد الأولى) ، ولعل الكارثة التى منى بها شعب عاد الأولى وما عرف عنه من قوة وجبروت كل ذلك سلط الأضواء عليه، بينما لم تحظ عاد الآخرة إلا بنزر يسير من الاهتمام والعناية.

وقد سبق أن ذكرنا أن بعض المؤرخين والمفسرين فهموا من قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النجم]. أن هناك عاداً الأولى وعاداً الثانية.

وملخص ما ذكره الطبرى عن الوفد الذى بعثته عاد إلى مكة للاستسقاء وعلى رأسهم (قيل بن عير) و(لقيم بن هزال) وقد بلغ عدد أفراد الوفد سبعين. وقال : فنزلوا على معاوية بن بكر، وهو بظاهر مكة خارج الحرم، وكانوا أخواله وصهره، وكانت هزيلة ابنة بكر أخت معاوية ابن بكر عند لقيم بن هزال فولدت له عبيداً، وعمراً، وعابراً. وعميداً أبناء لقيم، فكانوا أخواله بمكة عند آل معاوية بن بكر. وهم عاد الآخرة التى بقيت من عاد الأولى.

أما المسعودى فبعد أن ذكر الملك (عاد) ثم ابنيه اللذين ملكا بالتوالى قال : وهذه عاد الثانية التى ذكرها الله تعالى فقال :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ ﴾ [الفجر]

أما ابن كثير فقال : فعلى هذا تكون القصة المذكورة فى سورة الأحقاف خبراً عن قوم عاد الثانية، وتكون بقية السياقات فى القرآن خبراً عن عاد الأولى.

ولم ينص ابن خلدون على اسم عاد الثانية، إلا أنه يمكننا أن نفهم ضمناً مما سرد من أخبار عاد وهلاكها، قال : ثم ملك لقمان ورهطه من قوم عاد واتصل لهم الملك فيما يقال ألف سنة أو يزيد، وانتقل ملكه إلى ولده لقمان أيضاً.

ثم قال : ولم يزل ملكه متصلا إلى أن غلب عليه يعرب ابن قطحان، واعتصموا بجبال حضرموت إلى أن انقرضوا .

ومن المفروض أيضاً أنه بعد أن نزل بعاد الأولى عذاب الله لم يبق منهم على ظهرها أحداً، وهى فكرة خاطئة ترتبت على خطأ فى فهم الآيات القرآنية:

﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الاحقاف] .

وقوله تعالى: ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الحاقة]

غير أنه من الواضح أن الآيات السابقة إنما تشير إلى هلاك عاد الأولى الذين كفروا، والله يذكر من نجا من مؤمنيهم بقوله :

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأعراف].

ويحسن أن نشير هنا إلى أن الأستاذ سيد مظفر الدين نادثى بعد عقد فصلا لعاد الثانية كتب تحت عنوان «أدلة الحفائر».

لم يكتشف سوى نقش واحد يتصل بعاد الثانية فى سنة ١٨٨٤ فى أطلال حصن الغراب، على مقربة من عدن، وهو أول النقوش العربية التى اكتشفها الأوربيون فى بلاد العرب، وسمة هذا النقش ولغته عربية جنوبية يحسبها البعض خطأ حميرية، وإليك نص هذا النقش نقلا عن كتاب فورستر (الجغرافيا التاريخية لبلاد العرب) :

١- لقد قضينا دهوراً بين أفنية هذه القلعة في عيشة راضية لا يشوبها ضيق أو عسر.

٢- وتحيط بنا مياه البحر في حالة طغيان المد، وأنهارنا تفيض منندفعة غزيرة.

٣- وبين النخيل الباسقات كان حارسها يغرس الرطب الجنى على ضفاف الجداول المتعرجة الدافقة بالماء أو الجافة.

٤- وكنا نصيد صيد البر بالحبال في الغاب، كما كنا نخرج الأسماك من أعماق البحار.

٥- وكنا نختال في مشيتنا رافلين في ملابسنا الحريرية الموشاة عند أطرافها وثياب سندسية خالصة، وأردية ملونة بخطوط أقلام خضراء.

٦- وكان الملوك الذين يحكموننا منزهين عن الدنيا أشداء على أهل الخديعةوالغدر.

٧- وقد اختاروا لنا شريعة محكمة مستمدة من ديانة هود، وكنا نؤمن بالمعجزات والبعث وإحياء الموتى بإذن الله.

٨- ولما نزل بنا الأعداء لقهر أراضينا اندفعنا جميعاً وحرابنا مشرعة.

٩- وكنا ندافع في قوة وحماسة لنحمي نساءنا وأطفالنا على خيول طويلة الرقاب، رمادية وداكنة وخيول كميتية (نوع من الخيول بين الأسود والأحمر) زاهية.

١٠- وأثخنا أولئك الذين اعتدوا علينا جراحا حتى ارتدوا على أعقابهم.

وإذا صح ما جاء في السطر السابع من النص وهو الذي يشير إلى أن شريعتهم مستمدة من ديانة هود -عليه الصلاة والسلام- وأنهم يؤمنون بالبعث

والحياة الآخرة فإن هذا يؤكد أنهم موحدون بالله عز وجل، إلا أن هذا يحتاج إلى دراسة دقيقة للنص.

والذى يلفت النظر أن الأستاذ مظفر الدين يفهم من سياق بحثه (أن المعينيين والسبائيين والحضرميين والحميريين هم عاد الثانية) وهذا يفهم مما جاء تحت عنوانه «بحث أدلة الحفائر» قال « وسمة هذا النقش ولغته عربية جنوبية يحسبها البعض خطأ حميرية...الخ.

إلا أن هذا الرأى يبدو فيه شىء من التسرع ، ونرى أن عاداً قبل معين، ولم يصلنا نقش بلغتهم الخاصة التى ربما كانت هى الأصل للغة ولهجات شعوب العربية الجنوبية المعينيين ومن بعدهم.

أجسامهم وأعمارهم

اشتهر شعب عاد بالقوة والبطش، ولكن بعض الأخباريين - كعادتهم- بالغوا فى عظم وضخامة أجسامهم.

« وذلك أن هؤلاء القوم كانوا فى هيئات النخل طولا » .

وكل ما ذكروه من أقاصيص لا قيمة لها البتة، والواقع أن شعب عاد كان يتمتع بصحة جيدة، وأفراده كغيرهم من الشعوب التى عاشت فى ربوع الصحراء ذات الهواء الطلق النقى أو المرتفعات التى تتمتع بجو صحى يساعد على النمو الطبيعى.

ونرى أن كثيراً من المفسرين الذين توسعوا فى تفسير قوله تعالى :

﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح، وزادكم فى الخلق بسطة، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾

ففسروا هذه الآية على النحو الذى سبق عن طول أجسامهم، والقرآن العظيم لم يحدد طول أو عرض أجسامهم، ولكن بعض المفسرين ينقلون الروايات التى أصبحت مادة خصبة للتقول على الإسلام ورجاله من قبل جهات معينة.

ومع هذا فإن ثقات المفسرين قديماً، ومنهم ابن كثير فسروا الآية بما يلى «أى جعلهم أشد أهل زمانهم فى الخلقة والشدة والبطش».

ومن المتأخرين العلامة رشيد رضا قال : وزادكم فى المخلوقات بسطة وسعة فى الملك والحضارة. أو زادكم بسطة فى أبدانكم إذ كانوا طوال الأجسام أقوياء الأبدان»، ثم قال : ومن التفسير المأثور روايات إسرائيلية فى المبالغة فى طولهم وقوتهم لا يعتمد عليها ويحتج بشىء منها».

وايضاحاً لما سبق من أن أجسامهم كغيرهم من الشعوب يمكن وصف شعوب شمال أوروبا الاسكندنافيين وشمال ألمانيا المسماة Nordie بأنهم طوال الأجسام ضخام بالنسبة لكثير من سكان العالم كنتيجة لحسن التغذية والإشراف الصحى الدقيق، ولكن لا يعنى هذا أن هناك طولا فارها مفرطا. بل طولا نسبيا معقولا، ويصح مثل هذا بالنسبة لشعب (عاد) كما أسلفنا.

ويمكن الاستدلال على أن أجسامهم عادية كثيرهم، على سبيل المقارنة : «هؤلاء الفراعنة فى مصر نجد أجسامهم المحنطة كأجسام أهل هذه الأيام، وقد مر لبعضهم أربعون قرناً أو أكثر».

وإذا كان علماء الآثار لم يتعرفوا بعد على هياكل بشرية جزموا بأنها تنسب لشعب عاد فإنه يمكننا الاستشهاد بدراسة علماء الإنسان لهياكل كثير من الشعوب القديمة.

إن علماء الآثار المختصين تناولت أبحاثهم شتى أنواع المخلفات البشرية، إذ لا يسلم شىء من أيدى الأثريين حتى الهياكل البشرية، لأنها تفيد فى معرفة شكل الإنسان، ففى الهياكل البشرية المكتشفة فى (أريدو) ومنها نماذج معروضة فى المتحف العراقى أثبتت نتيجة دراسة اختصاصى أمريكى لها هو أستاذ (كارلتون كون) أن سكان أريدو من بداية الألف الرابع قبل الميلاد لم يكونوا يختلفون فى شئ ملحوظ عن أهل العراق الجنوبى فى الزمن الحاضر، وهذا الاكتشاف خطير ولاشك.

وقد توصل إلى ما يشبه ذلك (السير أرثركث) الذى درس الهياكل العظمية المكتشفة فى المقبرة الملكية فى (أور) فى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، وهذا يعنى أن كل التطورات والانقلابات والتبدلات التى حصلت فى خلال الستة آلاف الأخيرة الممثلة بصفحات التقدم الإنسانى كانت تطورات أخلاقية فكرية اجتماعية دينية اقتصادية أكثر منها تطورات فى الهيكل العظمى.

ولدينا دليل آخر مقارن يثبت بما لا يقبل الجدل أن أقدام الناس قبل نحو أربعة آلاف سنة تقريباً تشبه أقدامنا اليوم، وهكذا يمكن القول قياساً على ذلك أن سائر أعضاء الجسم كذلك تشبه مقاس أعضائنا، وبالأحرى طول القامة وعرضها.

فمقام سيدنا إبراهيم الخليل -عليه السلام- وهو الحجر الذى كان يقف عليه حينما أمره الله تعالى ببناء الكعبة المشرفة، هذا الحجر مشهور معروف فى الجاهلية والإسلام على السواء، وقد أشار إليه أبو طالب بقوله :

وموطىء إبراهيم فى الصخر رطبة

علـى قدميــه حافيــا غيــر ناعـل

ولنترك أبا الوليد محمد بن عبدالله الأزرقى المتوفى عام ٢٢٣هـ يحدثنا عن قيامه بقياس ومسح لمقام سيدنا إبراهيم وموقع قدميه، وكذا عن نوع الحجر.

حدثنا أبو الوليد قال : حدثنى جدى قال سمعت عبد الله بن شعيب ابن شيبة بن جبر بن شيبة يقول : ذهبنا نرفع المقام في خلافة المهدى فانثلم، قال وهو من حجر رخو فخشينا أن يتفتت، أو قال يتداعى، فكتبنا إلى المهدى، فبعث إلينا بألف دينار فهيأناه بها.

ثم بعد أن تحدث عن مساحة حجر مقام إبراهيم وقياسه بالأصابع قال : ووسطه مربع والقدمان داخلتان فى الحجر سبع أصابع، وبين القدمين من الحجر أصبعان، وقد استدق من التمسح به... الخ.

أما المؤرخ المعاصر الشيخ حسين عبدالله باسلامه فنلخص ماذكره بما يلى :

«أما صفة حجر المقام ومقاسه فهو حجر رخو من نوع حجر الماء، ولم

يكن من الحجر الصوان ، ويهمنا هنا، وضع القدمين فقط، قال: وفى وسطه أثر قدمى إبراهيم الخليل -عليه السلام- وهى حفرتان على شكل بيضاوى مستطيل قد حفرها الناس بمسح الأيدى ووضع ماء زمزم فيها مرات عديدة، فنتج من كثرة مرور الأيدى محو أثر القدمين، واستبدل موضعهما حفرتان كما دلت على ذلك الروايات المتقدمة».

ثم قال: رأيت حجر المقام بعينى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وألف ...الخ.

بينما المؤرخ المعاصر الشيخ محمد طاهر الكردى ذكر ما يلى :

«وفى هذه الحجرة الشريفة غاصت قدما خليل الله تعالى سيدنا إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- مقداراً كبيراً إلى نصف ارتفاع الحجر، فعمق إحدى القدمين عشرة سنتمترات، وعمق الثانية تسعة سنتمترات، ولم نشاهد أثراً لأصابع القدمين مطلقاً، فقد انمحى من طول الزمن ومسح الناس بأيديهم، وأما موضع العقبين فلا يتضح إلا لمن دقق النظر وتأمل، وحافة القدمين الملبستين بالفضة أوسع من بطنهما من كثرة مسح الناس بأيديهم، وطول كل واحدة من القدمين من سطح الحجر والفضة سبعة وعشرون سنتيمتراً، وعرض كل واحدة منها أربعة عشر سنتيمتراً أما قياسهما من باطن القدمين، من أسفل الفضة النازلة فيهما فطول كل واحدة منهما اثنان وعشرون سنتمتراً، وعرض كل واحدة منهما أحد عشر سنتيمترا، وما بين القدمين فاصل مستدق سنتيمتر واحد، وقد استدق هذا الفاصل من أثر مسح الناس له بأيديهم للتبرك، وكذلك اتسع طول القدمين وعرضهما من أعلاهما بسبب المسح أيضاً».

ثم قال : ومع أنه قد مر على أثر المقام الشريف أكثر من أربعة آلاف سنة فإن معالمه وهيئة القدمين واضحة لم تتغير ولم تتبدل وتبقى كذلك إلى يوم القيامة مصداقا لقوله تعالى:

﴿ فيــه آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيــــــــلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الـلَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران]

وبعد ذلك تحدث عن رسم تقريبى رسمه بيده للمقام قال ماخلاصته: حسب مشاهدتنا له حينما فتح لنا المقام فى ٢٧ شعبان ١٣٦٧.

مما تقدم نرى أن المؤرخين الثلاثة يتفقون فى القول بأن الحجر ليس صوانا بل رخوا، أى من الحجر الجيرى القابل للتآكل، ومع هذا فإن طول تجويف القدمين وعرضهما لا يبعد عما هو مشاهد اليوم من أقدام الناس، بالرغم من التآكل ومضى أكثر من أربعة آلاف عام على قيام الخليل -عليه السلام-. وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أنه يمكن القول أن أجسام، عاد مثل أجسام الناس فى عصرنا.

يقول الأستاذ هادى أحمد العطاس :

ومقام إبراهيم والحجر الأسود هما الأثران المقطوع بصحتها بصورة لا تقبل الشك، وقد شاهدت أنا بعينى مقام سيدنا خليل الله حينما وضع عليه غطاء زجاجى، إبان توسعة وعمارة المسجد الحرام بين عامى ٧٥-١٣٩٤، ومساحة موضع القدمين لا تبعد عن مساحة قدمى رجل طويل القامة.

أما أعمارهم فلم يتورع القصاصون عن منح قوم عاد أعماراً طويلة تتناسب مع ضخامة أجسامهم التى تخيلوها، ونقل عنهم المؤرخون فمثلا جعلوا عمر ملك عاد الذى يحمل نفس هذا الاسم (عاد) [ألفا ومئتى سنة] واعتدل بعضهم فجعل عمره ثلاثمائة سنة.

ثم قال : ولا تخلو هذه الخرافة من حقيقة، فالظاهر أن العرب كانوا

يسمعون بقدم هذه الأمة ولا يعرفون من ملوكها إلا نفراً قليلا فجعلوا أعمارهم طويلة لتسع ذلك القدم.

وكان الملك بعده فى الأكبر من ولده (شديد بن عاد) وكان ملكه خمسمائة وثمانين سنة، وقيل غير ذلك).

إلا أن هذا القول كسابقه عن ضخامة أجسامهم لا صحة له، فإن أعمارهم لا يبعد عن الصواب إذا قلت إنها مثل أعمارنا أو تقرب منها كثيراً ربما كان الأقدمون يعدون الشهر بمنزلة العام تماماً، فإذا ذكروا مثلا أن فلانا عاش تسعمائة سنة فإنما يعنون تسعمائة شهر وهى تساوى خمسة وسبعين عاما!!(١)

وقال أشار المعرى إلى ذلك فقال :

ورووا للمعمريـــــن أمـــوراً	لست أدرى ما هن فى المشهور
أتراهم فيما تقضى من الأيـام	عـدوا سلبهـم بالشهـــور
كلمـا لاح للعيـــون هـــلال	كان عاماً لديهـم فى الدهـور
هـكــــذا ينبـغـــى وإلا	فإن العقل يثنى فى حالة المبهور

وهذا الرأى له قيمته، فإن القمر يرى بحاسة البصر، ويمكن ملاحظة سيره من الهلال إلى المحاق، بينما (العام) لا يرى.

ولعل الشعوب القديمة تعتبر الشهر الوحدة الزمنية الكبرى بالنسبة لليوم والأسبوع.

---

(١) تذكر الأحاديث النبوية أن آدم عاش ١٠٠٠ سنة ويذكر القرآن عن نوح -عليه السلام- أنه دعا قومه ٩٥٠ سنة ، قال تعالى : (فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً)

وفاة هود وموضع قبره

إن المعلومات التى ذكرها المفسرون والمؤرخون بعد حلول النكبة على عاد الأولى عن هود – عليه السلام– غامضة، والشىء المؤكد أنه نجا مع من آمن برسالته من عاد.

وقد ذكر بعض المؤرخين أنه عاش خمسين سنة بعد هلاك قومه الوثنيين.

جاء فى (نهاية الأرب للنويرى) : وارتحل هود ومن معه من أرض عاد إلى الشحر من بلاد اليمن، فنزلوا هناك حولين ثم مات، ويقال إنه دفن بأرض حضرموت.

وقال الهمدانى : ويفيض وادى (ثوبة) إلى بلاد مهرة حيث قبر هود النبى – عليه السلام– ، وقبره فى الكثيب الأحمر، ثم منه فى كهف مشرف فى أسفل وادى الأحقاف، وهو واد يأخذ من بلد حضرموت إلى بلد مهرة مسيرة أيام، وأهل حضرموت يزورونه هم وأهل مهرة في كل وقت.

وفى رواية كعب الأخبار عن ذلك الرجل الحضرمى الذى قدم إلى المدينة فى خلافة عثمان –رضى الله عنه– جرى حوار طريف ننقله، بين ذلك الرجل الحضرمى وبين الإمام على –رضى الله عنه– وبعض الصحابة،

دخل الحضرمى مسجد رسول الله ﷺ وكان قد رمقته الناس لطوله.

الحضرمى : أيكم ابن عم محمد ؟

– : أى ابن عمه تريد؟

– : ذلك الذى آمن به صغيراً.

فأومئوا إلى سيدنا على بن أبى طالب –ضى الله عنه–.

الإمام على : ممن الرجل ؟

– : من اليمن من بلاد حضرموت.

– : أتعرف موضع الأراك والسدرة الحمراء؟

– : كأنك تسألنى عن قبر هود؟

– : عنه سألتك فحدثنى.

– مضيت أيام شبابى فى عدة من شبان الحى تريد قبره فسرنا إلى جبل شامخ فيه كهوف، ومعنا رجل عارف بقبره حتى دخلنا كهفا فإذا نحن بحجرين عظيمين قد أطبق أحدهما على الآخر وبينهما فرجة يدخلها رجل نحيف، وكنت أنا أنحفهم فدخلت بين الحجرين فسرت حتى وصلت إلى فضاء إذا أنا بسرير عليه ميت وعليه أكفان كأنها الهواء فمسست بدنه فإذا عند رأسه حجر على شكل لوح مكتوب عليه:

﴿ لا إله إلا الله محمد رسول الله ﴾

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنـــــدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) ﴾ [الإسراء]

أنا هود بن الخلود بن عاد رسول الله بنى عاد بن عوص بن سام بن نوح جئتهم بالرسالة وبقيت فيهم مدة عمرى فكذبونى فأخذهم الله بالريح العقيم...الخ.

الإمام على : صدقت هكذا قبر هود –عليه السلام–.

والحوار طريف وربما كان فيه شىء من الصنعة. ولكن من الانصاف

القول أن بعض المعلومات لا تخلو من صحة فإن قبر هود -عليه الصلاة والسلام- المعروف لدى أهل حضرموت من زمن موغل فى القدم وإلى يومنا هذا فى سفح جبل شامخ بين حجرين يمكن أن يدخل بينهما الرجل النحيف وفى الوادى تحت الجبل شجر السدر والأثل أما وجود لوح مكتوب عليه آية قرآنية وغير ذلك فالصنعة واضحة فيه. بل غير صحيح قطعاً.

وقد ذكر اليعقوبى عن سوق الشحر - شحر مهرة - وقال : فيقوم سوقها تحت ظل الجبل الذى عليه قبر هود النبى.

كما جاء فى المحبر «بأن سوق الشحر - شحر مهرة تحت ظل الجبل الذى عليه قبر هود -عليه السلام- ثم قال «وكان قيامها للنصف من شعبان».

وقال ياقوت الحموى فى بحثه عن حضرموت، وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف وبها قبر هود -عليه السلام- ويقربها بئر برهوت.

ويحسن أن نورد بعض ما ذكره المؤرخون المعاصرون عن موضع قبر (هود).

١- من أشهر وأبرز المآثر القديمة بحضرموت قبر النبى هود -عليه السلام- الواقع قريبا من وادى برهوت شرقى قرية (فغمة) نحو عشرة أميال على سفح الجبل فى الشعب المعروف بشعب هود وكونه بحضرموت هو المنقول المتواتر خلفاً عن سلف.

وهناك أقوال أخرى بأنه فى الشام وغيرها، وعلى كل حال فلا يوجد قبر لنبى من الأنبياء غير نبينا محمد ﷺ يبلغ فى صحة تعيين ناحية قبره ما بلغ قبر النبى هود -عليه السلام-، فقد كاد أن يطبق المؤرخون على أنه بحضرموت،

وفى القرآن الكريم ما يدل على ذلك، إذ قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ

﴿ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) ﴾ [الاحقاف]

وموضع الأحقاف لا خلاف فيه شرقى حضرموت. وقد كان وادى حضرموت قديما وحديثا يسمى بوادى الأحقاف وكان معروفاً فى عهد الجاهلية وما قبله، ثم فى العهود الإسلامية، ومازال معروفاً يزار إلى اليوم».

ثم قال «وإنما اعتمدنا ما اعتمدناه من تصحيح أن قبره بحضرموت اعتمادا على ما أطبق عليه المؤرخون والمفسرون وغيرهم من ترجيح كونه بحضرموت، وهو المقبول عقلا، أما كون قبره هو المعروف هذا اليوم فهو المتواتر عند أهل حضرموت، رواه الأحفاد عن الأجداد» اهـ.

٢- أما الأستاذ محمد بن أحمد الشاطرى فقال : «قد مات هود -عليه السلام- بحضرموت فيما يروى كثير من المؤرخين، وخاصة من كتب عن حضرموت، وأصبح وجود القبر متواتراً بمحله المعروف، وكانت تقام سوق سنوية فى الجاهلية فى شعبان فى المنطقة التى بها قبره بشرقى حضرموت قرب بئر برهوت الشهيرة».

٣- ويقول أهل حضرموت أن هوداً سكن بلاد حضرموت بعد هلاك عاد إلى أن مات ودفن بها فى شرق بلادهم على نحو مرحلتين من مدينة تريم قرب وادى برهوت.

٤- يقع قبر هود -عليه السلام- بعد قرية (فغمة) تحيط به قبة متواضعة بيضاء، وعلى مقربة منها تقوم منازل صغيرة .

٦- ومن المسلم به بوجه عام أن قبر هود موجود بسفح أحد جبال حضرموت ولا يزال مزاراً إلى وقتنا هذا .

ومما تقدم يمكن القول بأن قبر هود -عليه الصلاة والسلام- فى حضرموت بسفح جبل، وهذا الجبل الذى فيه الكهف الذى يضم ضريح الرسول هود، أشار إليه اليعقوبى المتوفى سنة ٢٨٤هـ ومحمد بن حبيب المتوفى سنة ٢٥٤هـ والهمدانى المتوفى حوالى ٣٣٤هـ بل إن اليعقوبى وابن حبيب ذكرا محل السوق الذى يقام تحت ظل الجبل الذى عليه قبر هود -عليه السلام- وأنه فى النصف من شعبان.

والبحث التاريخى حول تحديد موضع قبر هود جدير بالإهتمام إلا أنه لم تقدم أدلة تاريخية تنفى أو حتى تقلل من قيمته الأدلة والأقوال التى تؤيد أن ضريح هود -عليه السلام- فى المحل الذى أشار إليه الهمدانى وغيره والمعروف موضعه بالتواتر لدى الحضارمة.

ولا يزال السوق الذى أشار إليه كل من ابن حبيب والهمدانى قبل أكثر من ألف عام يقام إلى يومنا هذا. الأمر الذي يوحى بأن السوق كان ولا يزال يقام تحت الجبل الذى يضم جثمان الرسول هود -عليه الصلاة والسلام- .

لغتهـم

لا يمكن الجزم بلغة عاد الأولى والثانية، هل كانت مثل لغة المعينيين والسبائيين وغيرهم من الشعوب العربية الجنوبية، أو كانوا يتكلمون بلغة تقرب إلى لغة مضر أو لغة البابليين أو الأشوريين.

والذى يبدو لى أن لغتهم أقرب إلى لغة المعينيين والسبائيين والحضرميين، نظرا لكونهم سكنوا العربية الجنوبية، وخلفهم معين وسبأ وغيرهما .

ويرى جرجى زيدان : أنه لا دليل قاطع على لغة قوم عاد، ويمكن أن تكون متوسطة بين لغة العرب الفصحى واللغة الكلدانية والأشورية، لأن لغة العرب متفرعة من اللغة السامية الأصلية، ولم تبلغ ما بلغت إلا بكرور الأجيال رويداً رويداً، ففى عهد قبيلة عاد الأولى كانت أقرب إلى أصلها.

حضارة عاد

يحسن بنا أن نقدم بعض معالم حضارة عاد استناداً إلى أصح مصدر هو القرآن الكريم، والذى حملنى على هذا أنى رأيت كثيراً من المستشرقين يكتبون بشىء من الإسهاب عن حضارة بعض الشعوب القديمة، وكل استنادهم على نص موجز، وغالباً ما يتسم بالصفة الشخصية، مثل ترميم جزء من سور مدينة، أو تقديم قربان إلى الآلهة، أو استناداً إلى إشارة غامضة فى التوراة عن شخصية أو بلد لا يعرف موقعه بالضبط.

أما القرآن فآياته واضحة كل الوضوح، وهى تشهد بأن شعب عاد قطع شوطاً بعيداً فى مضمار الحضارة، وقد عاش حياة مستقرة، وأقام المصانع والعمائر الضخمة.

قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠)﴾ [الشعراء].

وإذا كان السياق فى القرآن الكريم فى معرض التقريع والتوبيخ فما ذلك إلا لتذكيرهم بسىء قصدهم من ذلك البناء، ولكنه من الناحية الأخرى -وهى موضوعنا- يفهم منه أن لهذا الشعب خبرة بالهندسة المعمارية التى بها استطاع إقامة الأبنية والمصانع.

وقد ذكر المفسرون عدة أقوال عن المصانع، فقال القرطبى بعد أن أورد ما ذكره اللغويون عن (الريع) بأنه المكان المرتفع من الأرض وقيل الثنية، وأوضح أن السبب أنهم يبنون، أمثالا طوالا، ليهتدوا بها، يدل عليه قوله تعالى ﴿آية﴾ أى علامة.

ثم قال نقلا عن ابن الكلبى : أنه عبث العشارين بأموال من يمر عليهم

ويبدو أن هذا الرأى لا يبعد عن الصواب، لأنهم كانوا يفرضون مكوساً باهظة يرهقون بها الشعب ويعبثون به.

أما المصانع فقيل إنها مآخذ الماء، إلا أن كلمة (المصانع) تطلق على القصور والمدائن، وقد قال الزمخشرى بعد قوله تعالى:

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الشعراء]

قصوراً ومدائن. والعرب تسمى القرية والقصر مصنعة، ويقولون هو من أهل المصانع، يعنون القرى والحضر.

ولم تقف خبرتهم عند إنشاء المصانع أو القصور، بل ذكر المولي سبحانه وتعالى مذكراً لهم بنعمته عليهم، فقال :

﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [الشعراء].

وفى هذه الآيات ذكرهم المولى بما أمدهم به من أنعام وبنين وجنات وعيون. إن غرس الجنان يدل على ما لهم من خبرة بإقامة السدود وشق الترع، علاوة على المعرفة بالفلاحة، وما تفتقر إليه من متطلبات وكل ذلك يعطينا فكرة صادقة بأنهم كانوا على جانب عظيم من الحضارة والرقى والاستقرار.

وأحب أن أنبه إلى أن إنشاء الجنان وغرسها يتطلب وفرة الماء، والجزيرة العربية كلها، وخاصة حضرموت، لم تكن ذات أنهار دائمة الجريان، بل كان اهتمامهم بحفظ مياه الأمطار والاستفادة منها. ويمكن الاستدلال بأنهم لم تكن لديهم أنهار دائمة الجريان بما جاء فى القرآن الكريم من اهتمامهم بالسحب،

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأحقاف].

ويظهر أن شعب عاد أقام سلسلة من السدود بين مضايق الجبال فى أعالى الأودية لحجز كميات هائلة من المياه وشق شبكة من القنوات والترع الواسعة والعميقة، الأمر الذى ضمن لأراضيهم ريا دائماً لسقى الحدائق والجنان والمزارع الواسعة للحبوب بأنواعها.

كتب الأستاذ سيد مظفر الدين نادتى بعد أن أشار إلى عاد كما وصفها القرآن الكريم قال : (مما سبق يتضح أن عادا كانت أمة عظيمة وأنها أسست أقدم مدنية عرفها العالم، وكانت آسيا وأفريقيا ميداناً لنشاطهم، وكانت القصور الشامخة والصروح العظيمة أكبر مظهر لتقدمهم الفنى ، ومن الطبيعى أن يكون ارتفاع شأن عاد ثم أقول نجمها قد نبه العرب وفتح عيونهم، وقد أشار القرآن الكريم إلى عاد فى مواطن عدة).

الفصل الخامس

قصة ثمود

قوم ثمود .

قصة قوم ثمود .

آية صالح - عليه السلام .

عقر ناقة صالح .

قال أبو موسى الأشعرى .

قصة ثمود (١)

قال الله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) ﴾ [الأعراف].

أولا: قوم ثمود :

قال أبو عمرو بن العلاء : سميت ثمودا لقلة مائها والثمد هو الماء القليل وكانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز والشام.

ثانيا : قصة قوم ثمود :

يروى ابن اسحق والسدى فيقولون : إن عادا الأولى لما أهلكها الله تعالى وانقضى أمرهم، عمرت ثمود بعدهم واستخلفوا فى الأرض فحلوا فيها وكثروا وعمروا حتى جعل بعضهم يبنى المسكن من الحجر والمدر فيتهدم وهو حى فلما

(١) أنبياء الله - أ. محمد عمر - مكتبة الحسين الإسلامية .

رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتا فنحتوا وجابوها وجوفوها وكانوا فى سعة من معايشهم كما قال الله تعالى :

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٧٤ ﴾ [الأعراف].

فخالفوا أمر الله وعبدوا غيره وأفسدوا فى الأرض فبعث الله نبيا هو صالحا -عليه السلام- وكانوا قوما عربا وكان صالح من أوسطهم نسبا وأفضلهم حسبا، فبعثه الله تعالى إليهم رسولا فدعاهم إلى الله تعالى وإلى عبادته فلم يتبعه إلا قليل مستضعفون.

ثالثا : آية صالح عليه السلام :

فلما ألح عليهم صالح بالدعاء والتبليغ وأكثر عليهم التخويف والتحذير سألوه أن يريهم آية تكون مصداقا لما يقول :

فقال : اللهم أرهم آية ليعتبروا بها.

ثم قال لهم : أى آية تريدون.

قالوا، تخرج معنا إلى عيدنا وكان لهم عيد يخرجون إليه بأصنامهم فى يوم معلوم من السنة فتدعوا إلهك وندعوا آلهتنا فان استجيب لك اتبعناك وأن استجيب لنا اتبعتنا.

فقال لهم صالح : نعم.

فخرجوا بأوثانهم إلى عيدهم ذلك. وخرج صالح معهم فدعوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب لصالح فى شىء مما يدعو به، ثم قال جندع بن عمرو

بن جواس وهو يومئذ سيد ثمود. يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة - يعنى الصخرة المنفردة عن الجبال فى ناحية الحجرة يقال لها الكاثبة- ناقة مستخرجة جوفاء وبراء وعشراء والمخترجة ما شاكلت البخت من الإبل فإن فعلت ذلك صدقناك وآمنا بك.

فأخذ عليه صالح الميثاق أنه إن فعل ذلك صدقوه وآمنوا به.. ثم أن صالحا -عليه السلام- صلى ودعا الله تعالى بذلك فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها ثم تحركت الهضبة فانصدعت عن ناقة عُشراء جوفاء وبراء كما سألوه لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله تعالى عظما وهم ينظرون ثم نتجت سقيا مثلها فى العظم.

فآمن به جندع بن عمرو ورهط من قومه، وأراد أشراف ثمود أن يؤمنوا بصالح ويتابعوه فنهاهم نؤاب بن عمر بن لبيد والجناب صاحبا أوثانهم، ورياب بن صمعر وكانوا من أشراف ثمود وكان لجندع بن عمرو بن عم يقال له شهاب بن خليفة فأراد أن يسلم فنهاه أولئك الرهط فأطاعهم.

فقال رجل من ثمود :

وكانت عصبة من آل عمرو	إلى دين النبى دعوا شهابا
عزيـز ثمـود كلهـم جميعـا	فهمت أن يجيب ولو أجابـا
لأصبح صالحا فينا عزيزا	وما عدلوا بصـاحبهـم نؤابا
ولكـــن الغـــواة آل حجـــر	تولوا بعـد رشـدهم ذيابـا

فلما خرجت الناقة قال صالح :

هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم.

رابعا : عقر ناقة صالح :

فمكثت الناقة ومعها سقبها من أرض ثمود، ترعى الشجر وتشرب الماء، فكانت ترد الماء يوما ولهم يوم، فإذا كان يومها وضعت رأسها فى بئر بأرض الحجر يقال له بئر الناقة، فيرتفع الماء إليها فما ترتفع رأسها إلا وقد شربت جميع ما فيها، ولا تدع قطرة ماء فيها فتتفجج ثم تروح عليهم، فيحلبون من لبنها ما شاءوا فيشربون ويدخرون ويمثلون أوانيهم لكن تصدر من غير الفج[1] الذى وردت منه لأنها لا تقدر أن تصدر من حيث وردت لأنه يضيق عليها.

قال أبو موسى الأشعرى :

أتيت أرض ثمود فذرعت[2] مصدر الناقة فوجدته ستين ذراعا فإذا كان الغد من يومهم شربوا الماء وقد أخرجه الله تعالى لهم من البئر وادخروا ما شاءوا قدر كفايتهم فى يوم الناقة وكانوا من ذلك فى سعة ودعة وكانت الناقة فى الصيف إذا كان الحر تطلع ظهر الوادى فتهرب منها أغنامهم وبقرهم وإبلهم، وتهبط إلى بطن الوادى فى حره وحدته، فكانت المواشى تنفر منها إذا رأتها.

وإذا كان الشتاء سبقت الناقة فى بطن الوادى فتهرب مواشيهم إلى ظهر الوادى فى البرد والحدة، فأضر ذلك مواشيهم للبلاء والاختبار فكان مراتعها الجبال فكبر ذلك عليهم، حتى حملوا على عقر الناقة فاحتالوا فى عقرها.

وكانت امرأة من بنى ثمود يقال لها عنيزة بنت غنم بن مخلد، وتكنى أم غنم وهى من بنى عبيد بن المهل وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو وكانت عجوزا مسنة، ولها بنات حسان ومال كثير من الإبل والبقر والغنم، وامرأة أخرى يقال لها صدوق بنت المحيا بن مهر وكانت غنية جميلة ذات مواشى كثيرة، وكانتا

---

(١) الفج . مكان .

(٢) فذرعت . قست

هاتان المرأتان من أشد الناس عداوة لصالح، وكانت تحتالان فى عقر الناقة من كفرهما بصالح، بما أضرت بمواشيها.

وكانت صدوق عند ابن خال لها يقال له صنيم بن هراوة بن هلال فأسلم وحسن أسلامه، وكانت صدوق قد فوضت إليه مالها فأنفقه على من أسلم معه من أصحاب صالح -عليه السلام- حتى نفذ المال فاطلعت صدوق على إسلامه فعاتبته على ذلك، فأظهر لها دينه ودعاها إلى الله تعالى، فأبت عليه وأخذت أولادها فغيبتهم فى بنى عمها الذين هى منهم فقال لها زوجها: ردى على أولادى.

فلما ألح عليها قالت : حتى أحاكمك إلى بنى عمى.

وذلك أن بنى عم زوجها كانوا مسلمين، فأبت أن تحاكمه إليهم، فقال لها بنو عمها: والله لتعطينه ولده طائعة أو كارهة.

فلما رأت ذلك أعطته أولاده. ثم إن صدوق وعنيزة احتالتا فى عقر الناقة، للشقاء الذى كتب عليهما فدعت صدوق رجلا من ثمود يقال له الجناب فأمرته بعقر الناقة وعرضت عليه نفسها، إن هو فعل ذلك فأبى عليها، ثم إنها دعت ابن عم لها يقال له مصدع بن مهرج وجعلت له نفسها إن هو عقر الناقة وكانت من أوفر الناس جمالا وأكثرهم مالا وأحسنهم كمالا فأجابها إلى ذلك.

ودعت عنيزة قدار بن سالف من أهل قدح واسم أمه قديرة وكان رجلا أشقر أزرق قصيرا ويزعمون أنه كان لزنية رجل يقال له صفوان ولم يكن لسالف ولكنه قد ولد على فراشه فقالت له : يا قدار أعطيك من بناتى أيما شئت على أن تعقر الناقة.

وكان قدار عزيزا فى قومه وذكر رسول الله ﷺ قال: (إذا انبعث أشقاها رجل عزيز من قومه مثل أبى زمعة).

قالوا : فانطلق قدار ومصدع فاستعانوا بمن استعانوا من ثمود فاتبعهم سبعة نفر وكانوا تسعة رهط كما قال الله تعالى :

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النمل].

فلقيهم هديات بن مبلغ خال قدار وكان عزيزا من أهل الحجر وذعر ابن غنم أخي مصدع وخمسة لم تذكر أسماؤهم فاجتمعوا على عقر الناقة.

وقال السدى وغيره :

أوحى الله إلى صالح أن قومك سيعقرون الناقة.

فقال لهم ذلك فقالوا ما كنا نفعل ذلك فقال لهم :

إنه سيولد فى شهركم هذا غلام يعقرها ويكون هلاككم على يديه.

فقالوا :لا جرم لا يولد لنا فى هذا الشهر ولد إلا قتلناه.

فولد لتسعة منهم فى ذلك الشهر تسعة بنين فذبحوا أولادهم وولد للعاشر ابن فأبى أن يذبح ابنه وكان بكره، ولم يولد له قبل ذلك شيء، وكان ابن العاشر أزرق أحمر فنبت نباتا سريعا، وكان إذا مر بالتسعة ورأوه ندموا على ذبح أولادهم وقالوا: لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا، فغضب التسعة على صالح لأنه كان سبب قتل أولادهم، فتقاسموا بالله لنبيتنه وأهله وقالوا: نخرج فنرى الناس أنا قد خرجنا لسفر فنأتى الغار فنكمن فيه حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فنقتله ثم نرجع إلى الغار فنكمن فيه ثم ننصرف بعد ذلك إلى رجالنا فنقول :

ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون فيصدقونا ويظنون أنا قد خرجنا إلى السفر

وكان صالح لا ينام الليل معهم فى القرية وكان يأوى إلى مسجد يقال له مسجد صالح، يبيت فيه فى الليل فإذا أصبح أتاهم ووعظهم وذكرهم، فإذا أمسى خرج إلى المسجد وبات فيه.

فلما دخلوا الغار وأضمروا أنهم يخرجون إليه بالليل فيقتلونه، سقطت عليهم صخرة فى الغار فقتلتهم، فانطلق رجال ممن كانوا اطلعوا على ذلك إلى الغار فإذا هم رضخ فرجعوا يصيحون فى القرية.

يا عباد الله ما قنع صالح أن أمرهم بقتل أولادهم، حتى قتلهم فأجمع أهل القرية على عقر الناقة.

وقال ابن اسحق :

إنما كان تقاسم التسعة على تبييت صالح -عليه السلام- بعد عقرهم الناقة وإنذار صالح إياهم بالعذاب، وذلك أن التسعة الذين عقروا الناقة قالوا هلم فلنقتل صالحا فإن كان صادقا كنا عجلنا قتله، وإن كان كاذبا ألحقناه بناقته، فأتوه ليلا ليبتوه فى أهله فرمتهم الملائكة بالحجارة، فلما أبطأوا على أصحابهم، أتى أصحابهم منزل صالح فوجدوهم مشدوخين قد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح أنت قتلتهم... وهموا به فقامت عشيرته دونه وأخذوا السلاح وقالوا لهم. والله لا تقتلونه أبدا، فقد وعدكم بأن العذاب نازل بكم فى ثلاث فإن كان صادقا لم تزيدوا ربكم عليكم إلا غضبا، وإن كان كاذبا فأنتم من وراء ما تريدون، فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك.

قال السدى وغيره :

فلما ولد ابن العاشر يعنى قدارا وكان يشب فى كل يوم شباب غيره فى الجمعة ويشب فى الجمعة شباب غيره فى الشهر، ويشب فى الشهر شباب غيره فى السنة، فلما كبر جلس مع إناس يصيبون من الشرب فأرادوا ماء يمزجون

به شرابهم، وكان ذلك اليوم شرب الناقة، فوجدوا الماء قد شربته الناقة فاشتد عليهم ذلك وقالوا: ما نصنع باللبن لو كنا نأخذ الماء الذى تشربه هذه الناقة فنسقيه أنعامنا وحرثنا كان خيراً لنا فقال ابن العاشر: هل لكم أن أعقرها؟ قالوا: نعم.

وقال كعب :

كان سبب عقرهم الناقة امرأة يقال لها ملكا، كانت قد ملكت ثمود فلما أقبل الناس على صالح وصارت الرياسة إليه حسدته، فقالت لامرأة يقال لها قطام وكانت معشوقة قدار بن سالف، ولامرأة يقال لها قبال وكانت معشوقة مصدع بن مهرج، وكان قدار ومصدع يجتمعان معهما فى كل ليلة يشربون الخمر فقالت لهما ملكا :

إن أتاكما الليلة قدار ومصدع فلا تطيعانهما وقولا لهما أن الملكة حزينة لأجل صالح وناقته فنحن لا نطيعكما حتى تعقرا الناقة، فإن عقرتماها أطعناكما، فلما أتياها قالتا لهما هذه المقالة، فقالا نحن نعقرها.

وقال ابن اسحق:

فانطلق قدار ومصدع وأصحابهما السبعة، فرصدوا الناقة حتى صدرت عن الماء، وقد كمن لها قدار فى أصل شجرة على طريقها، وكمن لها مصدع فى أصل شجرة أخرى فمرت الناقة على مصدع، فرماها بسهم فانتظم بين عضلة ساقيها وخرجت أم غنم وعنيزة وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس فكشفت وجهها فتراءت لقدار وأسفرت له عن وجهها وحرضته على عقر الناقة فشد عليها بالسيف فكشف عرقوبها فأرادها وطعن فى لبتها فنحرها وخرج أهل البلدة واقتسموها وأكلوا لحمها، وكانت لما عقرها رغت فلما رأى سقبها ذلك انطلق حتى أتى جبلا منيفا يقال له صنعوه وقيل اسمه فارة وروى ذلك مسندا عن

رسول الله ﷺ من حديث شهر بن حوشت عن عمر بن خارجة فأتى صالح -عليه السلام- فقيل له أدرك ناقتك فقد عقرت، فأقبل وخرجوا يتلقونه ويعتذرون إليه ويقولون يا نبى الله إنما عقرها فلان ولا ذنب لنا.

فقال لهم صالح :

انظروا هل تذكرون فصيلها فان أدركتموه فعسى أن يرفع عنكم العذاب، فخرجوا يطلبونه فلما رأوه على الجبل ذهبوا ليأخذوه فأوحى الله إلى الجبل فتطاول فى السماء حتى ما تناله الطير وجاء صالح - عليه السلام- فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه ثم رغا ثلاثاً وانفجرت الصخرة فدخلها.

فقال صالح - عليه السلام-:

لكل أمة أجل فتمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ثم يأتيكم العذاب ذلك وعد غير مكذوب.

قال ابن اسحق :

واتبع الفصيل أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة وفيهم مصدع، وأخذه نؤاب ولد مهرج فرماه مصدع بسهم فانتظم قلبه ثم جر برجله فأنزله وألحقوا لحمه مع لحم أمه.

فقال لهم صالح -عليه السلام-:

انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله تعالى ونقمته.

فقالوا مستهزئين :

ومتى ذلك يا صالح وما آية ذلك؟

فقال -عليه السلام -:

انكم تصبحون غرة مؤنس ووجوهكم مصفرة ثم تصبحون يوم العروبة ووجوهكم محمرة ثم تصبحون يوم شبار ووجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب يوم الأول.

وكانوا يسمون الأيام يوم الأحد الأول والإثنين أهون والثلاثاء دبار والأربعاء جبار والخميس مؤنس والجمعة عروبة والسبت شبار.

فأصبحوا يوم الخميس ووجوهم مصفرة كأنما طلبت بالخلوق صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم، فأيقنوا بالهلاك وعرفوا أن صالحا قد صدقهم فطلبوه ليقتلوه، فخرج صالح -عليه السلام- هاربا حتى لحق إلى بطن من ثمود يقال لهم بنو غنم، فنزل على سيدهم رجل منهم يقال له نفيل، ويكنى أبا هدب وهو مشرك فغيبه عنهم فلم يقدروا عليه فغدوا على أصحاب صالح يعذبونهم ليدلوهم عليه فقال رجل من أصحاب صالح يقال له مبدع بن هرم. يا نبى الله أنهم ليعذبوننا لندلهم عليك أفندلهم قال : نعم، فدلهم عليه مبدع، فأتوا أبا هدب فكلموه فى ذلك.

فقال : نعم هو عندى وليس لكم إليه سبيل، فأعرضوا عنه وتركوه، وشغلهم ما أنزل الله تعالى بهم من عذابه فجعل بعضهم يخبر بعضا بما يرون فى وجوههم فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يوم من الأجل، فلما أصبحوا اليوم الثانى إذا وجوههم محمرة كأنما خضبت بالدم، فصاحوا وضجوا وبكوا وعرفوا أن العذاب واقع بهم... فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم: ألا قد مضى يومان من الأجل وحضركم العذاب.

فلما أصبحوا اليوم الثالث إذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار فصاحوا جميعا ألا قد حضركم العذاب.

فلما كان ليلة الأحد خرج صالح -عليه السلام- من بين أظهرهم، وخرج معه من آمن به حتى جاءوا الشام فنزلوا رملة فلسطين فلما أصبح القوم تكفنوا

وتحنطوا وكان حنوطهم الصبر والمر وكانت أكفانهم الأنطاع[1]، ثم ألقوا أنفسهم بالأرض فجعلوا يقلبون أبصارهم إلى السماء مرة وإلى الأرض مرة لا يدرون من أين يأتيهم العذاب فلما اشتد الضحى من يوم الأحد أتتهم صيحة[2] من السماء فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شئ له صوت فى الأرض فقطعت قلوبهم فى صدورهم فلم يبق فيهم صغير ولا كبير إلا هلك كما قال الله تعالى :

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨) ﴾ [هود].

ولم ينج منهم إلا جارية مقعدة يقال لها ذريعة بنت شاف، وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح فأطلق الله لها رجليها بعدما عاينت العذاب أجمع، فخرجت كأسرع شيء يكون حتى أتت قرحا وهو وادى القرى بين الحجاز والشام فأخبرتهم بما عاينت من العذاب وما أصاب ثمود ثم استسقت من الماء. فسقيت فلما شربت ماتت.

وقال علماء التفسير :

ولم يبق من ذرية ثمود أحد سوى صالح - عليه السلام- ومن تبعه - رضى الله عنهم- إلا أن رجلا يقال له أبو رغال كان لما وقعت النقمة بقومه، مقيما إذ ذاك فى الحرم، فلم يصبه شئ فلما خرج فى بعض الأيام إلى الحل جاءه حجر من السماء فقتله، وفى حديث جابر أن رسول الله ﷺ قال :

هذا قبر أبى رغال، رجل من ثمود كان فى حرم الله فمنعه حرم الله عذاب الله، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن هاهنا ودفن معه غصن من ذهب،) فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن.

---

(١) الأنطاع : الجلود .

(٢) صيحة : صوت جبريل -عليه السلام-.

وعن عبدالله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر، فقال : (هذا قبر أبى رغال وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود وكان بهذا الحرم).

فدفع عنه فلما خرج أصابته النقمة التى أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه) فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن.

قال الإمام أحمد عن بن عمر قال : لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك، نزل بهم عند الحجر عند بيوت ثمود فاستسقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا لها القدور، فأمرهم النبى ﷺ فأهرقوا القدور وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال : «إنى أخشى أن يصيبكم ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم».

وعنه أنه قال : «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإذا لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم».

وعن ابن أبى كبشة قال : «لما كان فى غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى فى الناس «الصلاة جامعة».

قال : فأتيت رسول الله ﷺ وهو يمسك بعنزة[1] وهو يقول : (ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم). فناداه رجل منهم فعجب منهم يا رسول الله.

قال أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وبما هو كائن بعدكم فاستقيموا وسددوا، فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئا وسيأتى قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً.

(١) عَنَزَة : عصا كالرمح .

الفصل السادس

ملوك الفرس الأولى والثانية .

الطبقة الأولى : الفيشدادية .

الطبقة الثانية : الكيانية .

الطبقة الثالثة : الأشغانية .

الطبقة الرابعة : الساسانية .

ملوك الفرس

الأولى والثانية(١)

اتفق المحققون من أصحاب التواريخ أن أول ملوك الفرس أربع طبقات: الأولى الفيشدادية، والثانية الكيانية، والثالثة الأشغانية، والرابعة الساسانية، وهم الأكاسرة، وكانت قاعدة ملكهم المداين بالعراق، ومدة ملكهم أربعة آلاف وماية وإحدى وثمانون سنة وشهور، وهؤلاء من نسل كيومرث. أولهم كيومرث وآخرهم يزدجرد المقتول فى زمن عثمان بن عفان، رضى الله عنه.

الطبقة الأولى: الفيشدادية

لكل واحد منهم يقال فيشداد، ومعناه أول سيرة العدل، وهذه الطبقة قديمة.

وقد نقل أن سلاطين الدنيا صنفان: الصنف الأول قبل نبينا، والصنف الثانى بعد ظهور الإسلام.

وفى «سير الملوك» للغزالى، أن آدم -عليه السلام-، لما كثرت أولاده وبلغ حدهم أربعين ألفاً، اختار من جميعهم اثنين، أحدهما شيث -عليه السلام-، والآخر كيومرث، فولى شيث لحفظ أمور الدين والآخرة وجعله ولى عهده، وأعطاه أربعين صحيفة، وولى كيومرث لحفظ أمور نظام الدنيا والسياسة وتعمير العالم. وكانت مدة ملك كيومرث مائتى سنة وثلاثاً وعشرين سنة وعمره ألف سنة، وكان فى عهد آدم -عليه السلام-. ولما مات بقيت الدنيا بغير ملك زمانا طويلاً، وقد نقل عنه أشياء يأباها العقل.

---

(١) أخبار الدول - أحمد يوسف القرمانى .

واختلفوا فى مدة ملك الفيشدادية وحروبهم، فأوردنا منها ما يقرب إلي الذهن صحته، وهم تسعة أنفار أولهم :

هوشنج : تولى الملك بعد وفاة كيومرث فى عهد آدم -عليه السلام- وهو أول من رتب الملك ونظم الأعمال ووضع الخراج، وكان ملكه أربعين سنة، وهو الذى بنى بابل والسوس. وكان فاضلا محمود السيرة والسياسة، ونزل الهند، وتنقل فى البلاد وعقد على رأسه التاج، وجلس على سرير الملك، كذا ذكره صاحب «المختصر فى أخبار البشر».

وفى «نظام التواريخ» أن أول الملوك كيومرث، وهو الذى ابتنى مدينة اصطخر ومدينة دوماوند، وهو أول من بنى وسكن الدور، وكانوا قبل ذلك يسكنون الكهوف والمغاير. وكان ملكه قريباً من مائتين وأربعين سنة، وعمره ألف سنة،

كما مر وأوصى هوشنج بالملك لابنه طهمورث، وهو سبط هوشنج ملك الأقاليم السبعة، وسلك سيرة جده. وهو أول من أمر بالصوم، وسبب ذلك أنه ظهر الغلاء والقحط فى زمانه، فأمر الأغنياء بطعام واحد بعد غروب الشمس، وبإمساكهم فى النهار شفقة للفقراء، وإيثاراً عليهم بطعام.

وهو أول من كتب بالفارسية، وكان مطيعاً لأوامر الله تعالى، وكانت مدة ملكه نحو أربعين سنة. ثم هلك وملك بعده الملك جمشيد، معناه شعاع الشمس، سمى بذلك لوضاًة وجهه، وهو أخو طهمورث لأبويه.

وملك جمشيد أيضاً الأقاليم السبعة، وسلك السيرة الصالحة المتقدمة، وزاد عليها. وهو أول من استخرج الحرير من ديدانه، تعلمه من الجن، وكانوا مسخرين له، كذا فى «زبدة التواريخ». ورتب الناس على طبقات كالحجاب والكتاب، وأحدث النيروز وجعله عيدا يتنعم الناس فيه.

ثم بعد ذلك بدل سيرته الصالحة بأن أظهر التكبر والجبروت على وزرائه وقواده، وآثر اللذات وترك كثيراً من السياسات التى كان يتولاها بنفسه، وعلم بيوراسب، وكان من جملة عماله باستيحاش الناس من جمشيد، وتنكر خواصه عليه، فقصده بعد أن كثرت أتباعه وقويت شوكته، وهرب جمشيد وتبعه بيوراسب حتى ظفر به، فقتله بأن وضعه بين دفتين ونشره بمنشار.

ثم ملك بيوراسب الضحاك، وكان يقال له الدهاك، ومعناه عشر آفات، فلما عُرب ، قيل الضحاك، وملك الأرض كلها وسار فيها بالجور والعسف، وبسط يده بالقتل وسن الأعشار والمكوس، واتخذ المغنين والملهين، ويقال إنه هو النمرود، لعنه الله.

وكان أول من سن الصلب والقطع. وكان على منكبيه سلعتان، ويدعى أنهما حيتان تضطربان إذا جاعتا، فلا تسكنان حتى تطعما بدماغ إنسان، وكان يذبح لهما، كل يوم، رجلين من الذين كانوا يستحقون القتل. فلما تم من كان فى سجنه، أمر بأن يجمع من العامة من كان مجرماً وغير مجرم، وكانوا يقرعون القرعة على أهل الأمصار والقرى، فمن وقع عليه أخذوه. فلم تزل الناس فى هذا البلاء نحواً من خمسمائة سنة، حتى أراد الله إهلاكه.

وكان لرجل حداد من أهل أصفهان، يقال له كابي الحداد، أربعون ولداً، ولم يزالوا يذبحون من أولاده، حتى لم يبق له سوى ولد واحد. فلما أرادوا ذبح ذلك الولد، أخذ كابى المذكور عصا طويلة، وعلق بطرفها الجلد الذى يستتر به عند شغله، ويتوقى به النار، ورفعه وصاح فى الناس، ودعاهم إلى مجاهدة الضحاك، فاجتمع عنده خلق كثير. وبقى ذلك العلم معظما عند الفرس، ورصعوه بالجوهر وسموه درفش كابيان، وجعلوه علمهم الأكبر الذى يتبركون به، وهو الذى صار إلى المسلمين فى وقعة القادسية، وكانت الفرس لا ينشرونه إلا فى أمور عظيمة.

ولما قوى أمر كابى قصد الضحاك، فهرب منه الضحاك، وسأل الناس كابى أن يتملك عليهم، فأبى لكونه ليس من بيت الملك، فأمرهم أن يملكوا أحداً من ولد جمشيد، وكان أفرينون بن أتقيان، من أولاد جمشيد، وقيل كان رجلا جسيماً مليحاً، وهو من بقية العمالقة، مقدار قامته سبعة أرماح، وعرض صدره رمح، وكان مستخفياً من الضحاك، فاستبشر الناس به وولوه الأمر مكان الضحاك، وكان كابى أحد أعوانه.

فلما استولى أفرينون على منازل الضحاك، وجلس على سرير الملك، تبع الضحاك مدة، ثم أسره بدماوند. فلما مثل بين يديه، سأله كيف قتل جده جمشيد، قال: «وضعته بين دفتين، وأمرت بنشره». منذ ذلك غضب، وأمر بأن يضعوا عموداً من حديد على فم بئر، ويربطوا رجليه فى العمود ويعلقوه منكوساً ويبنوا على فم البئر، ففعلوا كما أمر، وأحدثوا المهرجان يوم قتله.

وكان إبراهيم الخليل -عليه السلام- في أواخر أيام الضحاك. وكان نمرود عاملاً من عماله، استعمله على السواد، وما اتصل به يمنة ويسرة.

وكانت مدة ملك الضحاك ألف سنة.

ولما ملك أفرينون، سار فى الناس بأحسن سيرة، ورد جميع ما اغتصبه الضحاك على أصحابه.

وكان مؤثراً للعلم وأهله، وكان عارفاً بعلم الطب، والفلسفة، والنجوم.

وكان لأفرينون ثلاثة أولاد، فقسم الأرض بينهم أثلاثاً، خوفاً من تفرق الميثاق بعده، أحدهم إيرج، فجعل له العراق والهند والحجاز، وجعله صاحب التاج والسرير، وفوض إليه الولاية على أخويه، والثانى شرم، وجعل له الروم وبلاد الشام ومصر والمغرب، والثالث طوخ، وجعل له الصين والترك والمشرق جميعه.

فلما مات أفرينون وثب طوخ وشرم على إبرج فقتلاه، واقتسما بلاده، وملكا الأرض، ثم نشأ (ابن) لإبرج المقتول، يقال له منوجهر بن إبران بن إبرج، فحقد على عمى أبيه، وجمع العسكر وتغلب عل ملك جده إبرج فقوى أمره. وكان موصوفا بالعدل والإحسان فى مملكته. ويقال إنه أول من حفر الخنادق وجمع آلة الحرب، وأول من وضع الدهقنة، وجعل لكل قرية دهقاناً. ولما قوى منوجهر المذكور قتل عمى أبيه طوخ وشر، وأخذ ثاره منهما.

ثم نشأ من ولده طوخ بن أفرينون المذكور أفراسياب وإليه تنسب الترك، فجمع العسكر وحارب منوجهر المذكور، وحاصره بطبرستان، ثم اصطلحا وضربا بينهما حدا لا يتجاوزه أحد منهما، وهو نهر بلخ. وكان تغلب أفراسياب المذكور على مملكة فارس فى أيام منوجهر اثنتى عشرة سنة، وأكثر الفساد وأخرب البلاد، وطم الأنهار، فقحط الناس.

ثم ظهر زو بن طهماسب وقيل زاب، وهو من أولاد منوجهر، فتسارع إليه الناس، وطرد أفراسياب عن مملكة فارس، حتى رده إلى بلاد الترك بعد حروب كثيرة، وسار زاب المذكور بأحسن سيرة حتى عمر البلاد وأصلح ما كان أخربه أفراسياب، ووضع عن الناس الخراج سبع سنين، فعمرت البلاد واستخرج للسواد نهراً وسماه الزاب، وبنى على حافته مدينة، وهى التى تسمى المدينة العتيقة، ونقل إليها أنواع الرياحين والأشجار. وهذا أول من اتخذ أنواع الأطعمة، وقسم الغنايم على جيوشه، وكانت مدة ملكه ثلاث سنين.

وكان نايب من(نواب المذكور وزيراً يقال له كرشاسب، من أولاد طوخ بن أفرينون تولى الملك، ويقال إنهما اشتركا فى الملك. وكان مسكنه ببابل ومدة ملكه عشرون سنة، وبعض المؤرخين لم يذكره فى الملوك، وهو آخر من تولى من طائفةالفيشدادية.

الطبقة الثانية : الكيانية :

ولما هلك كرشاسب ملك بعده كيقباذ بن زاب، وهو أول ملوك الكيانية. سلك سيرة أبيه فى الخير وعمارة البلاد، وجرت بينه وبين الترك حروب كثيرة، وكان مقيماً بقرب نهر بلخ، وهو نهر جيحون، يمنع الترك عن العبور إلى أرض فارس، وقيل كان فى زمانه من الأنبياء حزقيل، والياس، واليسع، وشمويل، عليهم السلام.

ثم هلك كيقباد بعد أن ملك مائة وعشرين سنة، وقام مقامه بعده ابن ابنه كيكاوس بن كبيسه بن كيقباد المذكور، فشدد على أعدائه وقتل خلقاً كثيراً من عظماء البلاد، وسكن مدينة بلخ. وولد له فيها ولد بديع فى الجمال، وكان يفتن بحسنه فسماه سياوش، ثم إنه سلمه إلى رستم الشديد الذى كان نايباً على سجستان، فرباه رستم وأدبه حتى صار نهاية فى الأدب والفروسية.

ولما قدم به إلى أبيه امتحنه فأعجبه، ثم إنه كان لأبيه الملك زوجة بارعة الجمال (يقال لها آب رخ)، يقال : إنها ابنة أفراسياب ملك الترك، وهى غير أم سياوش، فعشقت لسياوش وأرادت منه المواصلة فأبى سياوش، وقال : «معاذ الله، إنه أبى ومولاى ، لا أخونه فى أهله!».

فلما خافت المرأة، واستشعرت من سياوش بأنه ينمها إلي الملك، قصدت إهلاكه، فذكرته عند الملك بكل سوء، حتى تنفر الملك عنه، فرام إهلاكه في يد العدو، خوفاً من لحوق العار به فى قتل ولده، فكتب إلى رستم فى ذلك، وأرسله فى جيش كثيف.

فلما التقى سياوش بالعدو انتظم الصلح بينهما من غير حرب، كتب سياوش إلى أبيه يخبره بأمر الصلح فلم يرض بذلك، فرأى سياوش نقض العهد عاراً عليه، فامتنع من إنفاذ أمر أبيه، وأجمع على الفرار إلى أفراسياب، فلحق به

بعد أن أخذ منه على نفسه الأمان، فأكرمه أفراسياب وزوجه ابنته حتى إذا حبلت البنت من سياوش عدى أفراسياب على سياوش فقتله خوفاً منه على ملكه، لميل الناس إليه.

واجتهد أفراسياب فى إسقاط الولد فلم يمكن، وأمر قيران، وهو أكبر أمرائه، وهو الذى استأمن لسياوش من أفراسياب، أن تكون ابنته عنده حتى إذا وضعت الحمل قتل الولد. فلما ظهر الولد امتنع قيان من قتله وستر أمره، فكان عند قيران حتى بلغ أشده.

فلما سمع كيكاوس بقتل ابنه سياوش، وأنه ولد له ولد من بنت أفراسياب تحيل فى ذلك، وأرسل قوماً شطاراً فى زى التجار بالمال، وأمرهم بسرقة ابن سياوش وزوجته فسرقوهما، وأحضروهما. وكان اسم الولد المذكور كيخسرو، وكان كيكاوس عقيماً، فقرر الملك لولد ولده كيخسرو المذكور.

ولما ملك كيخسرو وقوى أمره، قصد ملك الترك أفراسياب، طالبا لثأر أبيه سياوش، فجرت بينهما حروب كثيرة، وظفر كيخسرو بجده أفراسياب وأوثقه فى حديد ثقيل، ووبخه على غدره بأبيه، ثم ذبحه، وقد غنم غنايم عظيمة. فلما استقر فى الملك مدة تزهد وخرج عن الدنيا، وترك الملك، وعين مكانه لأعظم قواده بهراسب، وفقد كيخسرو.

وكانت مدة ملكه ستين سنة، وكان ذلك فى أيام سليمان بن داود -عليهما السلام-.

ثم ملك بعده بهراسب، ويقال إنه ابن أخى كيكاوس، فاتخذ سريراً من ذهب مرصعاً بالجوهر، وكان يجلس عليه.

وبنيت له بأرض خراسان مدينة بلغ الحسناء، وسكنها لقتال الترك. وكان بخت نصر عاملاً من جانبه على العراق والأهواز وعلى الروم، وتولى سبعاً

وخمسين سنة، وسبب تسمية بخت نصر أنه وُجد، وهو رضيع، عند صنم اسمه نصر، ولم يعلم له أبوان، وكلبة ترضعه اسمها بخت، فسمي باسمهما.

فلما هلك بخت نصر، بعدما مسخ، تولى مكانه أولاق سنة واحدة، ثم قتل، وتولى مكانه ابنه بلطاش سنتين، ثم قتل وانقرضت به ذرية بخت نصر.

وكان بهراسب المذكور، شديد القمع للملوك، وكانت ملوك الروم والعرب والهند يؤدون إليه الأتاوة فى كل سنة، ويقرون له أنه ملك الملوك هيبة له. ثم إنه كبر سنه وأحس بالضعف، فتنسك وفارق الملك، واشتغل بالعبادة.

واستخلف ابنه كيشاشب، وقيل اسمه بشتاسف. ولما تولى غضب على بخت نصر بسبب تخريبه البلاد وقتله العباد، فعزله وعين إقطاعه إلى أمير عظيم يقال له كورس[1]، ثم أمر بإطلاق أسارى بنى إسرائيل، فجزهم إلى بيت المقدس.

وظهر فى أيامه زرادشت الحكيم، وهو مؤلف كتاب دين المجوس. وكان من تلامذة عزير النبى -عليه السلام- سمعه وقرأ عليه، ثم خالفه فدعا عليه عزير -عليه السلام- فتجذم، ثم ألف كتابه المذكور فى اثنى عشر مجلداً، كل مجلد فى جلد ثور تحمله عجلة واحدة. أباح فى كتابه تزويج الأم والأخت، وأحل شرب الخمر، وأمر بعبادة النيران، فتوقف كيشاشب عن الدخول فى دينه، ثم صدقه فدخل فى دينه.

وجرت بين كيشاشب وبين خرزاسب، ملك الترك، حروب عظيمة، قتل بينهما فيها خلق كثير بسبب دخوله فى دين زرادشت.

وكان لكيشاشب ولد يقال له أسفنديار، هلك فى حياة أبيه، وخلف ولداً يقال له أزدشير بهمن. فلما تولى أزدشير بهمن المذكور انبسطت يده، وتناول

(١) كورس : قورش .

الممالك حتى ملك الأقاليم السبعة، وراعى وجوه بنى إسرائيل وأحسن إليهم. وكان كريماً متواضعاً علامته على كتبه: «من أزدشير بهمن عبدالله، وخادمه والسايس لأمركم». وغزا رومية فى ألف ألف مقاتل. ومعنى بهمن بالعربية الحسن النية.

وكان أزدشير بهمن متزوجاً بابنته جمانى، وذلك حلال فى دين المجوس، فتوفي بهمن، وهى حاملة منه بدارا. وكانت قد سألت بهمن أن يعقد التاج علي ما فى بطنها ويخرج ابنه ساسان بن بهمن من الملك، فأجابها بهمن إلي ذلك، وأوصى أكابر دولته ففعلوا ذلك، وعظم على ساسان تولية أخيه، فلحق باصطخر وتزهد، وتجرد من حلية الملك، واتخذ غنماً وتولى رعيها بنفسه. وساسان المذكور هو أبو الأكاسرة.

وساست جمانى المذكورة بعده أحسن سياسة، ثم وضعت ولداً سمته دارا، وهو ابنها وأخوها.

وكانت جمانى صاحبة رأى وتدبير، وعقل وحزم. ولم تزل قايمة بأمر الملك ضابطة له، وأغزت الروم جيشاً وظفرت، فقمعت الأعداء واشغلتهم عن الطريق إلى شىء من بلادها، وكان ملكها سبع عشرة سنة.

ولما بلغ دارا رشده عزلت جمانى نفسها، وتولى دارا بن بهمن الملك فضبطه بشجاعة وحسن سياسة. وكان صاحب العزيمة والفزع، وولد له ولد سماه دارا باسمه، وكانت مدة ملكه اثنتى عشرة سنة.

وتولى الملك بعده ابنه دارا بن دارا، وكان حقوداً ظالماً، فنفرت منه قلوب الخاصة والعامة. وفى زمنه تملك الاسكندر بن فيلقوس[1] المشهور مملكة فارس، لأنه عرف بوحشة خواطر أصحاب دارا منه، فقصده بجيشه، فلحق الاسكندر،

(١) يقال فيلبس .

لما دنا من دارا، بعض من يختص بدارا، وشكوا عليه من دارا، وشجعوه عليه، وطال بينهما القتال.

وذكر الشيخ جمال الدين بن الجوزى فى «شرح القصيدة العبدونية» أن الاسكندر ذا القرنين قد منع دارا من حمل الجزية التى كانت تعطيها الملوك بزمانه، وكانت الملوك تحمل الجزية فى كل سنة وتوديها إلى ملك فارس، وذلك ماية بيضة ذهباً، وزن كل بيضة ألف مثقال.

فلما أظهر الاسكندر منع ذلك، وهو أن يؤدى إلى ملوك فارس ماكان غيره يحمله، فخرج داراً لقتاله، فالتقيا بنصيبين من بلاد الجزيرة، فاقتتلا سنة كاملة. وكان دارا قد مله قومه وأحبوا الراحة منه، فلحق كثير منهم بالاسكندر وأطلعوه على عورته وقووه عليه، ثم وثب على دارا حاجباه فقتلاه، وتقربا برأسه إلى الاسكندر، فأمر الاسكندر بقتلهما، وقال: «هذا جزاء من يتجرأ على أستاذه!». وصار ملك دارا إلى الاسكندر بن فيلقوس اليونانى.

وفى «شرح رسالة ابن زيدون» أن الاسكندر لما امتنع من إرسال الأتاوة لدارا، بعث إليه بكرة وصولجان وخرقة فيها سمسم، وقال: «أنت صبى، فالعب بهذه الأكرة، فإن أديت الأتاوة، وإلا بعثت إليك بجنود عدد هذا السمسم، وأتيت بك فى وثاق!» فكتب إليه الاسكندر:

«أما بعد. فقد تيمنت بالأكرة والصولجان، فإن الدنيا مثل الأكرة وسألعب بها، وأضيف ملكك إلى ملكى، وأما السمسم فقد تيمنت أيضاً به، فإنه بعيد عن الحرافة والمرارة. وأما الدجاجة التى كانت تبيض ذلك البيض، فقد ذبحتها وأكلت لحمها!». فغضب دارا وسار إليه بجموعه، فصار من أمره ما صار، والله أعلم.

الطبقة الثالثة : الأشغانية :

وهم ملوك الطوايف، وكان من أمرهم أن الاسكندر، لما غلب على الفرس وأسر ملوكهم وعظماءهم، قتل منهم جماعة وأراد قتل الباقين عن آخرهم، فمنعه أرسطاليس، وقال له : «الرأى أن تملك عدة منهم على الفرس، فيقع بينهم التشاجر والتباغض، فلا يجتمعون، فتأمن اليونان غايلتهم!». فمال الاسكندر إلى ذلك، وملك من كبار الفرس عشرين ملكاً على الفرس، وهم المسمون بملوك الطوايف، واستمر بهم الحال على ذلك نحو خمسماية واثنتى عشرة سنة حتى قام أزدشير بن بابك وجمع ملك الفرس، ولم يبق منهم ملك غيره.

وكانت عدة ملوك الطوايف تزيد على تسعين ملكاً، ولم تؤرخ فى مبتدأ أمرهم أسماؤهم ولا عدد ملكهم، فإنهم كانوا ملوكاً صغاراً فى الأطراف، ولم يشتهر منهم إلا الأشغانية، فضبط أصحاب السير والتواريخ أيامهم، ومدد ملكهم وأساميهم.

فأول من اشتهر منهم أشغا بن أشغان، ويقال أشك بن أشكان، وكان أول ملك أشغا المذكور لمضى مائتين وأربعين سنة من غلبة الاسكندر، وكان ملكه عشر سنين.

ثم ملك بعده شابور بن أشغان ستين سنة. وكان مولد المسيح، عليه السلام، فى بضع وأربعين سنة خلت من ملك شابور.

فلما هلك، ملك بعده جور بن أشغان، وقيل جودرز، عشر سنين.

فلما هلك، ملك بعده بيزن الأشغانى إحدى وعشرين سنة، وهلك.

ثم ملك بعده جودون الأشغانى تسع عشرة سنة، وهلك.

ثم ملك بعده ترسى جودون الأشغانى أربعين سنة، وقال يوم ملك : «إنى محب ومكرم من أنفذ أمرى»، وهلك.

ثم ملك بعده هرمز الأشغانى تسع عشرة سنة، وقال يوم ملك : «يامعشر الناس، اجتنبوا الذنوب كيلا تذلوا بالمعاذير»، ثم هلك.

وملك بعده أردوان الأشغانى اثنتى عشرة سنة، وهلك لمضى أربعمائة وسبع وثلاثين سنة.

ثم ملك بعده خسرو الأشغانى أربعين سنة، وقال يوم ملك : «تسطع نارى ما دامت مضطرمة»، ثم هلك.

وملك بعده بلاش الأشغانى أربعاً وعشرين سنة.

ثم ملك بعده أردوان الأصغر ثلاث عشرة سنة، وظهر أمر أزدشير بن بابك وقتل أردوان وغيره من الأردوانيين، واجتمع له ملك جميع الطوائف. فيكون انقضاء ملك أردوان لمضي خمسمائة واثنى عشرة سنة للاسكندر.

الطبقة الرابعة : الساسانية:

وهم الأكاسرة، أولهم أزدشير بن بابك، وهو ولد ساسان بن أزدشير بهمن، المقدم ذكره. وساسان المذكور هو الذي تزهد، لما أخرجه أبوه من الملك، وجعله لدارا قبل ولادته، حسبما تقدم ذكره.

وعدة ملوك الساسانية من أزدشير إلي يزدجرد المقتول فى زمن عثمان -رضى الله عنه -، ثلاثون ملكا، منهم امرأتان، وقيل اثنان وثلاثون.

وأزدشير هذا هو أبو الملوك الساسانية جميعاً. وكان شجيعاً حازماً، طويل الفكر، وكان ينزل اصطخر، وكتب إلى ملوك الطوائف يدعوهم إلى الاختلاع، فمنهم من أقر له بالطاعة، ومنهم من تربص حتى قدم عليه، ومنهم من عصاه. فلما غلب عليهم لم يبق أحد منهم إلا من أخفى نفسه.

وكان قد أخذ فى جملة من أخذ منهم ابنة ملكهم، تخجل البدر عند

الكمال، والشمس قبل الزوال. فلما رآها قال لها: «أنت من بنات ملوكهم؟». قالت: «بل من خدمهم!». وكان أزدشير قتل أباها وأخاها، فاتخذها لنفسه واصطفاها، فحملت منه.

فلما علمت بالحمل أشهرت نفسها، وقالت : «أنا ابنة الملك !» فخاف أزدشير من ضررها لئلا تتذكر قتلاها، فيستولى طلب الثأر عليها. فأمر شيخاً من رجالها يقال له جندبان بأن يودعها بطن الأرض إشارة إلى قتلها، فحملها إلى منزله ووقع فى صعب الأمر ومشكله. ثم تدبر فى المآل، ونادته ربة الحجال: «مهلا أيها الناصح المشير، ذو الرأى والتدبير، هبنى أنا أخطأت، وعن مرضاة الملك أبطأت، فما ذنب الذى فى بطنى المودع من الملك ولم يجن، فامهلنى إلي أن أضع، ثم تهلك الأم ويبقى التبع، وأنه لابد، إذا برد قلبه وهمد كربه، يطالبك بالفرع، إن لم يطلب الأصل، وبعد القطع لا يمكن الوصل!».

فرأى الشيخ المشير الرأى فى التأخير، فعمل لها سربا تحت الأرض وجعلها فيه. ثم عمد إلى مذاكيره فجبها ووضعها فى حق وختم عليه، ورجع إلي الملك، وقال : «قد أودعتها بطن الأرض». ودفع إليه الحق ، وقال : «إن لى فيه وديعة!» وتضرع إليه أن يرفعها له، وأقامت الجارية إلى أن أخذت مدتها النهاية، فوضعت ولدا ذكراً غصن بان، مثمراً قمراً، فسماه ذلك الشيخ سابور، وقام بتربيته وإصلاح رضاعه وأغذيته إلى أن بلغ سبع سنين، وهو كبدر الأفق المبين.

فركب كسرى أزدشير فى بعض الأوقات، وخرج يصطاد فى بعض الجهات، فتبدد العسكر وصار كالحجيج إذا نفر، ووقع أزدشير فى ناحية منفرداً، فصادف غزالين يسوقان ولداً فهجم عليهما. فلما قصدهما تركا ولدهما، ففوق السهم الخفيف نحو الخشف الضعيف. فلما رأت أمه السهم داخلها الوله والوهم، فقصدت السهم دون ولدها، واستقبلت نصل كبد القوس بكبدها، فأراد إطلاق السهم من الكبد ليصيب به نحر أم الولد، فاعترضه الفحل بصدره وتلقاه

دون نحرها بنحره، وجعل نفسه وقاية لأم ولده وفداهما بروحه وجسده. فتذكر أزدشير ولده وأمه، وضاعف حزنه عليهما همه وغمه، ثم فاضت دموع عينيه فرمى القوس، والسهم من يده، ورجع متفكراً وعلى ما فرط منه متحسراً.

ودعا الشيخ، وذكر له ذلك النكد، وما رآه من الغزالين والولد، وتحرق على فقد حظيته، وتأرق لمصاب فلذة كبدته، ولم يكن له ولد، ولا من يرث الملك بعده أحد.

ثم دعا له الشيخ وانصرف، وعبى حملا من الهدايا والتحف، وألبس ابن الملك أفخر ملبوس، وجهز أمه كما يجهز العروس، وأقبل بهما إليه، وعرض كل ذلك عليه. وقال: «متعك الله بهما ، ومتعهما بك!».

فسر صدر أزدشير بذلك وانشرح، وأغمى عليه من شدة الفرح. فدعى الشيخ بالحق المودع عند الملك، ففض خاتمه، فإذا فيه مذاكير الشيخ وكتاب يقول فيه : «لما أمرني الملك بقتل المرأة التي علقت من ملك الملوك أزدشير، لم أر أن أبطل زرع الملك الطيب، فأودعتها بطن الأرض كما أمرني، فتبرأت إليه من نفسي لئلا يجد عايب إلى عيبنا سبيلاً!». فأعجب الملك منه ذلك، وأفاض عليه خلع الأنعام، والرضى والإكرام. فعند ذلك أمر الملك أزدشير بعقد التاج لولده.

وكان لسانهم الفهلوى، وهى من اللغات التى لم يبق لها مترجم.

وكان أزدشير من أهل العقل والمعرفة، وله أشياء رتبها، واقتدي بها المتأخرون من الملوك . وكان قد رتب أصحابه على ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى : على نحو من عشرة أذرع، مجلسهم من مجلسه، وهم بطانته وندماؤه ومحدثوه من أهل الشرف والعلم.

والطبقة الثانية : على نحو عشرة أذرع من هؤلاء، وهم وجوه المرازبة.

والطبقة الثالثة : على مقدار عشرة أذرع من الثانية. وكان يقول ما من

شيء أضر على نفس ملك أو رئيس من معاشرة سخيف (أو مخالطة لئيم)، كما أن الريح إذا مرت بطيب حملت طيباً تحيى به النفوس.

وكان مدة ملك أزدشير أربع عشرة سنة وعشرة أشهر.

ثم ملك بعده ابنه سابور، المقدم ذكره، إحدى وثلاثين سنة. وكان جميل الصورة حازماً، وظهر فى أيامه مانى الزنديق، وادعى النبوة وتبعه خلق كثير، وكان جمع له كتب الفلسفة لليونانيين ونقلها إلي اللغة الفارسية، فرجع سابور عن مذهب المجوسية إلى مذهب مانى والقول بالنور والبراءة من الظلمة، ثم عاد بعد ذلك إلى دين المجوسية، ولحق مانى بأرض الهند لأسباب أوجبت ذلك.

ثم ملك بعده ابنه هرمز بن سابور سنة واحدة وستة أشهر. وكان عظيم الخلق شديد القوة، وكان يلقب هرمز البطل لشجاعته. وبنى مدينة هرمز من كور الأهواز.

ثم ملك بعده ابنه بهرام بن هرمز ثلاث سنين وثلاثة أشهر. وكانت له حروب مع ملوك الشرف، واتبع سيرة آبائه في حسن السياسة والرفق بالرعية، ويقال إنه أتاه مانى يعرض عليه مذهبه فصلبه على باب من أبواب المدينة، وقتل الرؤساء من أصحابه.

ثم ملك بعده ابنه بهرام بن بهرام سبع عشرة سنة، فاقبل فى أول ملكه على القصف واللهو والنزهة والصيد، لا يفكر فى ملكه ولا رعيته، وأقطع الضياع لخواصه وخدمه، فخربت البلاد وقل ما فى بيوت الأموال، وكان تدبير الملك مفوضاً إلى وزرائه.

فلما أن كان فى بعض الأيام، ركب إلي بعض نزهاته وصيده فجنه الليل، وهو يسير نحو المداين، وكانت ليلة قمراء، فدعا بالموبذان لأمر خطر له، فجعل يحادثه، فانتهى بهم المسير إلى خرابات كانت من أمهات القرى، قد خربت فى

ملكه، لا أنيس بها إلا البوم، وإذا ببوم يصيح وآخر يجاوبه من بعض تلك الخرابات. فقال الملك : «هل ترى أحداً من الناس أعطى فهم كلام هذا الطائر؟». فقال الموبذان: «أنا أيها الملك ممن خصه الله بفهم ذلك!». فاستفهمه الملك عما يقول فقال : «هذا بوم ذكر يخاطب بومة أنثى، وهو يقول لها متعينى نفسك حتى يخرج من بيننا أولاد يسبحون الله تعالى، ويبقى لنا فى العالم عقب يذكرون الله تعالى ويكثرون ذكرنا، والترحم علينا!». فأجابته البومة: «إن الذى دعوتنى إليه هو الحظ الأكبر، والنصيب الأوفر، إلا أننى اشترط عليك خصالا إن أنت أعطيتنيها أجبتك إلى ذلك».

فقال لها الذكر : «وما تطلبينه منى؟». قالت : «أن تعطينى من خرابات أمهات الضياع عشرين قرية مما قد خرب فى أيام هذا الملك السعيد». فقال له الملك : «وما الذى قال لها الذكر؟». قال الموبذان: «كان من قوله لها إن دامت أيام هذا الملك السعيد أقطعتك مما يخرب ألف قرية، فما تصنعين بها؟». قالت: «إن في اجتماعنا ظهور النسل وكثرة الولد فنقطع كل ولد من أولادنا قرية من هذه الخرابت». قال لها الذكر: «هذا أسهل أمر أردتيه وأيسر شىء طلبتيه منى، وقدمت لك الوعد، وأنا ملىء ثقة بذلك!».

فلما سمع الملك هذا الكلام من الموبذان، عمل فى نفسه واستيقظ من نومه، وفكر فيما خوطب به، فنزل من ساعته وخلا بالموبذان، فقال له : «أيها الملك، إن الملك لا يتم إلا بالشريعة، ولا قوام للشريعة إلا بالملك، ولا عز للملك إلا بالرجال، ولا قيام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل للمال إلا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل، والعدل الميزان المنصوب بين البرية نصبه الرب وجعله قيما، وهو الملك!».

فلما سمع الملك ذلك، أقام فى موضعه ثلاثة أيام، وأحضر الوزراء والكتاب وأرباب الدواوين، فانتزعت الضياع من أيدى الصناع من الخاصة والحاشية

وردت إلى أربابها، وحملوا على رسومهم السالفة، فانتظم ملكه حتى كانت أيامه تدعى بالأعياد، ولما عم الناس من الخصب وشملهم من العدل.

وكانت الفرس تهدى إلى الكعبة أموالا وجواهر، وقد كان ساسان أهدى غزالين من ذهب وجواهر وسيوفاً وذهباً كثيراً، فقذفه فى زمزم، فوصل ذلك لعبد المطلب.

ثم ملك بعده بهرام بن بهرام بن بهرام، فكانت مدة ملكه أربع سنين وأربعة أشهر، وسلك سبيل آبائه من العدل والسياسة، وهو الذى يقال له شهنشاه.

ثم ملك بعده أخوه ترسى بن بهرام تسع سنين.

ثم ملك بعده ابنه هرمز بن ترسى تسع سنين أيضاً.

ولما مات هرمز لم يكن له ولد، وكانت بعض نسائه حاملاً، فعقد التاج على ما فى بطنها فولدت ولداً سموه سابور. فلما اشتد ظهرت منه نجابة عظيمة من صباه، فكان أول ما ظهر منه أنه سمع ضجيج الناس بسبب الزحمة على الجسر الذى على دجلة بالمداين، فقال: ما هذه الجلبة؟ فقيل: بسبب زحام المارين على الجسر! فأمر أن يعمل إلى جانب الجسر جسراً آخر يكون أحد الجسرين للخارجين والآخر للداخلين، فعملوه وزال الزحام. وكان سنه إذ ذاك خمس سنين، فتعجب الناس من نجابته.

وفى أيام صباه طمعت العرب فى بلاده وأخربوها. فلما بلغ من العمر ست عشرة سنة، انتخب من فرسان عسكره عدة كثيرة، وسار بهم إلى العرب، وهم من ولد أياد بن نزار، وملكهم يومئذ الحارث الأغر الأيادى (وكانوا يصيفون بالجزيرة ويشتون بالعراق)، وقتل من وجد منهم ووصل إلى الحسا والقطيف، وشرع يقتل ولا يقبل فداء. ثم سار إلى اليمامة وسفك بها الدماء، ولم يمر بماء

للعرب إلا غوره، ولا ببئر إلا طمها، فعمهم القتل، فما أفلت منهم إلا نفر لحقوا بأرض الروم، وصار ينزع أكتاف العرب حتى نزع، فيما قيل، كتف سبعين ألف رجل، فلذلك سُمى سابور ذو الأكتاف، وصار لقباً عليه.

وقد أتى فى مسيره على بلاد البحرين، وفيها يومئذ بنو تميم فأمعن فى قتلهم، وشيخها يومئذ عمرو بن تميم بن مرة وله من العمر المائة سنة، وكان يعلق فى عمود البيت فى قفة قد اتخذت له.

فلما سمعوا بمسير سابور إليهم رحلوا وأرادوا حمله معهم، فأبى عليهم إلا أن يتركوه فى ديارهم، وقال : «أنا هالك اليوم أو غداً، ولعل الله ينجيكم من صولة هذا الملك!». فخلوا عنه وتركوه، فأصبحت خيل سابور فى الديار، فلم يجدوا أحداً. فلما سمع عمرو صهيل الخيل وهمهمة الرجال، أقبل يصيح بصوت ضعيف، فنظروا إلى قفة معلقة فى شجرة، فأخذوه وجاءوا به إلى سابور.

فلما وضع بين يديه، نظر إلى دلايل الهرم ومرور الأيام عليه ظاهرة، فقال له سابور: «من أنت أيها الشيخ الفانى؟». قال: «أنا عمرو بن تميم، وقد بلغت من العمر ما ترى، وقد هرب الناس منك لإسرافك فى القتل، وأنا أسألك عن أمر إن أنت أذنت لى فيه!».

فقال له سابور: « قل نسمع!». فقال : «ما الذى حملك على قتل رعيتك من رجال العرب؟». فقال: «أقتلهم لما ارتكبوا فى بلادى وأهل مملكتى!». فقال عمرو: «فعلواذلك ولست عليهم بقيم، فلما ملكت رجعوا عما كانوا عليه من الفساد هيبة لك!».

قال سابور: «وأقتلهم لأنا نجد فى مخزون علمنا وبأخبار أوائلنا أن العرب ستدال علينا». قال عمرو: «وهذا أمر تظنه أم تتحققه؟». قال : «بل أتحققه، ولابد أن يكون ذلك!». قال عمرو: «فإن كنت تعلم ذلك فلم تُسئ إلى العرب، والله لئن

تبقى العرب وتحسن إليهم، فيكافئوا قومك عند إزالة الدولة لهم بإحسانك، وإن أنت طالت بك المدة كافوك عند مصير الأمر إليهم فيبقون عليك!».

فقال سابور: «الرأى ما قلت، ولقد صدقت ونُصحت!». فرفع السيف وانكف عن قتلهم. ويقال إن عمروا بقى بعد ذلك ثمانين سنة.

وفى «سلوان المطاع» أن سابور، لما أراد أن يدخل بلاد الروم متنكراً، نهاه نصحاؤه وحذروه، فلم يسمع كلامهم، فسار واستصحب وزيراً كان له ولأبيه من قبله، وكان شيخاً ذا دهاء وسداد ورأى، عالما بالديانات واللغات والمكايد، فتوجها معا نحو الشام فتزيا الوزير بزى الرهبان، وتكلم بلسان الجلالقة، وتحرف بصناعة الطب الجراحى، وكان معه الدهن الصينى إذا دهنت به الجراحات برئت واندملت فى الحال، ولا يأخذ على تلك المداواة أجراً، فانتشر صيته فى البلاد.

فلما طافا بلاد الشام وقصدا القسطنطينية فقدماها، فصادفا وليمة لقيصر، وقد اجتمع بها الخاص والعام، فدخلاها فى جملتهم، وجلسا على موايدهم، وقد كان قيصر قد أمر مصوراً فصور صورة سابور على أوانيه والستائروالأبواب.

وكان فى المجلس رجل من حكماء الروم ودهاتهم وقعت عينه على سابور، فأنكره، وجعل يتأمل شخصه، فرأى عليه مخايل الرياسة، وتأمل صورة سابور فى كأس كانت بيده فتحقق أنه سابور، فعند ذلك نفر الحكيم جامه الذى بيده ووضعه على أذنه.

فقال له قيصر: «ماذا تسمع أيها الحكيم؟». فقال: «يعلم الملك أن الجام يقول لى إن صاحب هذه الصورة التى عليه موجود معنا فى مجلسنا هذا!». وبحثوا عنه فعرفوه، فعرض ذلك على قيصر فقبض عليه.

فلما مثل بين يديه، سأله عن خبره فقال : «أنا من أساورة سابور وهربت منه لأمر خفته!.» فلم يقبل ذلك منه، وقدم إلى السيف، فأقر بنفسه فعملت له من جلود البقر صورة بقرة، كأعظم ما يكون من البقر، تسع طاقات، واتخذ له باب من أعلاها فى ظهر الصورة يدخل إليها ويخرج منها، وجعل من أسفلها موضع المبال، فأمر بسابور فجمعت يداه إلى عنقه بسلسلة من الذهب بحيث يتناول ما يصلحه من طعام وغيره.

فسار قيصر فى جنوده وقد عزم على خراب بلاد الفرس، وحمل معه تلك الصورة التى سجن فيها سابور، بعد أن وكل عليها مائة رجل من ذوى البأس والقوة يحفظونها ويحملونها دولا بينهم، فإذا نزل العسكر ضربت حولها قباب الحرس، وجعل المطران رئيساً عليهم.

فقدم وزير سابور على المطران فى صورة راهب طبيب وصاحبه، فعرف له حقه وأنزله عنده، وجعل زمام أمره ونهيه بيده، وهو فى كل ليلة يمتع المطران بأخبار ظريفة، رافعاً صوته ليسمع سابور حديثه ويتسلى بذلك، ويدس فى أحاديثه ما يحب أن يعمله سابور ويفطن له من الأسرار.

وكان سابور يجد لذلك أعظم راحة، ولم يزل قيصر سايراً بجنوده حتى وصل إلى أرض فارس، فافتتح المدن، وشن الغارات وعقر النخل، حتى انتهى إلى مدينة جند سابور، وهى دار الملك لسابور، وقد تحصن بها وجوه فارس، فنزل عليها ونصب المجانيق.

فلما كانت الليلة القابلة تلطف وزير سابور، حتى دخل على الطباخ، فألقى فى جميع الأطعمة سماً.

فلما أكلوا استمروا صرعى فى مضاجعهم، فبادر الوزير بفتح باب الصورة عن سابور واستخرجه، وأزال الجامعة من عنقه، وتلطف حتى أخرجه

من عسكر قيصر وقصد نحو المدينة، وهم يتحارسون على سورها، فراطنهم بالفارسية، فعرفوهما ورفعوهما إليهم بالحبال.

فلما دخل سابور المدينة فتح خزاين السلاح، وخرج على الروم فكبسهم، وهم غافلون مطمئنون، فظفر بقيصر فأسره، واحتوى علي خزاينه، ولم ينج من جنوده إلا القليل، وفى ذلك يقول الحرث :

هم ملكوا جميع الناس طُرا   وهم رتقوا هرقلا بالسواد

وهم قتلوا أبا قابوس غصبا   وهم أخذوا البسيطة من أياد

ثم أمر سابور، لقيصر ومن معه من الأسارى، أن يغرسوا بالعراق الزيتون بدلا مما عقروه من النخل، ولم يكن يعهد بالعراق الزيتون قبل ذلك، وأمر أن يعمر ما أخربه منه البلاد من تراب بلده حتى يطلقه، فأمر قيصر رعيته بنقل التراب من بلادهم إلى فارس.

فلم يزل قيصر فى أسره، حتى أثمر ما غرس وعمر ما خرب، وأطلق ما كان فى أسره من الفرس، ثم أطلقه بعد أن قال له: «خذ أهبتك واستعد عدتك، فإنى غاز أرضك عن قريب!».

وقد كانت ملوك الساسانية تسكن بطمسوس غربى المداين، فسكن سابور فى الجانب الشرقى، وبنى هناك الإيوان المعروف بإيوان كسرى الباقية آثارها إلى هذه الغاية، واستمر الإيوان فى ملكه حتى مات بعد اثنتين وسبعين سنة، وهى مدة ملكه ومدة عمره.

ثم ملك بعده أخوه أزدشير بن هرمز أربع سنين، بوصية له من سابور بالملك، لأن ابن سابور يومئذ كان صغيراً، فخلع.

وملك بعده سابور بن سابور (ذى الأكتاف)، وسلك سيرة أبيه. وكانت له حروب كثيرة مع أياد بن نزار وغيرها من العرب، فسقط عليه فسطاط كان منصوباً عليه، فمات من ذلك.

ثم ملك بعده أخوه بهرام بن سابور، وهو الذى يدعى كرمان شاه، لأنه كان على كرمان. وسلك السيرة الحسنة، وملك إحدى عشرة سنة، فوثب عليه جماعة من الفرس فقتلوه.

فلما هلك ملك بعده ابنه يزدجرد بن بهرام، المعروف بالأثيم، وكان فظاً غليظاً لئيم الأخلاق، فسلك أقبح سيرة فاجتمع الناس، ودعوا الله عليه. ذكروا أنهم رأوا فرساً أقبل بشدة عدو حتى وقف على بابه، فتعجب الناس من حسنه فأخبروه بذلك فقام، فنظر إليه فأعجبه، وأمر بإسراجه والجامه. فلما أسرج مسح وجهه وناصيته واستدار حوله، فرفسه رفسة أصاب بها كبده فقتله، ثم هرب الفرس، فلم يعلم أحد أين ذهب. وكانت مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر.

ثم ملك بعده ابنه بهرام جور بن يزدجرد، وكان أبوه يزدجرد أسلمه للنعمان بن امرىء القيس، أحد ملوك اليمن من العرب، وهو صاحب الخورنق، ليربيه ويعلمه الفروسية. فلما مات أبوه تولى الملك شخص يسمى كسرى من ولد أزدشير. فلما بلغ ذلك بهرام جور انتصر بالنعمان، ووقع بينهما مراسلات كثيرة، وآخر الأمر اصطلحا على أن يجعلا التاج بين أسدين شبلين، فمن تناوله فهو الملك.

فلما حضر كلاهما الموعد دخل بهرام ووثب على أحد الأسدين فعصره بفخذيه. ثم تناول الأسد الآخر من أذنيه، فلم يزل يضرب رأس أحدهما بالآخر حتى قتلهما، فأخذ التاج ولبسه، واستقر على سرير الملك.

وكان عادلاً عاقلاً، ذا شغف بالقتال صؤولاً على أعدائه، وكان يقول الشعر بالعربية، ومما حفظ من شعره يوم ظفر بخاقان ملك الترك :

أقول له لما فضضت جموعه كأنك لم تسمع بصولات بهرام

وإنى حامى ملك فارس كلها وما خير ملك لا يكون له حام

وله أشعار كثيرة بالعربية والفارسية. وكان على خاتمه مكتوب: «بالأفعال تعظم الأخطار».

ويقال : إنه دخل أرض الهند متنكراً، فمكث حيناً لا يعرف حتى بلغه أن فيلاً هايجاً بموضع قد قطع الطريق وأهلك الناس، فسألهم أن يدلوه عليه، فرفع أمره إلى الملك، فأرسل معه من يدله. فلما انتهى إليه صعد إلى شجرة لينظر ما يصنع بهرام مع الفيل.

فلما رآه الفيل أقبل إليه، فجعل بهرام يرميه بالنبل، ويثبت النشاب بين عينيه، ثم دنا وأخذ بخرطوم الفيل وجذبه جذبة خر منها ميتاً. ثم احتز رأسه وأتى به إلى الملك، فحياه الملك وأحسن إليه.

ثم إن ملكاً من أعداء ذلك الملك، أقبل نحو بلاد الملك الذى بهرام عنده، فجزع ذلك الملك منه من كثرة جنود الآتى نحوه، فقال بهرام له : «لا يهولنك أمره!». فركب بهرام وقال لأساورة الهند : «احرسوا ظهرى، وانظروا إلى عملى!».

وكانوا قوماً لا يعرفون الرمى وأكثرهم رجالة، فحمل عليهم حملة هزمهم، ثم جعل يضرب الرجل، فيقطعه نصفين، ويأتى الفيل، فيضرب مشفره ويكبه على أم رأسه، ويتناول من عليه فيقتله، ويأخذ الفارس، فيذبحه على قربوس سرجه، ويتناول الرجلين فيضرب أحدهما بالآخر فيموتان معاً، ويرمى فلا تقع له نشابة فى الأرض، فولوا منهزمين.

وحمل أصحابه الذين كانوا معه يحرسون ظهره عليهم، فأكثروا القتل فيهم، فأنكحه ملك الهند ابنته، وأقطعه من بلاده جانباً كبيراً، ثم انصرف بهرام إلى مملكته. ولم تزل تحمل إليه أموال تلك البلاد.

وذكر فى «زهرة الأدب» أن بهرام جور خرج يوماً متصيداً، فعن له حمار

وحش، فاتبعه حتى صرعه، وقد انفرد عن أصحابه، فنزل عن فرسه يريد ذبحه، ومر براع، فقال له : «أمسك لى فرسى!». وتشاغل بذبح الحمار، وحانت منه التفاتة فرأى الراعى يقلع جوهر عذار فرسه، وكان العذار ياقوتاً أحمر، فحول بهرام جور وجهه عنه، وقال فى نفسه : «تأمل العيب عيب، وعقوبة من لايستطيع الدفاع عن نفسه سفه، والعفو من أفعال الملوك، وسرعة العقوبة من أفعال العامة!».

فلما رجع إلى العسكر قال له الوزير: «أيها الملك السعيد، إنى أرى جوهرة عذار فرسك مقلعاً!» . فتبسم وقال: «أخذه من لا يرده ، ورآه من لا ينم عليه، فمن وجد منكم صاحبنا فلا يطالبه!».

وكان مغرماً بالصيد، فبنى منارة من قرون الظبا وحوافر حمر الوحش. وفى أواخر حالاته كان كلما اصطاد حمار وحش دمغ أذنه وأطلقه، وآخر أمره أنه هلك، بأن خرج للصيد، وأمعن فى طرد الوحش حتى توحل فى سبخة هو وفرسه.

وكانت مدة ملكه ثلاثاً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً.

ثم ملك بعده ولده يزدجرد بن بهرام، فسار سيرة أبيه وقمع الأعداء وعمر البلاد، وأحضر، حين ملك، رجلا فاضلاً من حكماء عصره، فقال له : «أيها الفاضل، ما صلاح الملك ؟». فقال : «الرفق بالرعية، وأخذ الحق منهم من غير مشقة، والتودد إليهم بالعدل وإنصاف المظلوم من الظالم!». قال : « فما صلاح أمر الملك؟». قال : «وزراؤه وأعوانه، إن صلحوا صلح، وإن فسدوا فسد !». فسار سيرة حسنة.

وكانت مدة ملكه ثمانى عشرة سنة وأربعة أشهر، فهلك وخلف ولدين، أحدهما هرمز، والآخر فيروز، فتنازعا فى الملك بعده.

فملك هرمز، وهو أصغر الولدين، لكونه كان حاضراً عند أبيه حين الوفاة، وكان أخوه الكبير فيروز غايباً فى بلاد سجستان. فلما بلغ فيروز موت أبيه وتولية أخيه هرمز هرب إلى خنشوار، ملك الهياطلة، وهم أهل البلاد التى بين خراسان وبين الترك، وهى بلاد طجارستان، واستعان بملكهم على رد ملك أبيه إليه واستخلاصه من أخيه هرمز، فاقتتلا فى الرى، وظفر فيروز بأخيه فسجنه، وكانت أمهما واحدة.

فملك فيروز وقتل أخاه. ثم إنه غزا خنشوار، ملك الهياطلة، حتى أخذه أسيراً، ثم عاهده أن يطلقه ولا يغزوه أبداً، فأطلقه فأخذته الحمية، فغزاه ثانية فظفر به، فقتله.

وظهر فى أيامه غلاء شديد، وغارت الأعين والمياه، حتى سيحون وجيحون والفرات، ويبس النبات وهلك الوحش، ودام ذلك مدة سبع سنين، وبعد ذلك أرسل الله المطر وعادت الأكوان إلى أحسن ما كان.

وكان ملكه سبعاً وعشرين سنة، وتنازع فى الملك إبناه قباذ وبلاش، فغلب بلاش على أخيه.

ثم ملك بلاش، وكان حسن السيرة إلى أن هلك بعد أربع سنين. وكان قباذ قد سار إلى خاقان، ملك الترك، يستمده على أخيه، فمطله فى ذلك أربع سنين، ثم وجه معه جيشاً.

فلما قدم المداين، وجد أخاه قد هلك، فتملك عليهم قباذ المذكور، وكان ضعيفاً مهيناً فى ملكه.

وفى أيامه ظهر مزدق الزنديق، وتفسير مزدق جديد الملك، وإليه تضاف المزدقية. ادعى النبوة، وأمر الناس بالتساوى فى الأموال، وأن يشتركوا فى النساء لأنهم إخوة لأب وأم، آدم وحوى، ودخل قباذ فى دينه، فشق ذلك على

الناس وعظم عليهم، وأجمعوا على خلع قباذ، وانضم إلى مزدق جماعة، وقالوا: «نحن نقسم الناس ونرد على الفقراء حقوقهم من الأغنياء!». فكانوا يدخلون على الرجل فيقتلونه على أمواله ونسائه، فوثب رجل من الأشراف، يعرف بابن ساجور، فى جماعة من أصحابه على مزدق فقتله، ولم تبق ناحية إلا خرج منها خارج، فخلعوا قباذ، وولوا مكانه أخاه جاماساب بن فيروز، ولحق قباذ بالهياطلة، فانجدوه، وانتصر على أخيه جاماسب، وحبسه.

واستمر قباذ فى الملك، حتى قُتل فى بر العرب بمدينة الرى، وكان ملكه إلى أن هلك ثلاثاً وأربعين سنة.

ثم ملك بعده ابنه أنو شروان العادل، ولما تولي الملك كان صغيراً، فلما استقل بالملك وجلس على السرير، وقال لخواصه: «إنى عاهدت الله تعالى إن صار الملك إلىّ، أنى أعيد آل المنذر إلى الحيرة ثانياً، وأن أقتل طائفة المزدقية الذين أفسدوا فى أموال الناس ونسائهم!».

وكان مزدقى قايماً إلى جانب السرير، فقال: «هل تقتل الناس جميعاً، هذا فساد فى الأرض، والله قد ولاك لتصلح لا لتفسد!». فقال له أنو شروان: «يا ابن الخبيثة أتذكر، وقد سألت أبى قباذ بأن يأذن لك فى المبيت عند أمى، فأمر لك، فمضيت نحو حجرتها، فلحقت بك وقبلت رجلك وما زال نتن جواربك فى أنفى، منذ ذلك اليوم إلى الآن، وسألتك حتى وهبتها لى ورجعت!». فقال : «نعم!».

فأمر بقتله فقتل بين يديه، وأخرج وأحرقت جثته، وأمر بقتل توابعه، فقتل منهم خلقاً كثيراً، وأثبت ملة المجوسية القديمة، وكتب بذلك إلى أصحاب الولايات.

وقوى جنده بالأسلحة والكراع، وعمر البلاد وقسم أموال الزنادقة على الفقراء، ورد الأموال التى لها أصحاب إلى أصحابها، وأجرى الأرزاق للضعيفات

اللاتى مات عنهن أزواجهن، وأمر أن يزوجن من مال كسرى، وكذلك فعل بالبنات اللاتى لم يوجد لهن أب. وأما البنون الذين لم يوجد لهم أب فأضافهم إلى مماليكه، ورد المنذر إلى الحيرة، وطرد الحارث عنها، وكان الحارث مزدقياً.

ثم سار إلى الهياطلة مطالبا بدم فيروز، فقتل ملكهم وخلقاً كثيراً من أصحابه، وتجاوز بلخ وما وراءها، وأرسل جيشاً إلى اليمن فطردوا الحبشة عنها، وغزا برجان، وأذعن له قيصر بالطاعة. وهو الذى بنى سور باب الأبواب، وجعل مبدأ السور من جوف البحر مقدار ميل، وبناه بلبن الحديد والرصاص، وفى البر على جبل الفتح نحو أربعين فرسخاً، حتى وصل إلى بلاد طبرستان، وجعل على ثلاثة أميال من هذا السور باباً من الحديد، وأسكن من داخله أمة من الناس، وذلك لدفع الأمم المتصلة بذلك الجبل.

ولما بنى أنوشروان هذا السور، هابته الملوك وهادته. وكان فيمن ورد عليه رسول ملك الروم قيصر بهدايا وتحف، فنظر إلى إيوانه وحسن بنائه، ورأى اعوجاجاً فى ميزانه، فسأل عن سبب ذلك.

قيل له : «إن عجوزاً لها منزل فى جانب الإعوجاج، وإن الملك أرغبها فى الثمن، فأبت ولم يكرهها، وبقى الإعوجاج من ذلك على ما ترى!». فقال الرومى: «هذا الإعوجاج أحسن من الاستواء!».

ولأربع وعشرين سنة خلت من ملكه، ولد عبد الله بن عبد المطلب أبو النبى ﷺ وكذلك ولد النبى ﷺ فى السنة الثانية والأربعين من ملكه. وكفى بعدله شهادة النبى ﷺ فى حقه حيث قال: وُلدت فى زمن الملك العادل كسرى أنوشروان.

وكان ملكاً عادلاً عاقلاً، مهيباً محبباً للرعية، وله أفعال حسنة وآثار جميلة. وكان يُسمى كسرى الخير، وكان وزيره بزرجمهر الحكيم.

وفى «المستطرف» أن كسرى أنوشروان كان له معلم حسن التأديب، يعلمه فى حال صباه، حتى فاق فى العلوم، فضربه المعلم يوماً بغير ذنب فأوجعه، فحقد أنو شروان عليه. فلما ولى الملك، قال للمعلم: ما حملك على ضربى يوم كذا وكذا ظلما! قال له : لما رأيتك ترغب فى العلم، رجوت لك الملك بعد أبيك، فأحببت أن أذيقك طعم الظلم لئلا تظلم! فقال أنو شروان : زه، زه!. وكانت مدة ملكه ثمانياً وأربعين سنة.

ثم ملك بعده ابنه هرمز بن أنوشروان. وكان عادلاً يأخذ للدنى من الشريف، وبالغ فى ذلك حتى بغضه خواصه. وكان اصطنع صندوقا ليلقى المتظلم قصته فيه، والصندوق مختوم بخاتمه لئلا تصل إليه أيدى بطانته ومرزابته، ثم أمر باتخاذ سلسلة من الطريق نافذة إلى مكانه، وجعل فيها أجراساً، وكان المتظلم يجيء فيحرك السلسلة، فيعلم به، ويتقدم بإحضاره وإزالة ظلامته.

وكان مهيباً، سايساً، قتالاً، جواداً، مضى من ملكه عشر سنين، ولم يتحرك أحد بحركة، لأن أباه كان مهد الملك وسخر الرعية. ثم خرج عليه عدة أعداء، منهم صاحب الروم فى ثمانين ألف فارس، ومنهم ملك الخزر، ومنهم ملك الترك فى جمع عظيم، فأرسل هرمز إليه رجلاً من أهل الرى يقال له بهرام جوبين.

وكان بهرام من قواده، وكان رجلاً مبارزاً، شجاعاً بطلاً، وكان وحيد دهره، وكان رجلاً طويلاً أعجف كأنه الخشب اليابس، ومن ثم لقب بجوبين، فقاتل بهرام الترك وهزمهم، ونهب أموالهم وطردهم، واستولى على بلاد جمة أرسل بها إلى هرمز. ثم بعد ذلك خاف هرمز على ملكه من بهرام جوبين، وجرى بينهما قتال، فصار أكثر العسكر مع بهرام.

وكان أبرويز بن هرمز مطروداً عن أبيه، مقيماً بأذربيجان، فبلغه ضعف أمر أبيه، وخشى من استيلاء بهرام جوبين على الملك، فقصد أبرويز أباه ومسكه وسمل عينيه، ولبس التاج وجلس على سرير الملك. فكان أول ملك هرمز إلى استقرار ابنه أبرويز فى الملك نحو ثلاث عشرة سنة ونصف سنة، وخالفه بهرام جوبين، وقصد أن ينتقم من أبرويز، لما فعله فى أبيه هرمز من سمل عينيه، وجرى بينهما مراسلات . وآخر الحال أن بهرام جوبين تغلب، وخشى أبرويز أن يقيم والده الأعمى صورة ويستولى على الملك، فاتفق مع خواصه على قتل أبيه هرمز فخنقه، فلحق أبرويز بملك الروم مستنجداً به.

وأقبل بهرام جوبين ولبس التاج، وجلس على سرير الملك، فوصل أبرويز إلى ملك الروم موريقش، وقدم إليه هدايا كثيرة، فحمل إليه موريقش، ملك الروم، ألفى ألف دينار، وأنجده بماية ألف فارس، وألف ثوب من الديباج المنسوج بالذهب الأحمر، وعشرين جارية، من بنات ملوك برجان والجلالقة والصقالبة وغيرهم من الأجناس المختلفة، على رؤوسهن أكاليل الجوهر، وزوجه بابنته مارية، فسار إليه بمن كان معه من العساكر، فالتقيا وجرى بينهما قتال كثير، وولى بهرام جوبين هارباً إلى خراسان.

ثم ملك أبرويز خسرو بن هرمز بعد طرد بهرام جوبين، وفرق فى عسكر الروم أموالاً جليلية، ثم أعادهم إلى ملكهم، وهو الذي أدرك النبى ﷺ ، وأرسل إليه الكتاب مع دحية الكلبى يدعوه إلى دين الإسلام، فمزقه أبرويز، فدعا عليه النبى ﷺ أن يمزق الله ملكه كل ممزق. فأرسل أبرويز يأمر بازان، ملك اليمن، بقتل النبى ﷺ، فعين بازان إلى المدينة الشريفة قاصداً ينظر فى قتل النبى ﷺ، حيلة، فأوحى الله تعالى إلى نبيه ما أضمر بازان وقاصده، فأحضر القاصد وأخبره النبى ﷺ أن كسرى أبرويز قتله أولاده اليوم، فرد خائباً خاسراً. فلما صح ذلك أسلم بازان وحسن إسلامه، وكان مدة ملك أبرويز ثمان وثلاثين سنة.

وفى أيامه، كانت حروب دقيار، وجمع فى أيامه من الأموال ما لم يجمعه غيره من الملوك. روى أنه أصاب سفينة أتت بها الريح، وقصته أنه لما وقع بين كسرى وقيصر مخالفة وقصد كسرى ملكه وسار إليه، فخاف قيصر وحمل خزاين آبائه وأجداده فى السفن، فأدتها الريح إلى كسرى، والفرس بالغوا فى ملكه وسلطنته.

وروى حمزة الأصفهانى أن أبرويز كان له أحد عشر ألف جارية، وستة آلاف خادم وحارس، وثلاثة آلاف امرأة، وعشرون ألف وخمسماية فرس ، ويقال إنه خرج فى بعض أعياده، وقد صفت له الجيوش، وفيها صف ألف فيل. وقد أحدقت به خمسون ألف فارس دون الرجالة، فلما رأته الفيلة سجدت، فما رفعت رؤوسها حتى ضربت بالمحاجن، وراطنها الفيالون بالهندية.

وفى عهده ولد الفيل بخراسان، ولم يعهد هنالك للفيل ولادة، وكان حين يركب يمشى معه مايتا إنسان، معهم المجامر والمعاطر ليشم الروايح الطيبة.

وكان له ألف إنسان برسم رش الماء فى الطريق لإطفاء الغبار. وكان رجلاً حسن الوجه، حسن الشمايل، شجاعاً ذا قوة.

وكانت له قصعة ذهب لين كالشمع ، يصنع منها ما يريد من غير مساس النار. وكانت له قصعة إذا شرب ماؤها تمتلىء بنفسها من غير أن يملأها أحد.

وكان تزوج بشيرين المغنية معشوقة فرهاد، ولهما أخبار وسير يطول شرحها، وقد صنف فى وقايعهما كتب بالفارسية والتركية، وبنى لها قصراً بقرب حلوان.

ثم إن أبرويز طغى وبغى، واحتقر الأكابر وظلم الرعية. وكان فى حبسه ستة وثلاثون ألف رجل، وكان متولى الحبس رجل يقال له زادان، قد تغير على أبرويز، فاتفق مع المحبوسين فأفرج عنهم، وساروا وهجموا على كسرى أبرويز

فى داره، فهرب فوجدوه وقيدوه وحبسوه فى دار رجل ووكل به جماعة، ومضى إلى ابنه شيرويه وأجلسه مكان والده، وأطاعه الخاص والعام، وجرى بين شيرويه وبين أبيه مراسلات وتقريع، وآخر الأمر قال شيرويه لأبيه: لا تعجب إن أنا قتلتك، فإنى أقتدى بك! فأرسل شيرويه بعض أولاد الأساورة الذين قتلهم أبرويز، وأمرهم بقتله فقتلوه.

ومعنى أبرويز بالعربية، المظفر، وخلف أبرويز ثمانية عشر ولداً غير شيرويه، فقتلهم شيرويه.

ولما قتل شيرويه أباه أبرويز، راود زوجته شيرين على نفسها، فامتنعت فضيق عليها ورماها بالزنا، وأراد قتلها إن لم تفعل، فقالت : «أفعل على ثلاث شرائط!» قال : «وما هى؟» قالت : «تسلم لى قتلة زوجى أقتلهم، وتصعد المنبر فتبرينى مما قذفتنى به، وتفتح لى ناووس أبيك، فإن له وديعة عندى عاهدنى إن تزوجت بعده رددتها إليه !». فدفع لها قتلة زوجها فقتلتهم، وبراها مما قال، وفتح لها ناووس أبيه وبعث الخدم معها، فجاءت إلى أبرويز فعانقته، ومصت فصا مسموما كان معها، فماتت من وقتها، وأبطأت على الخدم، فصاحوا فلم تتكلم، فدخلوا، فوجدوها معانقة لأبرويز ميتة.

وأم شيرويه مارية بنت قيصر ملك الروم، وكان ردىء المزاج كثير الأمراض صغير الخلق، وكانت إخوته كأنهم عوالى الرماح، قد كملوا فى الخلق والخلق والأدب ثم ندم على قتل إخوته، وجزع عليهم جزعاً شديداً.

وكان أبوه أبرويز وضع فى الخزاين برانى سم، وكتب عليها نافع مجرب للجماع. فلما تملك شيرويه وصفى له الأمر، دخل الخزينة فنظر إلى البرنية مكتوباً عليها، وكان مغرماً بالجماع، فلما ذاق منها مات فى الحال. والفرس تسميه الغشوم.

وكانت مدة ملكه ثمانية أشهر، وعمره اثنتان وعشرون سنة.

ثم ملك بعده أزدشير بن شيرويه، وكان عمره سبع سنين، وحضنه رجل يقال له بهادر حشيش، فأحسن سياسة الملك، فسار به شهريار إلى أنطاكية فقتله، وقتل بهادر حشيش معه، وكانت مدة ملكه سنة وستة أشهر.

ثم ملك بعده شهريار، وكان من مقدمى الفرس، وكانت الشام إقطاع، فاستولى على الملك ولبس اتاج، وجلس على سرير الملك، ولم يكن من أهل بيت المملكة، فوثب عليه جماعة من الحرس وهو ساير إلى الصيد، وألقوه عن فرسه وقتلوا جماعة من أصحابه، وشدوا فى رجل شهريار حبلاً، وجروه إقبالاً وإدباراً لكونه تعرض للملك، وليس من أهله.

ثم ولوا المملكة بوران بنت كسرى أبرويز، فأحسنت السيرة ودارت مع الروم وملكت سنة وأربعة أشهر، ثم هلكت.

فملك خشنشد، من بنى عم كسرى أبرويز. ولما ملك لم يهتد إلى تدبير المملكة فقتل، فكانت مدة ملكه نحوا من شهر.

ثم ملكت آزريدخت، بنت كسرى أبرويز، وأظهرت العدل والإحسان، وكان أعظم الفرس حينئذ فروخ هرمز، والى خراسان، وكانت آزريدخت من أحسن النساء صورة، فخطبها فروخ هرمز ليتزوجها، فامتنعت من ذلك، ثم أجابته بالاجتماع به فى الليل ليقضى وطره منها، فلما حضر أمرت متولى حرسها فقتله. وكان لفروخ ابن يقال له رستم، وقد ولاه على خراسان نيابة عنه حين توجه بسبب آزريدخت، فلما سمع بقتل أبيه جمع عسكراً وقصدها فقتلهاآخذاً بثأر أبيه، وكان ملكها ستة أشهر.

واختلت عظماء الفرس فيمن يولونه الملك، فلم يجدوا غير رجل من عقب أزدشير بن بابك اسمه كسرى فملكوه، ولم يلق به الملك فقتلوه بعد أيام، فلم

يجدوا من يملكونه من بيت الملك، فوجدوا رجلا يقال له فيروز يزعم أنه من نسل أنو شروان، فملكوا فيروز المذكور ووضعوا التاج على رأسه، وكان رأسه ضخماً، فقال: ما أضيق هذا التاج!. فتطير العظماء من افتتاح كلامه بالضيق، وقالوا: هذا لا يصلح للملك ! فقتلوه.

ثم ملكوا مكانه فرخ زادخسرو، من أولاد أنو شروان، ملك ثلاثة أشهر.

ثم ملك بعده يزدجرد بن شهريار الساساني، وكان مختفياً باصطخر، لما قتل أبوه مع إخوته حسبما ذكرناه آنفاً.

وكان ملك يزدجرد المذكور كالخيال بالنسبة إلى ملك آبائه، وكانت الوزراء تدبر ملكه، وضعف ملك فارس، واجترأ عليهم أعداؤهم، وغزا المسلمون بلادهم. وكان رستم الشديد الأرمني وزيره وقائد جيوشه، فقال له : «خذ من الخزاين السلاح والعساكر ماتريد، واكفني أمر العرب النازلين بلادنا!». فذهب رستم في مائتي ألف مقاتل مع خمسة آلاف أمير تدور عليهم رحاء الحرب، ونقضت دهاقنة العراق عهودهم مع المسلمين، فوصل الخبر إلى أمير المؤمنين عمر الفاروق -رضي الله عنه- فوجه العساكر المنصورة من المدينة المحمدية مستمداً من الحضرة النبوية، صلوات الله عليه وسلامه، وسعد بني أبي وقاص صاحب الجيش.

فلما اجتمع عساكر المسلمين مع عسكر رستم، رأى رستم رؤيا هالته ، وكان منجماً كاهناً، كأن يزدجرد يجمع السلاح من مماليك فارس ويعطيها النبي ﷺ، وهو يعطيه أمير المؤمنين عمر -رضي الله عنه-، وهو يقسمها بين العساكر الإسلامية، فازداد رستم غماً فجبن، وكان يكره حرب العرب.

فلما التقى الفريقان، وتزاحف الناس، اقتتلوا أياماً، فهرب رستم ورمى نفسه في نهر العصق، فاقتحم هلال بن علقمة -رضي الله عنه-، النهر فأخرجه

منه إلى البر فقتله، ثم صعد إلى السرير، وصاح : قتلت رستماً ورب الكعبة !.

وفى «المستطرف» أن عمرو بن معدى كرب الزبيدى، صاحب الصمصامة، حمل يوم القادسية على رستم، وكان رستم على فيل، فضرب عمرو الفيل فقطع عرقوبه، فسقط رستم وسقط الفيل عليه مع خرج كان فيه أربعون ألف دينار، فقتل رستم وانهزمت العجم، وقد بلغ ثمن تاجه ماية ألف دينار، فهزموهم وطردوهم، وفر يزدجرد إلى أرض الجبال، وبعث خزينه إلي الصين، ولم يجتمع شملهم، فقتل منهم ثلاثون ألفاً.

وكان قتل رستم سنة أربع عشرة من الهجرة ، وغزا المسلمون بلادهم فى خلافة عثمان -رضى الله عنه-، وقتل يزدجرد بعد ذلك بمدة، وكان عمره إلى أن قتل عشرين سنة.

وهو آخر من ملك من ملوك الفرس، وزال ملكهم بالإسلام زوالا لا يرجى له القيام، وكانت عدة ملوك الفرس من كيومرت إلى يزدجرد المذكور ثمانين ملكا منهم ثلاث نسوة، والله أعلم بغيبة وأحكم، فسبحان من لا يزول ملكه.

الفصل السابع

ملوك الهند .

ملوك الصين .

ملوك السريانيين .

ملوك بابل وهم ملوك النبط .

ملوك اليونانيين .

ملوك الروم .

ملوك القسطنطينية .

ملوك الروم بعد ظهور الإسلام .

ملوك الهند

ذكر المسعودى فى «مروج الذهب» أن الهند كانت فيها الصلاح والحكمة، فإنه تجيلت الأجيال وتحزبت الأحزاب فيها، فقال كبراؤهم : نحن أهل البدو، وفينا التناهى، وفينا هبط آدم -عليه السلام- من الجنة، ومنا سرى إلى الأرض، فالرياسة لنا، ونصبت لها ملكاً، وهو البهر الأكبر والملك الأعظم، ظهرت فى أيامه الحكمة، وتقدمت الأطباء والعلماء واستخرجوا الحديد من المعادن، وضربت فى أيامه السيوف والخناجر، وأكثر من أنواع المقاتل وسبل الهياكل، ورصعها بالجواهر المنيرة، وصور فيها الأفلاك والبروج، وكيفية العالم. فكانت مدة ملكه إلى أن هلك ثلاثماية سنة وستين سنة، وولده يعرفون بالبراهمة، والهند تعظمهم، وهم أعلا أجناسهم وأشرفهم، ولا يأكلون شيئاً من الحيوان.

ولما هلك أكبرهم، جزعت عليه الهند جزعاً شديداً، وملك ابنه الباهبود، فسار فيهم سيرة أبيه، وقدم الحكماء وزاد فى مراتبهم، فكان مدة ملكه إلى أن هلك ماية سنة.

وفى أيامه عمل النرد وأحدث اللعب بها، وجعل ذلك مثالاً للمكاسب وأنها لا تنال بالكيس ولا بالحيل فى هذه الدنيا، وأن الرزق لا يتأتى فيها بالحذق.

ثم ملك مكانه رامان، بعد الباهبود، فكان مدة ملكه ماية سنة وخمسين سنة، وله سير وأخبار وحروب مع ملوك الفرس وملوك الصين.

ثم ملك بعده فور، وهو الذى حارب الاسكندر فقتله الاسكندر مبارزة، فكان ملك فور إلى أن هلك ماية وأربعين سنة.

ثم ملك بعده دبشليم، وهو الواضع «كتاب كليلة ودمنة» الذى ترجمه ابن المقفع بلسان العربية من لسان الهند، فكانت مدة ملكه مائة سنة وعشرين سنة.

ثم ملك بعده بلهيت، ووضع فى أيامه الشطرنج، والواضع له صصه بن داهر الهندى، فقضى بلعبها على النردويين من الظفر الذى يناله الحازم، والنكبة التى تلحق الجاهل ، وكان مدة ملكه ثمانين سنة.

ثم ملك بعده كورش، فأحدث للهند آراء فى الديانات على حسب ما رأى من صلاح الوقت، وخرج من مذاهب من سلف، وعمل له كتاب فى معرفة العلل والعلاجات، وشُكلت الحشايش وصورت. وكانت مدة ملكه مائة وعشرين سنة.

ولما هلك، اختلفت الهند فى آرائها وانفرد كل رئيس بناحية، فملك على أرض السند ملك، وملك أرض الفتوح ملك، وملك على أرض قشمير ملك. وتملك مدينة المادكين، وهى الحوزة الكبرى، ملك يسمى البلهرا، وهذا أول ملك سمى بهذا الإسم، فصارت سمة لمن ولى هذه الحوزة من الملوك، والملك مقصور فى أهل بيت لا ينتقل منهم إلى غيرهم، كذلك بيت الوزارة.

ومن عادة ملوكهم وخاصتهم وعامتهم أنهم لا يرون حبس الريح فى أجوافهم، وليس هو عندهم عيباً، وأقبح ما يكون عندهم السعال والجشوة، لأن الريح واحدة فى الجوف، وإنما تختلف أسماؤها باختلاف مخارجها، فما يذهب صاعداً سمى جشاء، وما يذهب سفلى سمى فسواً، ولا فرق بينهما إلا باعتبار المخارج.

وكان أعظم ملوك الهند جلال الدين الأكبر، وغالب ملوك الهند تتوجه إليه، وله جيوش وفيلة لا يدرى كثرتها، وأكثر أهل الهند يحرقون أمواتهم، ويذرون رمادهم فى الرياح، لغرض يذكرونه فى المستقبل.

وفى الهند نهر يسمى بالكند (الكنج)، وهو نهر حاد الانصباب، سريع الجريان، بحيث يخطف البصر عليه، وتعذب أكثر أهل الهند أنفسها بالحديد، وتغرقها زهداً فى العالم، ورغبة فى النقل عنه، وذلك أنهم يقصدون موضعاً فى

أعالى هذا النهر، وهناك جبال عالية وأشجار عادية على حافة النهر، ورجال عندهم جلوس وحدايد وسيوف منصوبة على تلك الشجر وقطع من الخشب منجورة، فتأتيهم أهل الهند من الممالك النائية والبلدان القاصية، فيسمعون كلام أولئك الرجال المرتبين على هذا النهر، وما يقولون من تزهيدهم فى هذا العالم والترغيب فيما سواه، فيطحرون أنفسهم من أعالى تلك الجبال العالية على تلك الأشجار العادية والسيوف والحديد المنصوبة، فيتقطعون قطعاً، ويصيرون إلى هذا النهر أجزاء.

وما ذكرناه فمشهور عندهم، وأهل الهند تعذب نفسها بأنواع العذاب، وقد تيقنت لما ينالها من النعيم فى المستقبل، فيصير الواحد إلى باب الملك، فيستأذن فى إحراقه لنفسه فيدور فى الأسواق، وقد أججت له النار العظيمة، وعليها من قد وكل بما يقدها. ثم يسير فى الأسواق وقدامه الطبول والصنوج، وعلى بدنه أنواع من خرق الحرير قد خرقها على نفسه، وحوله أهله وقرابته، وقد سلخ جلد رأسه ووضع عليه اكليل من الريحان، وقد جعل على بدنه الكبريت والسندروس، وروايح دماغه تفوح، وهو يمضغ ورق الفلفل تجلداً، فإذا أشرف على النار، وقد صارت جمراً كالتل العظيم، أخذ الخنجر فوضعه على فؤاده فشقه، ثم أدخل يده الشمال فقبض على كبده فجذب منه قطعة وهو يتكلم، فقطعها بالخنجر ودفعها إلى بعض إخوانه متهاوناً بالموت ولذة بالنقلة، ثم هوى بنفسه فى النار.

وإذا مات ملك من ملوكهم أو قتل نفسه، أحرق خلق كثير من الناس أنفسهم لموته. وللهند أخبار كثيرة عجيبة تجزع من سماعها النفوس.

ملوك الصين

فى سالف الدهر والحين

قد تنازع الناس فى أنساب أهل الصين وبدئهم، فذهب كثير منهم أن عامور بن تنويل بن يافث بن نوح -عليه السلام- لما قسم الأرض بين أولاده، وانتشروا فى الأرض، فصاروا عدة ممالك، فمنهم : الديلم والجبل والطيلسان والبربر وفرغان وأهل جبل الفتح من أنواع الأمم، فبنوا المدن والضياع وكوروا الكور، ومصروا المدن.

وكان أول من ملك عليهم منهم نسطرصاس بن فاغور، وكان دار ملكه مدينة أنموا، وهى مدينة عظيمة، وكان مدة ملكه ثلاثمائة سنة، وفرق أهله فى تلك الديار وشقق الأنهار، وقتل السباع وغرس الأشجار، وأطعم الثمار.

فلما هلك، ملك ولده غزوان، فجعل جسد أبيه فى تمثال من الذهب جزعاً عليه وتعظيماً له، وأجلسه على سرير من الذهب مرصعاً بالياقوت والجوهر، وأقبل يسجد لأبيه، وهو فى جوف تلك الصورة هو وأهل مملكته فى طرفى النهار إجلالاً له، وعاش مائتى سنة وخمسين سنة.

فلما هلك، ملك ولد له يقال له غيزور، فجعل جسد أبيه فى تمثال من الذهب، وجعله دون مرتبته، وأجلسه على سرير من الذهب، فكان يبدأ بالسجود للأول، ثم لأبيه مع أهل مملكته، فكان مدة ملكه نحواً من مائتى سنة، ثم هلك.

فملك ولده عينان، فجعل أباه كما سبق من أفعالهم، وطال ملكه واتصلت بلاده ببلاد الترك، فعاش أربعمائة سنة، ثم هلك.

فملك ولده بويايان، فجعل جسد أبيه كما تقدم، فاستقامت له الأمور، وزعم أن الملك لا يثبت إلا بالعدل، لأن العدل ميزان الرب. وضم الناس إلى ديانة

اخترعها برأيه، وأمرهم أن يعملوا بها، فكانت مدة ملكه نحواً من مائة وخمسين سنة. وجعلوا يوم وفاته عيداً يجتمعون فيه عنده، وصوروا صورته على أبواب المدينة وعلى الدنانير والفلوس، وجعلوه فى تمثال من الذهب كما فعل بآبائه.

ولم يستقم لهم حال حتى حدث فى الملك أمر زال به النظام، وانتقضت به الأحكام، وهو أن نبغ خارجى من غير بيت الملك، يقال له يانسز، فاجتمع إليه أرباب الشرور، واستولى على الملك إلى أن استنجد ولد الملك بخاقان ملك الترك، فالتقى الفريقان واستمر الحرب نحواً من سنة حتى قتل الخارجى.

وتولى الملك ولد الملك اسمه يعفور، وهو الذى ذكره صاحب «السكردان» أنه راسل كسرى أنوشروان بكتاب مضمونه: «من يعفور -ملك الصين، صاحب قصر الدر والجوهر، الذى يجرى فى قصره نهران يسقيان العود والكافور، الذى توجد رائحته على فرسخين، والذى تخدمه بنات ألف ملك، والذى فى مربطه ألف فيل أبيض، إلى أخيه كسرى أنوشروان»، وأهدى إليه فرساً وفارساً من در منضد عينا الفرس، والفارس من ياقوت أحمر وقايم سيفه منضد بالجوهر، وثوب صينى فيه صورة الملك يتلون بألوان مختلفة فى سفط من ذهب تحمله جارية تغيب فى شعرها، تتلألأ جمالاً، وغير ذلك مما تهديه الملوك إلى أمثالها.

وفى كتاب «الفرج بعد الشدة» أن الاسكندر، لما انتهى فى مسيره إلى الصين وحاصرها، أتاه حاجبه ذات ليلة وقد مضى من الليل شطره، فقال له : «أتى رسول ملك الصين يستأذن بالدخول عليك». فقال : «ائذن له!».

فلما دخل وقف بين يديه وقبل الأرض، ثم قال: «إن رأى الملك أن يُخلي المجلس فليفعل!».

فأمر الملك من بحضرته بالإنصراف، فانصرفوا، ولم يبق إلا حاجبه، فقال له الرسول : «إن الذى جئت له لا يحتمل أن يسمعه أحد غيرك!».

فأمر الملك بتفتيشه ففتش، فلم يوجد معه شيء من السلاح، فوضع الاسكندر بين يديه سيفاً مصلتاً، وقال له : «قف مكانك، قل ماشئت!». وأمر حاجبه بالانصراف.

فلما خلى المكان، تقدم الرسول وقال له : «اعلم أنى أنا ملك الصين لا رسوله، وقد حضرت بين يديك لأسألك عما تريد منى، فإن كان مما يمكن الانقياد له، ولو على أصعب الوجوه أجبت إليه، واستغنيت أنا وإياك عن الحرب!». فقال له الاسكندر: «وما أمنك منى؟» . قال : «لعلمى بأنك رجل عاقل، وأنه ليس بيننا عداوة متقدمة، ولعلمى أنك تعلم أن أهل الصين متى قتلتنى لا يسلمون إليك ملكهم، ولم يمنعهم عدمهم إياى أن ينصبوا ملكاً من أولادى، ثم تنسب أنت إلى عين الجهل وضد الحزم!».

فأطرق الاسكندر مفكراً فى مقالته ، ثم رفع رأسه إليه، وقد تبين له صدق مقالته، وعلم أنه رجل عاقل، فقال : «أريد منك ارتفاع ملكك ثلاث سنين عاجلاً، ونصف ارتفاعه فى كل سنة». فقال ملك الصين: «هل غير هذا؟». قال : «لا!». قال : «قد أجبتك إلى ذلك!». قال الاسكندر: «قنعت منك لأجل مجيئك على السدس». فشكره وانصرف.

فلما أصبح الصباح وطلعت الشمس، أقبل جيش الصين حتى طبق الأرض كثرة، وأحاط بجيش الاسكندر حتى خافوا الهلاك، فتواثبوا إلى خيولهم، فركبوها واستعدوا . فبينما هم كذلك، إذ ظهر ملك الصين على فيل عظيم وعلى رأسه التاج.

فلما وصل إلى الاسكندر، ترجل ومشى إليه، وقبل الأرض بين يديه، فقال الاسكندر: «أغدرت؟». فقال : «لا والله !». فقال : «ما هذا الجيش؟». قال: «أردت أن أعلمك أنى لم أطعك من قلة ولا ضعف ولا ذلة، والذي غاب عنك من الجيش

أكبر مما ترى، لكنى لما رأيت العالم الأثير مقبلاً عليك، ممكنا لك ممن هو أقوى منك وأكثر عدداً، فعلمت أن من حارب الإله غُلب وقُهر، فأردت طاعته بطاعتك، والذلة لأمره بالذلة لك!». فقال له الاسكندر: «ليس ينبغى أن يؤخذ من مثلك، وما رأيت أحداً يستحق التفضيل والوصف بالعقل غيرك، وقد أعفيتك عن جميع ما أردته منك، وأنا منصرف عنك!». فقال له ملك الصين : «أما إذا فعلت فإنك لا تخسر!». ثم قدم له ملك الصين، من الهدايا والتحف، أضعاف ما أمله، ورحل الاسكندر عنه.

وفى «ابتلاء الأخبار» أن الاسكندر، لما سار فى الأرض، سمعت به ملكة الصين الأقصى، فأحضرت من أبصر صورة الاسكندر ممن يعرف التصوير، وأمرتهم أن يصوروا صورته، فصوروه فى البسط والأوانى والحيطان، وصارت تنظر إلى ذلك حتى أثبتت معرفته.

فلما قدم عليها الاسكندر ونازل بلدها، قال الاسكندر للخضر يوماً: « قد خطر لى شىء أقول لك». قال : «وما هو؟» قال: «أريد أن أدخل هذا البلد متنكراً وأنظر كيف يعمل فيها!». قال : «افعل ما بدا لك». فلما دخلها الاسكندر ونظرت إليه الملكة من حصنها فعرفته بالصورة التى عندها، فأمرت بإحضاره.

فلما مثل بين يديها أمرت به، فوضع فى مطمورة لا يعرف الليل من النهار، فبقى فيها ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب، حتى كادت قوته أن تسقط، واختبط عسكره لأجل غيبته والخضر يسكنهم ويسليهم.

فلما كان فى اليوم الرابع، مدت ملكة الصين سماطاً نحو مائة ذراع، وضعت فيه أوانى الذهب والفضة وأنواع الجواهر، وما فى ذلك شىء يؤكل، إلا أنه مال لا يعلمه إلا الله تعالى، وأمرت فوضع فى أسفل السماط صحن، فيه رغيف من خبز البر، وشربة من الماء، وبقية أوانى السماط مملوءة ذهباً وفضة.

وأمرت بإخراج الاسكندر وأجلسته على رأس السماط، فنظر إليه فأبهره ذلك، وكان يبصر الجواهر في الأواني، ولم ير فيها شيئاً مأكولاً.

ثم نظر، فرأى في أدنى السماط إناء فيه طعام، فقام من مكانه ومشى إليه وجلس عنده، فأكل.

فلما فرغ من أكله شرب من الماء قدر كفايته، ثم حمد الله تعالى، وقام فجلس مكانه أولاً، فخرجت عليه الملكة، وقالت : «يا سلطان أما صد عنك هذا الذهب والفضة والجواهر سلطان الجوع، وقد أغناك عن هذا كله ما قيمته درهم واحد، فمالك والتعرض إلي أموال الناس، وأنت بهذه المثابة؟». فقال لها الاسكندر: «لك بلادك وأموالك، ولا بأس عليك بعد اليوم!». فقالت : «أما إذا فعلت هذا، فإنك لا تخسر!». ثم قدمت له جميع ما قد كانت أحضرته، وكان شيئاً يحير الناظر ويسر الخاطر، فنزل إلى عسكره، وقبل هديتها ورحل عنها، وأنه دعى إلى الله تعالى ، فآمنت، وآمن أهلها.

---

(١) يرى ابن كثير وآخرون من العلماء أن الاسكندر الأكبر ذو القرنين المذكور في سورة الكهف غير الاسكندر بن فيلبس المقدوني .

ملوك السريانيين

ذكر أهل العناية بأخبار ملوك العالم، أن أول ملوك السريانيين بعد الطوفان، وقد توزع فيهم وفى النبط، فمن الناس من رأى أن السريانيين هم النبط، ومنهم من رأى أنهم إخوة، ومنهم من رأى غير ذلك.

وكان أول من ملك رجل منهم يقال له سوسان، وكان أول من وضع التاج على رأسه وانقادت له ملوك الأرض. وكانت مدة ملكه ست عشرة سنة باغياً فى الأرض، مفسداً للبلاد سفاكاً للدماء. ثم ملك بعد ولده بريد، وكانت مدة ملكه عشرين سنة. ثم ملك بعده سماسير سبع سنين.

ثم ملك بعده أهريموز عشر سنين، فخط الخطط وكور الكور، وجد فى أمره وأتقن ملكه وعمارة أرضه. فلما استقامت له الأمور وانقاد له الجمهور، ووقع بينه وبين ملوك الهند حروب نحواً من سنة، فقتل ملك السريانيين واحتوى ملك الهند على الصقع، وملك جميع ما فيه. فسار إليه بعض ملوك الغرب وملك العراق، ورد الملك للسريانيين، فملكوا عليهم رجلاً منهم يقال له سرا، وكان ولد الملك المقتول، فكان مدة ملكه إلى أن هلك ثمانى سنين.

ثم ملك بعده أهرايمون، وكانت مدة ملكه اثنتى عشرة سنة.

وملك بعده ابن يقال له هوريا، فزاد فى العمارة، وأحسن فى الرعية، وغرس الأشجار، فكانت مدة ملكه اثنتين وعشرين سنة.

ثم ملك بعده ماروت، واستولى على الملك، فكانت مدة ملكه خمس عشرة سنة.

ثم ملك بعده أزور وجلجاس، ويقال إنهما كانا أخوين، فأحسنا السيرة، وتعاضدا على الملك، ولم يتم لهما الأمر.

ملوك بابل وهم ملوك النبط

ذكر المسعود فى «مروج الذهب» أن ملوك بابل هم أول ملوك العالم[١]، وهم الذين شيدوا البنيان، ومدنوا المدن وكوروا الكور، وحفروا الأنهار وغرسوا الأشجار ونصبوا قوانين الحرب.

وأما الفرس الأولى إنما أخذت الملك من هؤلاء. فكان منهم نمرود الجبار، فكانت مدة ملكه نحو ثمانماية سنة، منها أربعمائة كان صحيحاً، واربعمائة كان سقيماً، وهو الذى احتفر أنهاراً بالعراق أخذها من الفرات، فيقال إن ذلك نهر كوثا من طريق الكوفة. وعاش نمرود بعد إلقاء إبراهيم – عليه السلام– فى النار اربعمائة سنة لا يزداد إلا عتواً. فبعث الله إليه ملكاً فدعاه للإسلام، فلم يؤمن، فقال نمرود للملك : «ألربك جنود؟». قال : نعم، قال : فليقاتلنى!» قال : اجمع جنودك إلى ثلاثة أيام!». فجمع جنوده وحشد، فأمر الله خزنة البعوض أن يفتحوا منها باباً، ففتحوا.

فلما كان فى اليوم الثلاث، أحاطت بهم البعوض، فأكلت منهم اللحوم، وشربت الدماء، فلم يبق من جنوده ودوابهم إلا العظام، ونمرود على حاله لم يصبه شيء، وهو ينظر، فقال له الملك : أتؤمن بالله ؟ . فقال : لا !.

فأمر الله بعوضة فدخلت منخره ، ووصلت إلى دماغه، فأكلت منه حتى صارت كفارة، فأقام أربعمائة سنة، فلا يستريح حتى يضرب رأسه بالمطارق حتى هلك.

---

(١) يرى كثير من علماء الآثار والتاريخ أن أول حضارة فى العالم هى الحضارة الفرعونية.

ملوك اليونانيين

ذكر المسعودى فى مروج الذهب أن الناس تنازعوا فى نسبهم، فذهبت طائفة أنهم ينتمون إلى الروم ويضافون إلى عيص بن إسحاق، وقالت طائفة إن يونان من ولد يافث بن نوح -عليه السلام- وذهب قوم إلى أنهم جيل متقدم فى الزمان الأول ينتمون إلى جدهم إبراهيم -عليه السلام- لأن الديار كانت مشتركة والمواطن كانت متساوية. وكان القوم قد شاركوا القوم فى السجية والمذهب، فلذلك غلط من غلط فى النسبة وجعل الأب واحداً.

وكانت اليونان من أعقل الناس وجميع العلوم العقلية مأخوذة عنهم، مثل العلوم المنطقية والطبيعية والإلهية والرياضية، وكانت خزائن ملوكهم وكتب علومهم بقبرس، فحملت إلى المأمون فأمر بنقلها إلى العربية، فهذه التى فى أيدى الناس اليوم من العلوم المذكورة منها، وكان العالم بهذه العلوم يسمى فيلسوفا، وتفسيره محب الحكمة. وكانت ملوكهم من أعظم الملوك ودولتهم من أفخر الدول، ولم يزالوا كذلك حتى غلبت عليهم الروم.

وفى كتاب أبى سعيد المغربى أن بلاد اليونان كانت على الخليج القسطنطينى من شرقيه وغربيه إلى البحر المحيط، وهذا هو الخليج الذى ينصب من بحر القلزم(1) الذى يسمى فى القديم بحر نيطس، والآن البحر الأسود إلى بحر الروم.

وذكر المسعودى أن يونان أخو قحطان، وأنه ولد عابر بن شالخ بن أرفخشذ، وأنه انفصل عن ديار أخيه فى جماعة من ولده وأهله، فخرج من أرض اليمن حتى وافى ديار العرب، فأقام هناك ونسك فى تلك الأماكن، واستعجم لسانه فزالت نسبته، وصار منسيا غير معروف.

---

(1) القلزم : البحر الأحمر.

وكان يونان جباراً عظيماً، وسيماً، جسيماً، وكان جزيل الرأى، كبير الهمة.

وذكر بطليموس فى كتابه، أن أول من اشتهر منهم بالملك فيلقوس بن مصر بن هرمس بن هروس بن منصور بن رومى بن ليط بن يونان بن يافث بن نوح -عليه السلام- ومعنى فيلقوس صاحب الفرس. وكان مقر ملكه مدينة مقدونية، وهى مدينة حكماء اليونانيين، وهى مدينة على جانوب الخليج القسطنطينى من شرقيه. وكانت مدة ملك فيلقوس سبع سنين.

فلما مات، ملك بعده ابنه الاسكندر، وقد تنازع الناس فيه، فمنهم من رأى أنه ذو القرنين صاحب الخضر-عليه السلام- وابن خالته، وهو المذكور فى القرآن، ومنهم من رأى أنهما اثنان أحدهما الاسكندر المذكور والآخر فى الفترة.

وكان ملوك اليونانيين يؤدون الطاعة، ويحملون الخراج إلي فارس، وكان خراجهم، فى كل سنة، بيضاً من ذهب، عدداً معلوماً ووزناً مفهوماً.

ملك الاسكندر :

فلما ملك الاسكندر، بعث إليه دارنيوش، ملك الفرس، يطالبه بما جرى من الرسوم ، وهودارا بن دارا، فبعث إليه الاسكندر: «إنى قد ذبحت تلك الدجاجة التى كانت تبيض هذا البيض وأكلتها». فكانت من حروبهم مادعا الاسكندر إلى الخروج إلى أرض الشام وقتل دارا، كما مر.

وسار الاسكندر، بعدما ملك بلاد فارس، واحتوى على ملوكها وتزوج بابنة ملكها، متوجها نحو السند والهند فوطىء ملوكها، فذلت له جميع الملوك، وحملت إليه الهدايا. وكان معلمه ارستطاليس حكيم اليونانيين.

ولما اجتمع مع الفيلسوف فى الهند، أمر له عند الوداع بجوائز كثيرة، فلم يقبل، فسأله عن عدم قبوله الهدية، فقال له الفيلسوف :« لو أحببت المال ما أردت العلم، فلست أدخل على علمى ما يضاده وينافيه، واعلم أيها الملك أن العطية توجب الخدمة، وليس بحر عاقل من خدم غير ذاته، والذى يصلح النفس الناطقة العلم وهو صقالها، وغذاؤها، وتناول اللذات الحيوانية وغيرها من الموجودات ضر لها، والحكمة سبيل إلى العلم وسلم اليه، ومن عدم ذلك، عدم القربة من باريه!. وللاسكندر مع هذا الفيلسوف مناظرات كثيرة من أنواع العلوم.

وفاة الاسكندر :

ولما توفى الاسكندر، عرض الملك علىٰ ابنه، فأبى واختار النسك، فانقسمت ممالك الاسكندر بين ملوك الطوايف وبين ملوك اليونان. وملك مصر والشام والمغرب البطالسة، وهم ملوك اليونان، وكان يسمى كل واحد منهم بطليموس، وهى لفظة مشتقة من الحرب، معناها أسد الحرب. وكان عدة البطالسة الذين ملكوا بعد الاسكندر ثلاثة عشر ملكاً.

وأول البطالسة بطليموس شيسوس بن لاغوس، كان يلقب بالمنطقى، وملك عشرين سنة.

ثم ملك بعده بطليموس الثانى واسمه قليودقوس، ومعناه محب أخيه، وهو الذى نقلت له التوراة من العبرانية إلى اليونانية، وهو الذى عتق اليهود الذين وجدهم أسرى، لما ملك. وكانت مدة ملكه ثمانياً وثلاثين سنة.

ثم ملك بعده بطليموس الثالث، واسمه أوراخيطين، ملك خمساً وعشرين سنة، وكان ملك الشام يومئذ أبطيحش. وهو الذى بنى مدينة أنطاكية، وكانت دار ملكه، وجعل بناء سورها أحد عجائب العالم فى البناء على السهل والجبل، ومسافة السور اثنا عشر ميلاً، وجعل عدد الأبراج فيها ماية وستة وثلاثين برجاً،

وجعل عدد شرافاتها أربعا وعشرين ألف شرافة، وجعل كل برج من الأبراج يسكنه بطريق من البطارقة برجاله وخيله.

ثم ملك بعده بطليموس الرابع، واسمه قيلوبطور، ومعناه محب أبيه، وملك سبع عشرة سنة.

ثم ملك بعده بطليموس الخامس واسمه فيقوس، وملك أربعا وعشرين سنة، وهو صاحب علم الفلك والنجوم، وكتاب المجسطى. وكان نقش خاتمه : من صان لسانه كثرت إخوته. وكان حسن النطق كثير التزهد والصيام، نظيف الثياب. مات وعمره سبع وستون سنة.

ثم ملك بعده بطليموس السادس ، واسمه فيلونيطور، ومعناه محب أمه، وملك خمساً وثلاثين سنة.

ثم ملك بعده بطليموس السابع، واسمه أوراخيطس، ملك تسعاً وعشرين سنة.

ثم ملك بعده بطليموس الثامن، واسمه سوطيرا ملك ست عشرة سنة.

ثم ملك بعده بطليموس التاسع، واسمه سيدريدس، ملك تسع سنين.

ثم ملك بعده بطليموس العاشر، واسمه اسكندروس ثلاث سنين، ويقال لهذا بطليموس الحديث.

ثم ملك بعده بطليموس الحادى عشر، واسمه فيلوقوس، ثمانى سنين.

ثم ملك بعده بطليموس الثانى عشر، واسمه ديوسيوس، تسعا وعشرين سنة.

ثم ملكت ابنته قلنطرة، وهى الثالثة عشرة من ملوك اليونان، وهى آخرهم، فملكت اثنتين وعشرين سنة.

وكانت حكيمة متفلسفة مقربة للعلماء معظمة للحكماء. ولها كتب مصنفة فى الطب والرقية.

وكان لها زوج يقال له أفطونيوس (انطونيوس) مشاركا لها فى ملك مصر، فلما أراد الله ذهاب ملك اليونان، سلط عليهم ملوك الروم. وقلنطرة(كليوباترا) المذكورة، هى آخر ملوك اليونانيين إلى أن انقضى ملكهم، ودرست رسومهم، وزالت علومهم، إلا ما بقى فى أيدى الناس.

وكان لهذه الملكة خبر عجيب فى موتها وقتلها لنفسها أعرضنا عن ذكره.

واتفق أهل المعرفة بأخبارهم أن جميع عدد ملوك اليونانيين أربعة عشر ملكاً، وأن عدد جميع سنى ملكهم ومدة أيامهم وامتداد سلطانهم ثلاثماية سنة وسنة واحدة، والله أعلم بغيبه وأحكم.

ملوك الروم وهم بنو الأصفر

وكل ملك منهم يسمى قيصر

تنازع الناس فى الروم ولأية علة سموا بهذا الاسم. قال المسعودى فى «مروج الذهب» سموا رومًا لإضافتهم إلى مدينة رومية، واسمها روماس بالرومية، فعرب هذا الإسم ، فسمى من كان بها رومًا.

وفى «كتاب البيان فى تاريخ سنى الزمان» أن الروم ينسبون لروم بن عيص بن إسحاق -عليه السلام- وكان أول ظهورهم سنة ست وسبعين وثلاثماية من وفاة موسى -عليه السلام-.

وذكر أبو سعيد المغربى فى كتابه أن الروم يعرفون ببنى الأصفر، وكانوا يدينون بدين الصابئة، ويعبدون أصناماً على أعداد أسماء الكواكب السبعة، وقد ملك رومية عدة ملوك، منهم من لم يشهر، ولا وقعت إلينا أخبارهم.

وكان أول من اشتهر من ملوكهم، وملك الروم بعد اليونانيين برومية توليس، سبع سنين ونصفاً، وقد كانت مدينة رومية بنيت قبل الروم بأربعمائة سنة.

ثم ملك بعده أغسطس قيصر ستاً وخمسين سنة، وهذا الملك أول من سمى من ملوك الروم قيصر، وهو الثانى من ملوكهم، وتفسير قيصر فتق عنه، وذلك أن أمه ماتت وهى حاملة به، فشق بطنها عنه، فكان هذا الملك يفتخر فى وقته أن النساء لم تلدنى، وكذلك يفتخرون من كان من ولده.

واحتوى هذا الملك على خزاين ملوك الاسكندرية ومقدونية ونقلها إلى رومية.

وخرج أغسطس المذكور، فى السنة الثانية عشرة من ملكه، من رومية

بعساكر عظيمة فى البر والبحر، وسار إلى الديار المصرية، واستولى على ملك اليونان، وكانت قلنطرة هى ملكة اليونان، وكان مقامها فى الاسكندرية.

ولما ملك أغسطس ديار مصر والشام، دخلت بنو إسرائيل تحت طاعته، كما كانوا طاعة، البطالسة، فولى بيت المقدس لهردوس اليهودى.

وفى أيام أغسطس المذكور، ولد المسيح -عليه السلام-.

وكانت مدة ملكه ثلاثاً وأربعين سنة.

ثم ملك بعده طيباريوس اثنتين وعشرين سنة، وهو الذى بنى طبرية بالشام، ولهذا اشتق اسمها من اسمه.

ثم ملك بعده غاليوس أربع سنين، ولمضى السنة الأولى من ملكه رفع المسيح - عليه السلام-.

ولما هلك هذا الملك اختلفت الروم، فأقاموا علي اختلاف الكلمة والتنازع في الملك مايتى سنة وثمان وتسعين سنة، لا نظام لهم ولا ملك يجمعهم.

فلما انقضت المدة المذكورة ملكوا عليهم طيارميس.

ثم ملك بعده قلوزنوس أربع عشرة سنة، وهو الذى قتل فى آخر ملكه بطرس وبولس برومية، وصلبهما منكوسين، وهما المذكوران فى سورة يس.

ثم ملك بعده ساسيانوس عشر سنين.

ثم ملك بعده طيطوس سبع سنين، وهو الذى غزا اليهود وأسرهم وباعهم، وأخرب بيت المقدس، وأحرق الهيكل.

ثم ملك بعده دومطينوس خمس عشرة سنة، وتتبع النصارى واليهود وأمر بقتلهم. وكان دينه ودين غيره من الروم عبادة الأصنام.

ثم ملك بعده نارواس سنة واحدة.

ثم ملك بعده أزريانوس احدى وعشرين سنة. ففى أول سنة من ملكه أطلق للناس الخراج والأتاوى الديوانية، وقضى دينهم.

وفى زمانهم اشتهر جالينوس فى الطب، ووضع كتبا كثيرة نحو ماية كتاب، وكان شيخه فى الطب طبيباً اسمه إليانوس. وكانت وفاة جالينوس بجزيرة صقلية، وقد بلغ من العمر ثمانياً وثمانين سنة، وتجذم بعد أن مضى من ملكه ثمانى عشرة سنة، فسار إلى مصر يطلب الشفاء فلم يجده ومات.

ثم ملك بعده أنطرنيسوس ثلاثاً وعشرين سنة. وكان أخذ أرصاد بطليموس، صاحب المجسطى ، فى السنة الثالثة من ملكه.

ثم ملك بعده برقوس تسع عشرة سنة.

ثم ملك بعده تومودوس ثلاث عشرة

سنة. وفى آخر أيامه خنق نفسه، وقيل كان جالينوس فى زمانه.

ثم ملك بعده توطخوس ستة أشهر، وقتل غيلة فى مجلسه.

ثم ملك بعده سوريانوس، ثمانى عشرة سنة.

فلما هلك ملك بعده أنطونياوس سبع سنين، وقتل بين حران والرها .

ثم ملك بعده مقارنوس سنة واحدة. وفى زمانه وقع حريق عظيم برومية، ووثب عليه غلمانه فقتلوه.

ثم ملك بعده أنطونياوس الثانى أربع سنين.

ثم ملك بعده الاسكندروس ثلاث عشرة سنة.

ثم ملك بعده مكسلميلوس ثلاث سنين، وشدد فى قتل النصارى.

ثم ملك بعده غورديانوس ست سنين، وقتل فى حدود فارس.

ثم ملك بعده فيلبوس سبع سنين، وأحسن إلى النصارى، وأدام الاجتماع بهم.

فلما هلك، ملك بعده دقيانوس[1] سنة واحدة، فأعاد عبادة الأصنام ودين الصابئين، ومنه هرب الفتية، وكانوا سبعة[2]، وهم من أشراف الروم، مؤمنون، وقصتهم مشهورة، وفى الكتب مسطورة.

ثم ملك بعده غالينوس ثلاث سنين.

ثم ملك بعده غليتوس وولده يانوس ملكا بالاشتراك. ثم إن يانوس انفرد بالملك بعد سنتين، ثم غزاه سابور بن أزدشير، فانتصر عليه وأسره فى المعركة، وأرسله إلى بابل وسجنه هناك.

ثم ملك مكانه ابنه غالينوس الثانى ست سنين.

ثم ملك بعده قاوديوس سنة واحدة. وفى أول اسنة من ملكه ظهر فى السماء إكليل من نار.

ثم ملك بعده أزرقاس، وقيل أودليانوس، ملك ست سنين، ومات بصاعقة أصابته.

ثم ملك بعده طيطينوس ستة أشهر.

ثم ملك بعده قيلورياس شهرين، وقتل بمدينة طرسوس.

ثم ملك بعده قرونوس سبع سنين، ثم هلك فى الحرب بمدينة سرخس.

وملك بعده قاروس مع شريك له، ملك سنتين ومات، وقتل شريكه فى بعض الحروب.

---

(١) ويسمى أيضا دقلديانوس .

(٢) المذكورين فى سورة الكهف باسم أصحاب الكهف والرنيم.

وملك بعده قلطيانوس احدى وعشرين سنة.

وفى السنة التاسعة، أمر بهدم كنايس النصارى فهدمت كلها، وأحرق كتبهم وقتل منهم خلقاً كثيراً.

وفى هذه السنة، وقع غلاء عظيم لم يسمع بمثله، حتى بلغ غرارة الشامى من الحنطة ألفين وخمسماية درهم، ثم إنه اعتزل من الملك إلى أن مات.

وذكر «صاحب المختصر فى أخبار البشر» أن قلطيانوس المذكور آخر من عبد الأصنام من ملوك الروم، فإنهم تنصروا بعده.

وفى بعض الكتب المعتبرة أن ملك الروم انتهى إلى رجلين منهم على سبيل الاشتراك، وكان أحدهما يسمى مقسيمانوس، والآخر يسمى زرفلطيانوس، وكان تخت ملكهما بروميه الكبرى، وكان للأول بنت اسمها مالرويه زوجها لرجل اسمه مقسلميوس، وللثانى بنت اسمها والريه زوجها لرجل اسمه قسطينة من نسل الملك قلابور. ثم إن مقسمانوس وزرفلطيانوس تركا الملك وأعطى كل منهما حصته من ذلك، فكان للأول ولاية أناطولى وما والاها، وللثانى فى بلاد الروم وما وراءها من الممالك الرومية وإفريقية، وهو الذى بنى قسطينة بالغرب، وسماها باسمه. وكان لمقسيمانوس ابن اسمه مقنديوس، فسلطنوه فى مدينة رومية، وتغلب عليها وعلى ما يقربها من ناحية موليا وغربها. ثم إن قسطينة حكم احدى عشرة سنة وتوفى، فقام بالملك بعده ابنه قسطنطين.

وذكر المسعودى أن عدة ملوك الروم، الذين ملكوا مدينة رومية، تسعة وأربعون ملكاً، وجميع عدد سنيهم أربعماية وسبع وثمانون سنة وتسعة أشهر وستة أيام. واختلف أصحاب التاريخ فى أسماء ملوكهم لأنها بالرومية. ولهذه الملوك سير وأخبار هى موجودة فى كتب النصارى الملكية.

ملوك القسطنطينية الكبرى

والمدينة العظمى

وكان أول من انتقل من ملوك الروم عن مدينة رومية إلى بوزنطا (بيزنطة)، وهى القسطنطينية، فبناها وسماها باسمه قسطنطين بن قسطينة. وهو أول من تنصر من ملوك الروم، ثم تبعه من تبعه على الخصوص والعموم، وكانوا على دين الصابئة يعبدون أصناماً على أسماء الكواكب السبعة.

وفى احدى عشرة سنة خلت من ملكه، خرجت أمه هيلانة إلى أرض الشام، فبنت الكنايس وصارت إلى بيت المقدس، وطلبت الخشبة التى صلب عليها المسيح عندهم، فحلتها بالذهب والفضة، واتخذت وجوده عيداً وهو عيد الصليب.

ثم إنه أشير لقسطنطين فى المنام أن يعمر حصناً فى غاية الحصانة والإحكام، فشاور أكابر خواصه، فوقع اختيارهم على موضع يقابل استنبول ويسمى بقاضى كوبى.

يروى أنهم لما شرعوا فى البناء فى هذا المكان المذكور، جاءت حيوانات على صور شتى كالطيور والوحوش وما شكالها، وجعلت تخطف آلات البنائين ومكاتل الفلعة ومعاول الحفارين، ودخلوا بها فى البحر.

فاجتازوا إلى جهة الغربية من البحر ليكشفوا أمر تلك الحيوانات، فرأوا مكان قسطنطينية الآن، وهى فى غاية اللطافة، وكان إذ ذاك جزيرة خالية مثلثة الشكل، معروفة عند الأمم القديمة هفت جبل، لسبعة جبال كانت بها.

وروى فى بعض الأخبار أن سليمان -عليه السلام- لما غزا كفار البحر، وكان مقر سلطنتهم مدية دشقار، اجتاز فى بعض الأيام متصيداً، فرأى مكان

قسطنطينية، وقد أحاط به البحر، وكان ذلك وقت الربيع، وظهور أنواع النبت. فأمر ببناء عريش لطيف لأجل الاستظلال بين المشرق والشمال، وهو موضع دار السعادة العامرة، فاستطاب ذلك المنزل، وكان يتصيد ويعود إليه ليلا. وكان وزيره أصف اختار مكان أيا صوفيا مع توابعه، وباقى العسكر فى المكان المعروف الآن بآت ميدانى.

وذكر فى «تاريخ البلدان» أن عيسى -عليه السلام- دخل قسطنطينية فى سياحته ودعا لها بالبركة، ولدخوله أخبار يطول شرحها.

وأول ما شرعوا فى عمارة الغلطة، فهى على هذا أقدم من مدينة قسطنطينية، ويقال إن البحر من الجهة الغربية كان متصلا من عند قبر أبى أيوب الأنصارى -رضى الله عنه-، إلى المرساة الجنوبية. وكان موضع البلد جزيرة مستقلة تدور المراكب حولها، فاستصوب بعض الملوك ردم الجانب الغربى ليسهل إليها السلوك، فردم.

وقيل كان دار ملكهم إذ ذاك بالمكان المعروف الآن ببيدى قلة، وهى أول ما بنى من المدينة، ويقال إن هذه البلدة عمرت ثلاث مرات قبل هذه، وهى الرابعة. فى المدة الأولى خربت بالزلزلة أولا وآخراً، ولم يسلم من أهلها إلا من كان خارجاً عنها، وبقيت زماناً طويلاً وموضعها موحش.

ثم إنهم عمروها ثانياً بالاستحكام وجعلوا لها أقبية تحت الأرض خوفاً من الزلزلة، وبعضها باق إلى هذه الأيام، ثم حدث بها وباء عظيم فى عام لم يفلت منه إلا القليل.

ثم إن بعض الملوك حشد الناس إليها من الأطراف، ورفع عنهم الخراج وعاملهم بالعدل والانصاف، فعمرت ثالثاً.

واجتمع فيها طوايف كثيرة من الناس واشتهرت، ثم ظهر بها نوع من

الحيات والثعابين، فأهلكت أكثر الناس والمواشى، وهرب من سلم من الباقين، وبقيت خالية برهة من الدهر، لا يأتيها أحد من البر ولا من البحر.

ثم إن بعض السلاطين وهو يانقو بن مازيان، أحد أجداد قسطنطين، اصطنع طلسماً لدفع تلك الآفات، ولعله الموجود الآن من النحاس على شكل ثلاث حيات بالمكان المعروف بآت ميدانى، فارتفعت بعون الله تعالى، وما بقى منها صار ضعيفاً كالدود بلا ضرر، وهو الذى ابتدأ عمارة أيا صوفيا فى المرة الثالثة.

ولما شرع فى البناء، أرسل إلى ملوك الأطراف يجمع ما يحتاج إليه البناء وطلب العواميد. وكان بحران، وهى قرية من أعمال دمشق، كنيسة عظيمة القدر جليلة الشأن، كان يتعبد فيها إبراهيم الخليل -عليه السلام- فيما قيل، فهدموها وأرسلوا منها عشرة أعمدة من السماقى. قيل إن مقطعه بجبل سونديب وانقطع من الأرض بعد الطوفان، لأن الحجارة كانت كالطين قبله، فقطع ما قطع منها ثم يبست وازدادت صلابة وبقية الأعمدة جئ بها من رومية وبلاد الحبشة.

فلما كملت سقط نحو ثلثها، وكان سقوطها ليلة ولادة النبى ﷺ، وذلك من جهة المحراب.

وكان الفراغ من بنائها، على ما ذكر من تواريخ الروم، فى اليوم الحادى عشر من شهر مايس الرومى، وهو أيار (مارس)، لمضى خمسة آلاف وثمانماية من هبوط آدم – عليه السلام – إلى الأرض.

ثم بنى قسطنطين بعده مدينة بعلبك، وكان أهلها كفاراً يتشاركون فى النساء، ولم يخلص لأحد منهم نسب، وبنى بأنطاكية هيكلاً.

فلنرجع الآن إلى ما كنا بصدده من البيان عن بيان أخبار ملوك الروم. ولما مات قسطنطين انقسمت مملكته بين بنيه الثلاثة، وكان الحاكم عليهم

قسطس، وهو ابن الملك الماضى، فكان ملكه أربعاً وعشرين سنة، وبنى كنايس كثيرة، وشيد دين النصرانية، ثم خرج الملك عن أولاد قسطنطين.

ثم ملك بعده ابن عمه اليانس، فرفض دين النصرانية، ورجع إلي عبادة الأوثان، وغزا العراق فى ملك سابور بن أزدشير بن بابك فى جنود لا تحصى، فقهره، ثم قتل فى أرض فارس بسهم أصابه من سهام العرب. فكان ملكه إلى أن هلك سنتين.

ثم ملك بعده يونيالوس فشيد دين النصرانية، وردها إلى ما كانت عليه ومنع من عبادة الأوثان والتماثيل، فكان ملكه سنة واحدة.

ثم ملك بعده أواليس، وكان على دين النصرانية ثم رجع عنها، وهلك فى بعض حروبه. وكان ملكه إلى أن هلك أربع عشرة سنة.

وقيل إن فى أيامه استيقظ أصحاب الكهف من رقدتهم، حسب ما أخبر الله عز وجل عنهم، أنهم بعثوا أحدهم بورقهم إلى المدينة، وهى مدينة أفسوس من أرض الروم، وللناس، ممن عنى بعلم الفلك وازورار الشمس عن كهفهم، في حال طلوعها وغروبها، لموضعهم من الشمال، كلام كثير.

ثم ملك بعده أونبانوس ثلاث سنين.

ثم ملك بعده خرطيانوس ثلاث سنين أيضاً.

ثم ملك بعده تاونوسيوس تسعاً وأربعين سنة.

ثم ملك بعده أرقاديوس بقسطنطينية، وشريكه أونوريوس برومية، ثلاث عشرة سنة.

ثم ملك بعدما تاونوسبوس الثانى عشرين سنة وفى أيامه غزا فارس الروم.

ثم ملك بعده مرقيانوس سبع سنين، وهو الذى بنى دير مر بحمص.

ثم ملك بعده والبنطيس سنة واحدة.

ثم ملك بعده لاون الكبير سبع عشرة سنة. وفى أيامه كثر الخسف فى أنطاكية بالزلازل.

ثم ملك بعده أليون، ثمانى عشرة سنة.

ثم ملك بعده استطينوس سبعاً وعشرين سنة، وهو الذى بنى أسوار مدينة حماه، وفرغ من عمارتها فى سنتين.

وفى زمانه أصاب الناس جوع شديد من الجراد.

ثم ملك بعده تونسطينوس تسع سنين.

ثم ملك بعده تونسطينوس الثانى ثمانياً وثلاثين سنة، وكثرت الحروب فى أيامه بين الفرس والروم.

ثم ملك بعده مورنفيس عشرين سنة، وهو الذى نصر كسرى أربويز على بهرام، وأحرق مدينة أفامية. ثم ملك بعده طبريوس ثلاث سنين. ثم ملك بعده ماريقوس ثمانى سنين. ثم ملك بعده برقوس اثنتى عشرة سنة. ثم ملك بعده قوقاس ثمانى سنين.

ثم ملك بعده هرقل، واسمه بالرومى أرقليس، وكانت الهجرة النبوية فى السنة الثالثة عشرة من ملكه.

وكانت مدة ملكه خمس عشرة سنة، وهو الذى ضرب الدنانير والدراهم الهرقلية، وكان مقر سلطنته فى مدينة أنطاكية.

ملوك الروم

بعد ظهور الإسلام

وقد وقع التنازع فى مولد النبى ﷺ فى عصر من كان من ملوك الروم، فالذى ذكره أصحاب الزيجات فى كتبهم، ومن اعتنى بتاريخ ملوك الروم ممن سلف وخلف، أن ملك الروم كان فى وقت ظهور الإسلام، وأيام أبى بكر وعمر -رضى الله عنهما- هرقل.

وفى كتب السير أن رسول الله ﷺ لما هاجر كان الملك قيصر بن نون، ويؤيد ذلك ما ذكره الشيخ الأكبر فى مسامرته، بسند متصل إلى محمد بن كعب القرظى، قال : بعث رسول الله ﷺ دحية الكلبى إلى قيصر وكتب معه إليه كتاباً يدعوه إلى الإسلام، فلقيه دحية بحمص وقيصر ماش من قسطنطينية.

فلما لقيه أعطاه الكتاب ففتحه، فإذا فيه : «بسم الله الرحمن الرحيم» من محمد رسول الله إلى قيصر صاحب الروم. السلام على من اتبع الهدى، أما بعد.

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) ﴾ [آل عمران]

وفيه آيات من كتاب الله يدعوه إلى الله تعالى، ويزهده فى ملكه، ويرغبه فى الآخرة، ويحذره بطش الله وبأسه '

فقرأ قيصر الكتاب، فقال . «يامعشر الروم، إنى لأظن أن هذا هو الذى بشر به عيسى بن مريم -عليه السلام-. لو أعلم أنه هو لمشيت إليه حتى أخدمه

بنفسى. لا يسقط ماء وضوئه إلا على يدى!». قالوا: « ما كان الله ليجعل ذلك فى الأعراب الأميين، ويدعنا ونحن أهل الكتاب!».

فأرسل يبتغى قوماً من أهل الحجاز يسألهم، فوجدوا قوماً كثيراً بالشام. فأحضر بين يديه أبو سفيان وأصحابه كلهم لله ولرسوله عدو، فقال : «اخبرنى يا أبا سفيان عن حال هذا الرجل الذى بعث فيكم!». قال : «أيها الملك، لا يكبر عليك شأنه، إنا نقول هو ساحر، ونقول هو شاعر، ونقول هو كاهن!» قال قيصر: «كذلك والذى نفسى بيده، كان يقال للأنبياء قبله!».

فما زال يسألهم، وهو يجيبونه حتى قال لهم : «ما تزيدوننى عليه إلا بصيرة، والذى نفسى بيده، ليوشكن أن يغلب على ما تحت قدمى!».

قال: يا معشر الروم، هلم إلى أن نجيب هذا الرجل إلى ما دعا إليه، ونسأله الشام أن لا يطأها!».

قالوا : «كيف تسأله ملكك الذى تحت رجليك، وهو هناك لا يملك من ذلك شيئاً، فمن أضعف منك ؟».

فقال : «يامعشر الروم، أليس تعلمون أن بين عيسى وبين الساعة نبياً بشركم به عيسى - عليه السلام-، كنتم ترجون أن يجعله الله منكم، فجعله فى غيركم، وهى رحمه الله يضعها حيث شاء ».

فلما رأى ممانعتهم وإباءهم، خاف على ذهاب ملكه منهم، وصمت عنهم، ثم قال : « يامعشر الروم، دعاكم ملككم لينظر كيف صلابتكم فى دينكم»، فدعوا له وخروا له سجدا.

رجعنا إلى ما نحن بصدده، فلما هلك قيصر، ملك بعده ابنه قيصر، وذلك فى أيام أبى بكر الصديق - رضى الله عنه -.

ثم ملك بعده هرقل بن قيصر فى خلافة عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- وهو الذى حاربه أمراء الإسلام حين فتحوا بلاد الشام، مثل أبى عبيدة وخالد بن الوليد وغيرهم حتى أخرجوهم.

وكان الملك على الروم مورق بن هرقل، فى خلافة عثمان بن عفان -رضى الله عنه- وفى خلافة على بن أبى طالب -رضى الله عنه- وأيام معاوية بن أبى سفيان.

ثم ملك بعده قليط بن مورق بقية أيام معاوية -رضى الله عنه- واستمر أيام يزيد بن معاوية ، وأيام معاوية بن يزيد، وأيام مروان بن الحكم، ومدداً من أيام عبد الملك بن مروان.

ثم ملك أليون فى بقية أيام عبد الملك، وأيام الوليد بن عبد الملك، وأيام سليمان بن عبد الملك، وخلافة عمر بن عبد العزيز.

وكان اضطراب أليون المذكور من أمر مسلمة بن عبد الملك، وغزو المسلمين إياهم براً وبحراً، وقصته على ما ذكره الشيخ محيى الدين، فى «مسامرة الأخيار» أن عبد الملك بن مروان، لما جهز ابنه مسلمة إلى القسطنطينية، لغزو عدو الله أليون كلب الروم، انتخب من المسلمين ثمانين ألف رجل، من أهل البأس والنجدة وأمره عليهم.

فتوجهوا نحو بلاد الروم وهم يغزون الكفار فى طريقهم، ويقسمون الغنايم حتى وصلوا إلى شاطىء بحر القسطنطينية، وهو بحر نيطس، فأقاموا هناك ثمانية أشهر، حتى هيأوا لهم سفناً فركبوا فيها، فقاتلهم أهل المدينة فى البحر ثلاثة أيام حتى وصلوا إلى الجزيرة التى فيها القسطنطينية، فأقام مسلمة بتلك الجزيرة، وبعث إلى أهل عمله من بلاد الروم التى افتتحها فى طريقه، وأمرهم أن يبنوا له مدينة فرسخين فى فرسخين، فأقاموا فيها، وصارت بلاد الروم كلها فى

يد مسلمة ما بين الشام إلى جزيرة القسطنطينية، وجُبى إليه الخراج. وأقاموا يحاصرونها سبع سنين، وسمى المدينة التى بناها مدينة القهر، لأنه قهرهم عليها. وهى مدينة غلظة، ولقد غرسوا فيها أنواع الفواكه فأثمر، فأقاموا إقامة قوم لا يرجعون إلى بلادهم، وكانوا مع هذا يغزونهم كل يوم. وكان البطال معه يقتل من الكفار ما بين الخمسين إلى المائة، حتى قتل منهم فى تلك الأيام نحو ستماية رجل.

فلما اشتد الحصار بهم، كتب ملك الروم إلى مسلمة يطلب منه الصلح، وأن يعطيه كل سنة عشرة آلاف أوقية فضة، وستة آلاف أوقية ذهباً، وخمسة آلاف رمكة. فلم يرض مسلمة، واستمروا واقفين على باب المدينة سبعة أيام، لا يفتر أحد منهم، ولا يرجع إلى مدينتهم، وهم يومئذ ستون ألف مقاتل.

فلما نظر أليون إلى ذلك، هاله، فقال لمسلمة : «ما الذى تريد ؟». فقال له مسلمة : «عزمت أن لا أرجع حتى أدخل مدينتك!». قال له أليون : «ادخل وحدك، ولك الأمان!». فقال له مسلمة : « نعم، على أن آمر البطال وأصحابه يقفون على باب المدينة ولا يغلقون الباب!». فقالوا له: « لك ذلك!».

ففتح الباب، ولم يفتح قبل ذلك سبع سنين إلا للقتال، فوقف البطال داخل عتبة الباب ثابتاً لا يزول ولا يتحرك.

قال مسلمة : «إنى داخل فانتظرونى على الباب، فإن صليتم العصر ولم أخرج فاقحموا بخيلكم على المدينة، فاقتلوا من أصبتم، والأمير بعدى محمد بن مروان!».

فركب على فرسه الأشهب، وعليه ثياب بيض وعمامة، متقلداً بسيفين وبيده الرمح، فصف له ملك الروم عسكره بالخيل يميناً وشمالاً من باب أدرنة إلى باب أيا صوفيا، وهى كنيستهم العظمى، كلما مر بقوم ساروا خلفه، وقد رمقوه بأبصارهم وهم متعجبون من شجاعته وشدة جرأته.

فلم يزل يتقدم حتى وصل إلى بال الكنيسة، فخرج إليه ملك الروم أليون وقبل يده، ودخل الكنيسة وهو راكب على فرسه، فجزعت الروم من ذلك جزعاً شديداً.

فلما دخل الكنيسة نظر إلى صليبهم الأعظم، وهو موضوع على كرسى من ذهب، وعيناه ياقوتتان حمراوتان، وأنفه زبرجدة خضراء، فلما نظر مسلمة إلى الصليب أخذه، فوضعه على قربوس سرجه، فقال الرهبان لأليون : «لا تدعه !»، فقال له أليون «إن الروم لا ترضى بهذا!!»، فحلف أن لا يخرج حتى يأخذه معه. فقال أليون للروم : «دعوه يخرج به، ولكن علىّ مثله، وإلا دخل عليكم البطال إن استبطأه». فأخذه وخرج وهو راكب، وأليون ماش فى خدمته. فخرج والصليب على رأس رمحه بعد العصر.

وكان القوم قد هموا بالدخول، فلما نظروا إليه كبروا تكبيرة واحدة كادت الأرض تمور بهم، وسروا بخروج مسلمة سروراً عظيماً. فأرسل أليون له المال الذى عهد به، ومعه تاج مرصع، فباعوا التاج من بعض بطارقة الروم بماية ألف دينار، ثم عرض الناس فكانوا يومئذ أربعة وأربعين ألف رجل، قد أصابهم الجهد، فقسم المال بينهم، ثم قام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم صلى على النبى ﷺ، ثم قال : «أيها الناس، إنى فى غمرات الموت منذ سبع سنين، لم أحب أخبركم، وكرهت أن أفشلكم عن قتال عدوكم، وقد توفى خليفتكم عبد الملك، وولى ابنه الوليد فمات، وقد ولى أخوه سليمان بن عبد الملك فبايعوا له !».

فاقاموا بعد ذلك ثلاثة أشهر بالجزيرة حتى أصلحوا سفنهم، ثم أمر أبا محمد البطال أن يحمل المسلمين فى السفن، فلم يزل ذلك دأبه حتى عدى الناس كلهم، وبقى مسلمة فى الجزيرة مع ماية فارس، فمضى إلى باب القسطنطينية، فخرج إليه أليون فسلم عليه، فلم يصافحه مسلمة، فقبل أليون رجله وودعه، فعبر السفينة هو والماية فارس، ولم يتخلف بالجزيرة منهم أحد، وتوجهوا نحو بلادهم.

ففى أثناء الطريق أتاه كتاب عمر بن عبد العزيز بموت سليمان بن عبد الملك وبخلافته، وأن يقدم بمن معه جميعاً، فقدموا دمشق فى ثلاثين ألفاً

رجعنا إلى ما نحن بصدده، ثم اضطرب ملك الروم بعد أليون، فملكوا عليهم رجلا من أهل بيت الملك من أهل مرعش يقال له جرجبن، وكان ملكه تسع عشرة سنة

ثم ملك بعده قسطنطين بن أليون، وذلك فى خلافة السفاح وأبى جعفر المنصور

ثم ملك بعده أليون بن قسطنطين، وكانت أمه أرش شريكة معه فى الملك لصغر سنه إلى أيام هارون الرشيد، فمات وسلمت عينا أمه أرش بعد ذلك لأخبار يطول شرحها

ثم ملك على الروم بعده بعفور بن استبراق، وكانت بينه وبين الرشيد مراسلات، فأعطى القود من نفسه، ثم غدر ونقض ما كان أعطاه من الانقياد، فغزاه الرشيد، فنزل على هرقلة، وذلك فى سنة تسعين ومائة

وللرشيد فى محاصرة حصن هرقلة، ومراسلات يعفور المذكور، أخبار كثيرة

ثم ملك بعد يعفور ولده استبراق، فى أيام محمد الأمين، فلم يزل ملكا حتى غلب على الملك قسطنطين بن فلقط، وكان فى خلافة المأمون

ثم ملك بعده نوقيل، وذلك فى خلافة المعتصم، وغزاه فى فتح عمورية، كما مر

ثم ملك بعده ميخاييل بن نوقيل، وذلك فى خلافة الواثق والمتوكل والمستعين

ثم كان بين الروم تنازع فى الملك، فملكوا عليهم بوقيل بن ميخاييل

ثم غلب على الملك يشبل الصقلى، ولم يكن من أهل بيت الملك، فكان ملكه أيام المعتز والمهتدى.

ثم ملك بعده أليون بن يشبل بقية أيام المعتز، ومدة من خلافة المعتضد، ثم هلك، فملكهم ابن له يقال له الاسكندروس، فلم يحمدوا أمره فخلعوه، وملكوا عليهم أخاه لاوى بن أليون بن يشبل الصقلى، فكان ملكه بقية أيام المعتضد والمكتفى، ومدة من أيام المقتدر، ثم هلك، وخلف ولداً صغيراً يقال له قسطنطين، فملك ، وغلب على مشاركته فى الملك، وذلك فى بقية أيام المقتدر وأيام القاهر والراضى والمقتفى.

الفصل الثامن

- ملوك مصر قبل الطوفان وما لهم من الآثار والبنيان
- ملوك مصر بعد الطوفان وما و ضعوه من الآثار فى الصحارى والكثبان
- ملوك بنى إسرائيل بالشام وغيره.



ملوك مصر قبل الطوفان

وما لهم من الآثار والبنيان

ذكر أهل التاريخ أن بنى آدم -عليه السلام- لما بغى بعضهم على بعض وتحاسدوا، وتغلب عليهم بنو قابيل، تحول نقراوش الجبار بن مصريم بن مركابيل بن دوابيل بن عرياب بن آدم -عليه السلام- فى نيف وسبعين رجلا جبابرة يطلبون موضعاً ينقطعون فيه عن بنى آدم. فلما نزلوا على النيل ورأوا سعة البلد، وحسنه وحسن مائه، أقاموا فيه وعمر مدينة مصر، وسماها باسم أبيه مصريم.

وكان نقراوش ملكاً جباراً عنيداً، عالماً بالكهانة والطلسمات. وبنى مدينة أمسوس، وبنى بها عجائب كثيرة منها : أنه عمل صنمين من حجر أسود فى وسط المدينة، إذا قدمها سارق لم يقدر أن يزول عنها حتى يسلك بينهما، فإذا دخل بينهما أطبقا عليه فيؤخذ.

فهو وبنوه الجبابرة الذين بنوا الأعلام، وأقاموا الأساطين العظام، ووضعوا الطلسمات واستخرجوا المعادن، وقهروا من ناوأهم من ملوك الأرض، وهم الذين حفروا النيل، حتى أجروا ماءه إليهم، ولم يكن محفوراً، وإنما كان ينبطح وينفرش على وجه الأرض.

فلما مات لطخوا جسده بالأدوية الممسكة وجعلوه فى تابوت من ذهب، ودفنوا معه كنوزه من أنواع الجواهر، وزبروا (كتبوا) عليها تاريخ الوقت.

فلما مات، ملك بعده ابنه نقراش، فتجبر وعلا أمره. وكان كأبيه فى علم الكهانة والطلسمات، وبنى مدينة بمصر وسماها جلجلة، وعمل فيها جنة، صفح حيطانها بصفايح الذهب، وغرس فيها أنواع الفواكه. وكان معه شيطان يعمل له التماثيل العجيبة.

وهو أول من عمل بمصر هيكلاً، وبنى فى صحراء المغرب، وراء الواحات، ثلاث مدن، وبنى مداين ذات عجائب تكل العقول عن دركها، وقد أزال الطوفان جميعها، وركب هذه الأرض الرمال، فأزال طلسماتها، وملك نقراش مائة وتسع سنين، ثم هلك، فعمل له ناووس، وجعل معه من الأشياء العجيبة ما يطول الأمر بذكره.

وتملك بعده أخوه مصرام بن نقراوش. وكان حكيماً فى الكهانة والطلسمات، فعمل أعمالاً عظيمة، منها : أنه ذلل الأسد وركبه، ويقال أنه ركب عرشه وحملته الشياطين حتى انتهى إلى وسط البحر المحيط، وجعل فيه قلعة بيضاء، وجعل عليها صنما للشمس، وزبر عليها اسمه وصفة ملكه، وعمل صنماً من نحاس، وزبر عليه : «أنا مصرام الجبار، كاشف الأسرار، الغالب القهار، وضعت الطلسمات الصادقة، وأقمت الصور الناطقة، ونصبت الأعلام الهائلة على البحار السائلة، ليعلم من بعدى أنه لا يملك أحد ملكى!».

وكان قد عمل فى جنته شجرة مولدة، يؤكل منها جميع الفواكه، واحتجب عن الناس، وألقى على وجهه من سحره نوراً شديداً، لا يقدر أحد أن يتمكن من النظر إليه، فادعى أنه إله، وغاب عن الناس ثلاثين سنة، واستخلف عليهم رجلاً من ولد غرناق، يقال له عبقام.

ثم برز لأهل مصر حين أحبوا أن ينظروه، فعرض نفسه فى صورة هالتهم، وملأت قلوبهم رعباً، فخروا على وجوههم، ثم غاب عنهم، ولم يروه بعد ذلك

ثم ملك مكانه خليفته عبقام المذكور فعدل فيهم، وعمل مدينة عظيمة عجيبة قريب العريش جعلها لهم حرساً. وقيل إن إدريس رفع فى زمانه، ولم يطل ملكه.

ثم ملك بعده ابنه غرياق، فتجبر وأقبل على صيد السباع والوحوش.

ومن عجايبه أنه عمل شجرة من نحاس ذات أغصان، ولطخها بدواء مدبر، فكل وحش يصل إليها لم يستطع الحركة حتى يؤخذ، فشبعت الناس فى أيامه من لحوم الصيد والوحش. وقيل إن هاروت وماروت كانا فى أيامه.

وكان فاسقاً يجلب النساء بسحره ويغتصبهن، فاحتالت عليه امرأة فسمته.

ثم ملك بعده لوجيم بن نقراس. فلما جلس على سرير الملك، ولبس تاج أبيه، سار فى الناس بالعدل والإحسان، ووفور الشفقة للرعية.

وفى زمانه كثرت الغربان والغرانيق، فأهلكت الزرع، فعمل أربع منارات من نحاس فى أربع جوانب بلدة أمسوس، وجعل على كل منارة صورة غراب فى فمه حية قد التوت عليه، فلم يقربهن شىء من الطيور. فلم يزل ذلك إلى أن كان الطوفان، فأزال تلك المنارات.

ثم ملك بعده خصليم الملك، وهو أول من عمل مقياساً لزيادة النيل، وعمر بيتاً من رخام على حافة النيل، وجعل فى وسطه بركة من نحاس صغيرة فيها ماء موزون، وعلى حافة البركة عقابان من نحاس ذكر وأنثى، فإذا كان أول الشهر الذى يزيد فيه النيل، فتح البيت وجمع الكهنة فيه بين يديه، وتكلم رؤساء الكهان بكلام لهم حتى يصفر أحد العقابين، فإن صفر الذكر كان الماء تاماً، وإن صفرت الأنثى كان الماء ناقصاً، فيعتدون لذلك. وهو الذى بنى القنطرة التى ببلاد النوبة على النيل.

ثم ملك بعده هرصال الملك. فبنى مدينتين : مدينة بالمشرق، وهى ذات عجايب كثيرة، وعمل فى وسطها صنماً للشمس يدور بدورانها، ويبيت مغرباً ويصبح مشرقاً، ومدينة بالمغرب، وهى على صفتها.

ويقال إن نوحا – عليه السلام– ولد فى زمانه.

وولد له عشرون ولداً، وجعل مع كل ولد منهم ناظراً وهو رأس الكهنة. وكان يعبد الكواكب، فاختفى عن عيون الناس.

ثم قام بنوه على حالهم، كل واحد منهم فى قسمته التى اقتطعه إياها، حتى مضت عليه سبع سنين. ثم وقع بينهم تشاجر وتخالف، فاجتمع رؤوس الكهنة على أن يجعلوا أحدهم ملكاً، ويقيم كل واحد منهم فى قسمته، فأجمع أمرهم على أكبر أولاده فولوه، وهو ندرسان، فسار بسيرة أبيه وحمد الناس أمره، فعمل قصراً من خشب ونقشه بأحسن النقوش، وصور فيه صور الكواكب وحمله على الماء، وكان يتنزه عليه، فبينما هو يتنزه يوما إذ زاد النيل زيادة عظيمة، وهبت ريح عاصفة، فوقع القصر وهلك الملك.

وكانت له امرأة ساحرة من بنات عمه، فكتمت عن الناس موت الملك، وكان يخرج أمرها ونهيها إلى الوزراء عنه، فأقام الناس تحت طاعتها تسع سنين لا يعلمون بأمر الملك.

فلما رأى إخوته طول غيبته، جمعوا عليها جموعاً كثيرة، وقدموا على أنفسهم أحدهم، وهو شمرود الجبار، وساروا إلى مدينة أمسوس، وتحاربوا معها وغلبوا عليها، وأيقنوا بهلاك الملك.

وجلس على سرير الملك شمرود المذكور، فسر الناس به ووعدهم بحسن السيرة فيهم. وطلب امرأة أخيه الساحرة وابنها ليقتلهما، وهربت هى وابنها إلى مدينة الصعيد، وكان أهلها كلهم كهاناً وسحرة، فامتنعت بهم، ثم ادعت السلطنة لابنها، ودعت الناس إلى حرس شمرود، وزحف إليه ابن الساحرة، وقد عمل له السحرة أصنافاً من التخاييل الهايلة والنيران المحرقة، فأقامت الحرب بينهم أياماً، وهزم شمرود وإخوته وتحصنوا ببعض الجبال.

ونزل ابن الساحرة بدار الملك، وجلس على سريره ولبس تاج أبيه وكان

اسمه توميدون، فملكهم وهو حديث السن، وكانت أمه تدبر أمره. ثم خرج ابنها كاهناً منجماً، حتى عملت له الشياطين قبة من زجاج، دائرة على دوران الفلك، وصور عليها صور الكواكب، فكانوا يعرفون الطالع منها وما يحدث بعد طلوعه.

وبعد سنين من ملكه ماتت أمه الساحرة، وأوصت أن يجعل جسدها، إذا ماتت، تحت صنم القمر، فإنها تخبرهم بالعجائب وبكل ما يسألون عنه، ففعلوا ذلك. وكانت تتصور لهم فى صور كثيرة، وملكهم توميدونماية وستين سنة.

ولما حضرت الوفاة أمرهم أن يجعلوا له صنماً من زجاج على شقين، ويطلى جسده بالأدوية الممسكة، ويجعل فى ذلك الصنم ويلحم، ويقام فى هيكل الأصنام، ويجعل له كل سنة عيد، ويقرب له قربان، وأن تدفن كتب علومه وكنوزه تحته، ففعل ذلك كله.

وملك بعده ابنه سرقاق، فعمل بسيرة أبيه وجدته، وقد جعل الكهنة بين يديه ناراً عظيمة لا يصل إليه إلا من خاضها، ولا تضر إلا من أضمر للملك غايلة. وكانت أطماع الملوك منقطعة من الوصول إلى مصر، لاسيما فى زمن سرقاق المذكور.

وقد أحدث فى زمانه عجائب كثيرة منها: أنه عمل على كل باب مدينة بطة من نحاس قائمة على اسطوانة، فإذا دخل الغريب من باب المدينة، صفقت بجناحيها وصرخت، فيؤخذ الداخل ويكشف عن أمره. وساق إلى مداين الغرب نهراً من النيل، وبنى على حافته منازل، وغرس أشجاراً يتنزه عليها، وكان إذا خرج إليها سار فى عمارة متصلة. وملكهم ماية وثلاثين سنة.

ثم تولى مكانه ابنه سهلوق. وكان عالماً كاهناً منجماً، قد أفاض العدل والإحسان على رعيته، وقسم ماء النيل قسماً موزوناً، صرف إلى كل ناحية قسطها.

ومما عمل سهلوق المذكور القبة المركبة على سبعة أركان، وجعل لها سبعة أبواب، وبنى على كل باب صورة معمولة، فإذا تقدم الخصمان إلى تلك الصورة التصقت بالظالم، وشدت عليه شداً عنيفاً، وإن دعا المظلوم الظالم إلي تلك الصورة ولم يأتها أقعد الظالم من رجليه، وخرس لسانه ولم يتحرك. ولم يزل لها عمل حتى أزالها الطوفان.

فلما هلك، تولى مكانه ابنه سوريد، وهو الذى بنى الأهرام، واقتفى سيرة أبيه فى العمارة والعدل والإنصاف، وبنى بالصعيد ثلاث مداين، وعمل فيها عجايب كثيرة.

وهو أول من جبى الخراج بمصر، وألزم أهل الصناعات على أقدارهم، وأول من أمر بالإنفاق على الزمنى والمرضى من خزاينه.

وعمل مرآة من أخلاط كان يرى فيها جميع الأقاليم، وما أخصب وما أجدب منها، وما حدث فيها، وركبها على منارة من نحاس وسط أمسوس، وعمل فى المدينة صورة امرأة جالسة، وفى حجرها صبى كأنها ترضعه، وأيما امرأة أصابتها علة فى عضو، فمسحت ذلك العضو بعضو منها يقابلها، برئت، وأيما صبى أصيب عضوه، يمسح ذلك العضو بعضو ذلك الصبى ، برىء.

ومن أعماله : بناء الهرمين الكبيرين، وسبب بنائهما أنه رأى رؤيا كأن الأرض انقلبت بأهلها، وكأن الناس يهوون على رؤوسهم، وكأن الكواكب تتساقط عليهم ويصدم بعضها بعضاً بأصوات مختلفة هائلة، فغمه ذلك. ثم رأى بعد ذلك كأن الكواكب الثابتة فى صفة طيور بيض، وكأنها تتخطف الناس وتلقيهم بين جبلين عظيمين، وكأن الجبلين انطبقا عليهم، وكأن النيرة مظلمة، فانتبه مذعوراً. وعلم أنه سيحدث فى العالم أمر عظيم، فجمع رؤساء الكهنة من جميع أعمال مصر، وكانوا ماية وثلاثين كاهناً، وكبيرهم يقال له أقليمون، فقص عليهم ذلك.

وكان أقليمون رأى رؤيا مثل ذلك، فأخذوا ارتفاع الكواكب، فأخبروا بأمر الطوفان. قال سوريد : «ويلحق بلادنا ؟». قالوا: «نعم، وتخرب، وتبقى سنين خراباً».

فأمر بعمل الأهرام لتكون قبوراً له، ولأهل بيته، يحفظ أجسادهم وكتبهم وكنوزهم، وأمر بأن يعمل لها مسارب يدخل منها النيل إلى المكان، ويخرج إلى مواضع من أرض المغرب والصعيد، وملأها طلسمات وعجايب وخزاين وغير ذلك، وزبر فى سقوفها وأسطواناتها ما قالته الحكماء من العلوم الغامضة، وأسرار العقاقير ومنافعها ومضارها، وعمل الطلسلمات والحساب والهندسة والطب وغير ذلك، وكل ذلك معلوم لمن يعرف كتابتهم ولغاتهم، وليس على وجه الأرض بناء أرفع وأعظم منها.

وكان ابتداء بنائهما فى طالع سعيد، قد قرر عليهما، وبناء هذين الهرمين والنسر الواقع فى السرطان.

فلما فرغ من بنائهما، كساهما ديباجاً ملوناً، وعمل لهما عيداً استحضر إليه أهل مملكته، وكتب عليهما: «إنى بنيتهما فى ستين سنة، فمن ادعى قوة يهدمهما فى ستماية سنة، فإن الهدم أهون من البناء، وإنى كسوتهما حريراً فليكسهما من بعدى حصيراً». وعددها ثمانية عشر هرماً، ثلاثة منها بالجيزة مقابل الفسطاط.

وعند مدينة فرعون يوسف – عليه السلام– إهرام دورة ثلاثة آلاف ذراع، وعلوه أربعمائة ذراع، وعند مدينة فرعون موسى إهرام آخر، وآخرها يعرف بهرم ميدوم كأنه جبل، فالهرم الشرقى فيه سوريد الملك، وفى الهرم الغربى أخوه هرجيب، وفى الهرم الملون أفريبون بن هرجيب.

والصابئة تزعم أن أحدها قبر شيث –عليه السلام– والآخر قبر هرمس، والملون قبر صابئ بن هرمس، وإليه تنسب الصابئة.

وجعل لكل هرم منها خازنا من الروحانيين، فالموكل بالهرم البحرى فى صفة امرأة عريانة مكشوفة الفرج، ولها نوايب إلى الأرض، وقد رآها جماعة تدور حول الهرم وقت القائلة، والموكل الذى إلى جانبه فى صورة غلام أمرد عريان، وقد رؤى بعد المغرب يدور حول الهرم، والموكل بالثالث فى صفة شيخ فى يده مبخرة وعليه ثياب الرهبان، وقد رؤى يدور ويبخر ليلاً، ووكل بسايرها أمثال ذلك من الروحانية.

وقيل إن إدريس –عليه السلام– حين استدل من أحوال الكواكب على وقوع الطوفان، أمر ببناء الأهرام، وأودعها الأموال وصحايف العلوم، وما يخاف عليه من الذهاب والدثور. وقيل بناها شداد بن عاد، وكانوا يعتقدون بالرجوع، فكان أحدهم إذا مات دفن معه ماله، وإن كان صانعاً دفن معه آلات صنعته.

وأحوال هذه الأهرام عجيبة، وحكاياتها غريبة، وكل شئ يخشى عليه من الدهر إلا الهرمين، فإنه يخشى على الدهر منهما، وفى ذلك يقول الشاعر :

حسرت عقول أولى النهى الأهرام   واستصغـرت لعظيمـها الأجـرام

ملـس منقبـــة البـنـــاء شـواهق   قصـــرت لعـــال دونهـــن سهـــام

لم أدر حين كبـــا التفكـــر دونها   واستوهمـت لعجيـبهـا الأوهــام

أقبـور أمـــلاك الأعاجـــم هُـن أم   طلســـم رمـــل كـن أم أعـــلام

قال المتنبى :

أين الذى الهرامـان من بنيانـه   من قومه ما يومه ما المصرع

تتخلف الآثـار عن سكانهـا   حينا ويدركهـا الفـاء فتتبـع

ثم إن سوريد، لما ملك ماية وسبعا وستين سنة، وكان منجموه عرفوه الوقت الذى يموت فيه، واليوم والساعة، أوصى بالملك لولده، وعرفه جميع ما

يحتاج إليه، وأمره بأن يدخل جسده إلى الهرم الذى أعده لنفسه، فامتثل ولده جميع ما أمره به.

فلما مات، تولى الملك بعده هرجيب، وسار سيرة أبيه بالعدل والعمارة والرأفة بالناس، فأحبوه وأطاعوه، فبنى هرماً ونقل إليه كثيراً من المال والجواهر، وكانت له بنت أفسدت مع بعض خدامه، فنفاها إلى ناحية المغرب، وأمر بأن يبنى لها مدينة هناك، وأسكن معها كل امرأة مسنة من أهل بيته، ثم مات.

وكانت مدة ملكه نيفاً وسبعين سنة.

وملك بعده ابنه مناوش، وكان جباراً أثيماً، وشيطاناً رجيماً، آذى الناس، وسفك الدماء، واغتصب النساء. وكان يفتض ختامهن قبل أزواجهن، واستخرج كنوز آبائه، وبنى قصورا من ذهب وفضة، وفجر فيها الأنهار وجعل حصباءها من صنوف الجواهر. واستغرق فى اللذات والشهوات وغفل عما يتعلق بالعمارات ومصالح العباد، فأبغضه الناس، وكل من امتنع من أمره أحرقه بالنار.

وأقام ملكاً ثلاثاً وسبعين سنة، ومات، فوضع فى الهرم مع أجداده وحمل معه كنوزه.

ثم ملك بعده ابنه أقروش، وكان كاهناً ماهراً، خالف أباه فى أفعاله وعدل فى الناس.

وعمل فوارة قطرها ماية ذراع وطولها خمسون ذراعاً، وركب فى جوانبها أطياراً تصفر بأصناف اللغات المطربة لا تفتر.

وعمل فى وسط المدينة مناراً عالياً من نحاس أصفر، عليه صورة إنسان يصفر، كلما مضت ساعة صاح ذلك صياحاً عالياً، فيعلم به دخول الساعات فى الليلوالنهار.

وعمل مناراً آخر، وجعل على رأسه قبة من صفر مذهب، وألطخها لطوخات، فإذا غربت الشمس اشتعلت تلك القبة ناراً تضيء لها أكثر المدينة، ولا تطفيها الأمطار ولا الرياح، فإذا كان النهار قل ضوءها لضوء الشمس. وعمل أمثال ذلك من الغرايب التى يطول ذكرها.

ويقال إنه نكح ثلاثماية امرأة يبتغى منهن أولاداً، فلم يمكن ذلك فى عصره، لأن الأرحام عقمت بأمر الله تعالى لقرب زمان الطوفان وهلاك العالم.

وكثرت فى زمانه الأسود حتى كانت تدخل البيوت، وانقطعت الأمطار، وقل الماء فى النيل، وهلكت الزروع من الريح الحارة.

وكانت مدة ملكه أربعاً وستين سنة، وليس له ولد ولا أخ، ودفن فى الهرم وجعلت معه خزاينه، فملكوا رجلاً من أهل بيت الملك ، يقال له أرميا لينوس.

فلما ملك، سار بسيرة سلفه، وكان له ابن عم يقال له فرعان، أحد الجبابرة الذين لا يطاقون، وهو أول فرعون سمى بهذا الاسم، وسى باسمه تشبيهاً به، فعشقته بعض نساء الملك وراسلته بامرأة فامتنع. فلم تزل به المرأة حتى أرضته، ثم سمت الملك فى شرابه فقتلته.

وجلس فرعان على سريري الملك، فلم ينازعه أحد. وكان الطوفان وقع فى زمانه، وكان علا فى الأرض وتجبر، وغصب الناس أموالهم وأنفسهم ونساءهم، وعمل ما لم يعمله أحد من الملوك قبله. وأسرف فى القتل وهابته الملوك، وأقروا له بالطاعة، وهو الذى كتب إلى الدرنسيل، ملك بابل، يشير إليه بقتل نوح –عليه السلام– فمنعه الله تعالى منه.

وكان عند أهل مصر علم بالطوفان، فاتخذوا السراديب تحت الأرض وصفحوها بالزجاج، واتخذ الملك عدة منها له ولأهل بيته. وكان رئيس الكهنة أقليمون رأى رؤيا، وأمر فيها باللحوق إلى صاحب السفينة، وأقام فرعان الملك

منهمكا فى ضلاله وظلمه، فاستأذن أقليمون من الملك بالسير إلى بابل حتى ينظر فى أمر نوح -عليه السلام- ويناظر معه ثم يأتيه بالخبر، فأذن له الملك فى ذلك، فسار بأهله وولده وتلاميذه حتى إذا وصل إلى نوح -عليه السلام- آمن به هو وجميع من معه. فلم يزل هو ومن معه فى خدمة نوح -عليه السلام- إلى أن ركبوا السفينة معه.

وأقام فرعان منهمكاً فى ضلاله وظلمه، مقبلاً على لهوه، وقد ضاقت الدنيا بأهلها، وكثر الهرج والقتل، وفسدت الزروع وأجدبت البلاد، وظلم بعضهم بعضاً من العباد.

وجاء الطوفان وأقبل المطر عليهم يوم الأحد، الرابع والعشرين من شهر آذار، عاشر رجب، وكان الملك سكراناً، فلم يتحرك من مكانه حتى جرى الماء عليه، فوثب مبادراً يريد الهرم الذى بناه، فتجلجلت الأرض، وطلب الأسراب فخانته رجلاه، وسقط على وجهه، وجعل يخور كما يخور البقر، إلى أن أهلكه الطرفان.

ومن دخل الأسراب منهم هلك بفمها، ولحق الماء من أعلى الأهرام إلي آخر التربيع، وهو ظاهر عليها إلى الآن، وليس بين أهل التاريخ اختلاف فى عموم الطوفان على جميع الأرض.

ملوك مصر بعد الطوفان

وما وضعوه من الآثار فى الصحارى والكثبان

أجمع أهل الأثر على أن أول من ملك الديار المصرية، بعد الطوفان، مصريم بن بنصر بن حام بن نوح -عليه السلام- وذلك بدعوة سبقت له من نوح جده لولده حام قال : «اللهم بارك فيه وفى ذريته، واسكنه أحسن الأرض المباركة التى نهرها أحسن الأنهار، واجعل فيها أفضل البركات!». فسأل أقليمون الكاهن نوحاً -عليه السلام- أن يجعل له رفعة وقدراً يذكرونه به من عده ويخلطه بأهله وولده، فزوج نوح -عليه السلام- ابن ابنه بنصر بن حام من ابنة أقليمون المذكور، فولدت له ولداً اسماه بمصر باسم بلده.

فلما قسم نوح -عليه السلام- الأرض بين بنيه، قال له أقليمون : «ابعث معى يا نبى الله ابنى حتى أمضى به إلى بلدى، وأظهره على كنوزها، وأظهره على كتب العلوم ورموزها!». فبعثه معه فى جماعة من أهل بيته، وكان غلاماً مرفهاً. فلما قرب من مصر، بنى له عريشاً من أغصان الشجر وستره بحشيش الأرض، ثم بنى له مدينة وسماها درسان، أى باب الجنة.

وكان عنده رجل ماهر يقال له مقيطام يعمل لهم الكيمياء والطلسمات الغريبة، فمن ذلك عمل قبة على أساطين من نحاس مذهب فى ارتفاع ماية ذراع، قد ركب عليها مرآة من أخلاط شتى قطرها خمسة أشبار، فإذا قصدهم قاصد من الأمم عملوا لتلك المرآة عملاً، فألقت شعاعها على ذلك الشىء فأحرقته. فلم تزل على حالها إلى أن غلب عليها الريح فسفها، ويقال إن الإسكندر إنما عمل المنارة تشبيها بها.

وكان مصريم مؤمناً بالله تعالى، ومصدقاً بنبينا محمد ﷺ، عاش بعد الطوفان سبعماية عام. فلم يعرض له فيها هم ولا سقم ولا هرم.

ولما أشرف على الموت عهد بالأمر لابنه قبطيم، يقال إن القبط منسوبون إليه، وهو أول من عمل العجايب، ويقال إنه لحق البلبلة، وخرج منها باللغة القبطية. وكانت مدة ملكه أربعماية وثمانين سنة.

فلما مات اغتم عليه بنوه، ودفن فى سرب شرقى البلد، وحملوا معه جميع خزاينه، وزبروا عليه اسمه.

ثم مات بعده ابنه الأكبر فقطريم، وكان جباراً عظيم الخلق، وهو الذى وضع الأهرام الدهشورية، وبنى مداين ومصانع عجيبة وحصل له من الكنوز ما لم يحصل لغيره. وكان يجد من الذهب مثل حجر الرحى، ومن الزبرجد كالأسطوانة فى صحراء الغرب، فيعمل ما شاء من العجائب، ووجد هناك معدن زيبق فعمل منه بركة، فقيل إنها باقية إلى الآن. ويقال إن عاد هلك بالريح فى آخر أيامه.

وفى زمانه أقام إبليس وأعوانه الأصنام التى كان الطوفان طمها وزينوا أمرها، ومن بعد الطوفان إلى زمانه لم يكن يشرك بالله تعالى أحد، وإنما كانوا مؤمنين موحدين فيهم الحكماء والكهنة، ولم يكن اسم الكهنة عندهم عيباً، بل كان الكاهن كالحكيم الذى لا يعصى أمره.

ويُقال إن فقطريم الملك بنى مداين وعمل فيها العجايب، منها الماء القايم كالعمود لا ينحل ولا يذوب، والبركة التى تسمى قلسطين أى صيادة الطير، لا يمر عليها طير إلا سقط فيها، والعمود من النحاس الذى يطرد الهوام عن دخول البلد بتصفير يصفر عليها، فترجع هاربة وغيرها. وكانت مدة ملكه أربعماية وثمانين سنة.

فلما مات حُمل جسده إلى سرب قد عمله لنفسه، وأودع فيه دفاين، ومن الغرايب مالا يوصف.

ثم ملك بعده ابنه بودسير، فتجبر وتكبر وتكهن.

وهو أول من غير الدين وتعبد الكواكب وعمل بالسحر، واحتجب عن العيون وقهر الملوك وغلبهم. وهو الذى بنى مدينة الواحات.

ومما عمل فى زمانه : قبة لها أربعة أركان، وفي كل ركن منها كوة يخرج منها كالدخان الملفف فى ألوان شتى، كل لون من الألوان يدل على حكم من الأحكام. ومما عمل فى زمانه بالغرب شجرة من النحاس لا يمر عليها شىء من الوحوش والطيور إلا اصطادته.

ثم إن الملك احتجب عن أعين الناس، وكان يتجلى لهم فى صورة وجه عظيم، وربما خاطبهم ولا يرونه، ثم غاب مدة، وهم فى طاعته، إلى أن رآه ابنه وهو يأمره بالجلوس على سرير الملك، فجلس، واسمه عديم، وكان جباراً لا يطاق، عظيم الخلق، شديد البطش.

وهو أول من صلب، وذلك أن امرأة زنت برجل فأمر بصلبهما.

ثم إنه بنى أربع مداين وأودع فيها صنوفا كثيرة من العجايب، وعمل في الشرق منارة، وأقام على رأسها صنما متوجها إلي الشرق، ماداً يديه يمنع دواب البحر والرمال أن تتجاوز حدها، وعمل قنطرة على النيل فى أول بلاد النوبة.

وتوفى وهو ابن تسعماية وثلاثين سنة.

ومما عمل فى زمانه، صورة صنم قايم له إحليل، إذا أتاه المعقود [المحصور] والمسحور ومن لا ينتشر، ومسه بكلتا يديه أزال عنه ذلك، وانتشر وقوى على الباه، وجعل مثلها للنساء لدر ألبانهن. وبعض القبط يحكى أنه أودع بمصر اثنى عشر ألف أعجوبة وطلسم، ولم يعمل فى بلد كما عمل فيها.

فلما هلك، ملك بعده ولده شدات، وكانت مدة ملكه تسعين سنة. وبنى مداين عجيبة، ووضع فيها أصنام الكواكب، وحلاها بأنواع الحلى والجواهر، فخرج للصيد وهو يطرد وحشاً فأكبت به فرسه فى وهدة فقتله، وكان له من العمر أربعماية وأربعون سنة.

فلما هلك، عُمل له سرب، فجعل فيه كما عُمل لآبائه.

ثم ملك بعده ابنه منقاوش، وهو الذى أظهر صحايف الحكمة، وأمر بالنظر إليها، وأن تنسخ لهم بخط العامة ليفهموها، ورد الكهنة إلى مراتبهم.

وهو أول من عمل له الحمام من ملوك مصر.

وكان كثير النكاح، فتزوج عدة من النساء من بنات عمه وبنات الكهنة، وجعل لكل امرأة منهن مكانا بجميع ما يصلحه من البنيان العجيب والفروش الحسنة، وأسكنهن فيها.

وقيل هو الذى بنى مدينة منف لبناته وكن ثلاثين بنتاً، ونقلهن إليها.

وعمل للسنة اثنى عشر عيداً، لكل شهر عيد يعمل فيها من الأعمال ما كان موافقاً لبرج ذلك الشهر. وكان يطعم الناس فى تلك الأعياد ويوسع عليهم فى أحوالهم، ففرح الناس به ودلوه على معادن وكنوز.

وألزم أصحاب الكيمياء العمل، وكانوا لا يفترون ليلا ولا نهاراً، فاجتمع عنده أموال عظيمة وجواهر كثيرة، فخاف أن يطمع فيه الملوك إذا سمعوا، فدعا أخاه وبعث معه اثنى عشر ألف عجلة، منها ثلاثماية عجلة من الجواهر، والباقى ذهب أبريز صفايح ومضروب، ومن آلات الملوك وأوانيهم. فقال له : «امض فى أرض المغرب، وانظر مكاناً حريزاً فادفنه فيه!». ففعل أخوه ما أمر به، ثم جعل يبعث فى كل سنة عجلاً عظيماً من المال تدفن فى نواحى شتى.

وعمل فى مدينة أندميس بيتاً تدور به تماثيل، فيها منافع لجميع العلل، وقد كتب على كل تمثال ما يصلح من العلاج، وعمل فيها صورة امرأة متبسمة لا يراها مهموم إلا انجلى همه. وعمل تمثالا روحانيا من صفر مطليا بالذهب ذا جناحين، لا يمر به زانٍ ولا زانية إلا أعلمه.

وكان خراج مصر، إذ ذاك ماية، ألف ألف ألف وثلاثماية ألف دينار[1].

وكانت مدة ملكه إحى وتسعين سنة. ومات من علة الطاعون، وقيل مسموماً، ودفن فى سرب ومعه خزاينه وكنوزه، كما كان لآبائه من قبل.

وتولى مكانه مناوش، فطلب الحكمة مثل أبيه، واستخرج كتبها وأكرم أهلها، وبذل لهم الجوايز.

وهو أول من عبد البقر من أهل مصر، وكان سببه أنه مرض فقيل له في المنام لا يخرجك من علتك هذه إلا عبادتك للبقر، لأن الطالع وقت حلول المرض صورة ثور، وقيل غير ذلك فى عبادة البقر.

وبنى مدينة وجعل حول المدينة طلسمات، رؤوسهم رؤوس الوحوسش، وأيديهم أيدى الإنسان، لدفع المضار، وجلب (المصالح) والمنافع. وعمل مدينة بالقرب من ذلك تعرف بقميطر ذات العجايب، فى وسطها قبة عليها كالسحابة تمطر، صيفاً وشتاءً، مطراً خفيفاً، وتحت القبة مطهر فيها ماء أخضر، يتداوى به من كل داء، ويقال إن هاتين المدينتين بنيتا على اسم هرمس، وهو عطارد، وإنهما على حالهما.

وفى أيامه، بنيت البهنسا، وأقام بها اسطوانات، وجعل فوقها مجلساً من زجاج أصفر، وعليه قبة مذهبة، فكانت الشمس إذا طلعت عليها ألقت شعاعها على المدينة.

---

(١) مائة مليار ٣٠٠ ألف ولعل فى هذا مبالغة كبيرة

قال أهل الأثر : إنه ملك ثمانماية عام، وإن قوم عاد انتزعوا منه المُلك بعد ستماية سنة من ملكه، وأقاموا تسعين سنة واستوطنوا البلد، فانتقلوا إلى المدينة من طريق الحجاز إلى وادى القرى فعمروها، واتخذوا المصانع والمنازل، فسلط الله عليهم الدبور فأهلكهم، وعاد ملك مصر إلى أشمون بعد خروجهم من البلد.

فلما هلك ، ودفن فى أحد الأهرام الصغار القبلية، استخلف مكانه ابنه مناقيوس. وكان جلداً فطناً مدبراً، استأنف العمارة وبنى القرى، ونصب الأعلام، وجمع الحكمة، وبنى لنفسه مدينة انفرد فيها، وأفرد فيها مصانع عجيبة، وكانت مدة ملكه نيفاً وأربعين سنة. فلما مات دفن فى بعض الأهرام ومعه خزاينه.

وملك بعده ابنه الملك، وكان فى سلك أبيه وحكمته، فعظم فى أعين أهل مصر.

وهو أول من عمل البيمارستان لعلاج المرضى والزمنى، وصنع لنفسه عيداً يجتمع فيه الناس سبعة أيام ياكلون ويشربون، وهو مشرف عليهم من مكان عال، مصفح من الداخل والخارج بالزجاج المسبوك والذهب، فيعطى الناس عطيات جزيلة، ويهب لهم مواهب كثيرة، فيدعوا له الناس ثم ينصرفون.

فكان له عدة نسوة، ولكن خص منهن امرأتين بالصحبة، فمال فى بعض الأيام إلى إحديهما دون الأخرى، فغارت الأخرى وأخذت سكيناً فقتلت ضرتها وزوجها الملك، وقبض على المرأة وحبست . وكان ملكه ستين سنة.

ثم ملك بعده ابنه مرقورة. فلما جلس على سرير الملك دخل عليه العظماء والأعيان، ودعوا له بدوام الملك والنعمة. وكان حازماً جميلاً، مدبراً عاقلاً. وهو أول من ذلل السباع وركبها . ومدة ملكه نيف وثلاثون سنة.

وقلد ابنه بلاطس، وهو صبى، فدبرت أحواله أمه إلى أن كبر، ثم مات من الجدرى.

وكان ملكه ثلاث عشرة سنة، وفيه انقطعت سلسلة قبطيم، فبقيت السلطنة فى يد أثريب، وكان ساكناً فى مدينته التى بناها فى حياة أبيه وجده، وهى مدينة عجيبة طولها اثنا عشر ميلا ولها اثنا عشر بابا، وأودع فيها من العجايب والطلسمات وغرايب الأشياء ما لا تدركه العقول.

وبُنيت فى زمانه مدن كثيرة. وكان فى زمانه رجل يقال له برسيان، يعمل الكيمياء ويضرب منها دنانير، كل دينار سبعة مثاقيل عليها صورة الملك.

فكانت مدة ملكه ثلاثماية سنة، وقيل خمسماية سنة، وعمل له ناووساً ووضع فيه جسده وخزاينه على عادتهم، ومثل على قبره صورة تنين، لا يدنو منه أحداً إلا أهلكه.

وملكت بعده ابنته تدرورة، فدبرت الملك وساسته بأيد وقوة خمساً وثلاثين سنة، وماتت.

فقام بالأمر بعدها ابن أختها أقليمون. فلما تسلطن، سلك مسلك آبائه وأجداده.

وفى زمانه، بنيت دمياط على اسم غلام كانت أمه ساحرة أقليمون. وملك أقليمون تسعين سنة ثم مات، ودفن فى سرب.

وتسلطن ابنه فرسون، وكان شاباً جميلاً حسن الوجه، محباً للحكمة. وكانت احدى نساء أبيه عشقته وشغفت به، وكانت تتولى طيبة، فبعث إلى ساحرة من أعظم سحرة منف، فسألتها تسخيره لها، وبذلت لها فى ذلك أموالاً، فإذا بالساحرة قد عشقته أشد من عشقها، فسعت لنفسها وأبعدتها من الملك.

ثم إن ملكا من ملوك حمير قصد مصر فى جموع عظيمة، فاستقبله الملك، فتقاتلا أشد المقاتلة حتى تفانى الفريقان، فجاءت تلك الساحرة إلى الملك فقالت : «ما تجعل لى إن نصرتك على عدوك؟». قال : «ما شئت!». فجعلت

الساحرة تدخن بدخن عجيبة، وتسحر وتظهر تخاييل هايلة حتى ولى الحميرى هارباً على وجهه فى نفر يسير، وعاد الملك بأسراه وخزاينه، وعاد إلى منف سالماً غانماً.

ثم أتته الساحرة وسألته الوفاء، فقال : «نعم!». فقالت : «ما أريد إلا الملك!». فتزوجها الملك بعد مدافعات كثيرة وممانعات عديدة. فعند ذلك غارت امرأة أبيه، فأخذت فى أعمال الحيل، فدست جارية لها، عاقلة لطيفة، على ساقى الملك، فاختلطت بجواريه حتى تمكنت من إناء كان يشرب فيه الملك، فألقت فيه سما وعادت تخبر مولاتها.

فلما سمعت ذلك دخلت على الملك فسجدت له، وقالت له : « قد كنت للملك ناصحة فأقصانى، وقرب ساحرة فاجرة تُريد قتل الملك، وقد وضعت السم فى شرابه فى إناء من صفته كذا، فليسقها الملك منه ليعلم صدقى!». فدعا الملك بالإناء فوجده على ما ذكرت، فأحضر الساحرة، وأمرها بشرب قدح منه فشربت، ولم تعلم ما سببه، فسقط لحمها من عظمها، فماتت ولم يغن عنها سحرها، وأعاد امرأة أبيه فتزوجها وقربها.

وفى زمانه، عمل منارة على بحر القلزم، وجعل على رأسها مرآة من أخلاط تجذب المراكب إلى شاطئ البحر، فلم يمكنها الذهاب حتى تعشر[1].

فملك مايتين وستين سنة، ثم مات وجعل جسده فى ناووس على سنن آبائه، وبه انقطعت السلطنة عن أهل بيته.

وكان اصطنع فى مدينته حمامات توقد بنفسها. وكانت العمارة ممتدة فى رمال رشيد، والإسكندرية إلى برقة.

وكان الرجل يسافر فى أرض مصر، فلا يحتاج إلى زاد لكثرة الفواكه

(١) أى تدفع العشور أى ١٠٪ ضرائب وجمارك.

والخيرات، ولا يسير إلا فى ظلال تستره.

فلما انقضى زمن أولئك القوم بقيت آثارهم فى تلك الصحارى من آثار البلدان ورسوم البنيان. ولم يزل من دخل الصحارى يحكى ما رآه فيها من الآثاروالعجايب.

ثم تسلطن مرقوس، وكان محباً للحكمة وسائر العلوم، وعمل فى أيامه أشياء عجيبة، منها :

درهم إذا ابتاع به صاحبه شيئاً، اشترط أن يوزن له ما يبتاع منه بوزن ذلك الدرهم، ولا يطلب عليه زيادة، فيغتر البايع بذلك ويقبل الشرط، فإذا تم ذلك بينهما، وقع فى وزن الدرهم عشرة أضعافه. وقد وجد فى خزاين مصر فى دولة بنى أمية من هذا الدرهم.

ومنها: درهم إن سلمته للبايع عاد إليك، ولم يجد البايع مكانه إلا ورقة آس أو قطعة قرطاس.

ومنها: آنية من زجاج يساوى وزنها مملوءة بالماء وزنها فارغة.

ومنها: آنية إذا جعل فيها الماء انقلب حجراً.

ومنها: صورة الضفادع والخنافس والذباب والعصافير، فكانت إذا جعلت فى موضع، اجتمع إليها ذلك الجنس بعينه، فلم يبرح من مكانه حتى يقتل ويهلك.

وكان هذا الملك يعبد عقاباً من ذهب مسبوك وعيناه ياقوتتان، وكان الشيطان يحل به، فينطق له ويأمره بأشياء، وعمل من الكيمياء الذهب الخالص ما لم يعمله أحد من الملوك . يقال إنه دفن فى صحراء الغرب خمسماية دفينة.

ومن العجايب التى عملت فى زمانه، عمود قد ركب عليه صورة امرأة

جالسة ناظرة إلى مرآة فى يدها، فينظر إليها الطالب، فإن كان العليل يموت رآه ميتاً، وإن كان يعيش رآه حياً. والمسافر إن كان مقبلاً علم أنه راجع، وإن رآه مقيماً علم أنه مقيم، وكذلك المريض والميت يرى شكلهما.

وكانت مدة ملكه ثلاثاً وسبعين سنة، وله مايتان وأربعون سنة. فلما مات دفن فى ناووس عمله لنفسه. وحملت معه خزاينه.

ثم تولى مكانه بعهد منه أيسار، وكان جباراً معجباً برأيه، فوض تدبير المملكة إلى وزيره مسرور، واشتغل هو بالملاهى والشهوات، لا يمر بموضع لطيف إلا أقام فيه أياماً مع نسائه وخدمه، فاستنفد جميع ما فى خزاينه وخزاين أبيه.

فلما أفرط فى ذلك، هم الناس على خلعه، فاستغفلهم ووضع فيهم السيف حتى قتل أكثرهم. فلم تزل الخاصة والعامة مستنفرين منه، حتى دس عليه ساقيه سما فى شرابه فقتله.

وكانت مدة ملكه خمساً وستين سنة، وله من العمر ماية وعشرون سنة.

ثم تولى مكانه ابنه صا، وأكثر القبط تزعم أنه أخوه. فلما تولى أحسن إلى الناس ووعدهم بالعدل والإنصاف، وسكن منف، وعمل فيها مرآة يرى فيها جميع البلاد التى تخصب والتى تجدب. وعمل صنماً لكل من تعذر عليه أمر يأتيه، فيخبره فيتيسر عليه ذلك الأمر.

وبنى فى الواح الأقصى مدينة، وأودع فيها جميع خزاينه. وفى تلك الصحارى مدن كثيرة، إلا أن الرمال غلبت عليها فاندرست معالمها، وبطلت طلسماتها، وأكثر مدنها استولى عليها الجان.

وأقام ملكا سبعاً وستين سنة، وله من العمر ماية وسبعون سنة، ودفن فى ناووس بمنف.

ثم تولى بعده ابنه تدارس ، فملك جميع الديار المصرية كأبيه. وكان عاقلاً فطناً، ذا أيد وقوة ومعرفة بالأمور.

وبنى غربى منف بيتا عظيما للزهرة وصورها فى صورة امرأة من الآجر مذهبة متوجة بذهب تلوح زرقته، وكان يتردد إليها.

وطمع فى بلاده الزنج والنوبة، فجمع عساكره وتلقاهم وانتصر.

ثم بعد ذلك رأى رؤيا هالته، تدل على موته، فعمل له ناووساً، فلم يمض كثير حتى مات، وحمل إليه خزاينه.

وعهد بالملك لابنه ماليق، وكان عاقلاً كريماً، حسن الوجه والصورة، مؤمناً موحداً، مخالفاً لأهل بلده وأبيه.

وكان القبط[1] تذمه على ذلك، وسببه أنه رأى رؤيا فى المنام أن رجلين اختطفاه من الأرض وحملاه إلى الفلك، إلى أن أوقفاه بين يدى شيخ أسود أبيض الرأس، فقال له الشيخ : «هل تعرفنى؟». قال : «لا!». قال : «أنا زح». فقال له ماليق: «عرفتك، أنت إلهى». قال الشيخ : «ما أنا إلا مخلوق وإلهى وإلهك الله الذى خلق السماوات والأرض، خلقنى وخلقك». فقال ماليق: «وأين هو؟». قال : «فى العلو لا تراه العيون، ولا تدركه الظنون، ولا تلحقه الأوهام، ولا يتصف بصفات الأجسام». فقال ماليق : «كيف أعمل». قال: « تضمر فى نفسك ربوبيته علينا، وتخلص وحدانيته وتعرف أزليته». ثم أمر الرجلان، فأنزلاه إلى الأرض، فانتبه مذعوراً.

وكان كثير الغزو، ثم غزا يريد مدينة أسطا فى الغرب، وملكتها ساحرة. فلما قرب منها سترت مدينتها بسحرها، فلم يروها، وطمست المياه فلم يعرفوها، فهلك أكثر العساكر فرجع. ثم عملت الساحرة بعض أدوية وأمرت بعض قومها،

---

(١) المصريون

فألقاها فى النيل، ففاض الماء وأفسد الزرع والغلال، وكثرت فى بقية الماء التماسيح والضفادع، وظهرت العلل فى الناس، وظهرت فى أرضهم الثعابين والعقارب، فجمع ماليق الكهنة والحكماء، وسألهم عن هذه الحوادث، فأخبروه أنها من أعمال ساحرة أسطا. فأمرهم بالاجتهاد فى هلاكها.

فلما أمسى الملك، لبس المسوح وافترش رماداً واستقبل القبلة، وأقبل على الابتهال إلى الله تعالى والتضرع، وقال : «يارب ، أنت إله الإلهة، وخالق الخلق، ولا يكون شىء إلا بقضائك، أسألك أن تكفينى أمر هذه الساحرة». وغلبته عيناه فرأى رجلا يقول له : قد رحم الله تضرعك، وأجاب دعاك، وهو مهلك هؤلاء القوم ومدمرهم، وصارف عنك هذه البلية.

فلما أصبح أتاه الكهنة ودعوه إلى الحضور معهم إلى الأصنام. فقال لهم: «قد كفيتكم أمر عدوكم، وأهلكتهم، وأزلت المياه الفاسدة والدواب المضرة عنكم». فنظر بعضهم إلى بعض كالمستهزئين به، ثم مضوا إلى مكانهم ينتظرون صحة مقال الملك.

فلما كان بعد يومين، انكشف ذلك الماء الفاسد، وهلكت تلك الدواب المضرة، فعلموا أن الذى أخبرهم به حق، فأرسل قايداً لينظر حال تلك القوم، فأتاهم، فوجدهم قد سقط عليهم حصن، وقد هلكوا بأجمعهم، واحترقوا، واسودت وجوههم، ووجدوا الأصنام متنكسة على وجوهها، وأموالهم ظاهرة بين أيديهم.

فطاف بالمدينة فلم يجد بها غير رجل واحد، كان مخالفاً لهم، فأخبر الملك، ونقل تلك الأموال والجواهر التى لا يحصيها إلا الله تعالى. وأمر بإحضار الرجل، فسأله، وأعجب بكلامه وعقله، فاستوزره.

ولم يزل الملك على التوحيد حتى مات، وأوصى أن يعمل له ناووس، وأن لا

يدفن معه سوى الطيب وصحيفة مكتوبة بخطه فيها إيمانه بالله تعالى، وإيقانه بالبعثوالنشور.

واستخلف مكانه ابنه خربتا، وكان لينا سهل الخلق، لم يمت أبوه حتى شرح له التوحيد، وأمره أن يدين بدينه، ونهاه عن عبادة الأوثان، فرجع عنه بعد موت أبيه إلى دينهم.

وكان كثير الغزو، فعمل ماية سفينة وتجهز إلى الغزو، فكان لا يمر بمدينة إلا أقام بها حجراً زبر عليه اسمه حتى بلغ أرض سرنديب، فأوقع بأهلها ما أوقع، وغنم أموالا وجواهر كثيرة، ورأى فيها أقواماً عجيبة، فاستمر ينقل المال من تلك الجزائر عدة سنين. ويقال إنه أقام فى سفره ذلك سبع عشرة سنة، ورجع إلى أرض مصر غانماً.

ثم غزا نواحى الشام وأدى أهلها الطاعة وهابوه، ورجع إلى مصر.

ثم غزا نواحى النوبة والسودان، فصالحوه على خراج يحملونه إليه، وملكهم خمساً وسبعين سنة.

فلما مات، قتل جماعة من نسائه أنفسهن جزعاً عليه، لأنه كان جميلاً.

وملك بعده ابنة كلكن ، وكان يحب الحكمة وأهل المعرفة، ولم يزل يعمل الكيمياء طول عمره ، فخزن أموالاً كثيرة بصحارى الغرب.

وهو أول من أظهر علم الكيمياء بمصر، وكان علماً مكتوماً. وكان يطرح المثقال الواحد على القناطير الكثيرة من النحاس، فيصنعها ذهباً، فامتنعوا عن المعادن لقلة حاجتهم إليها.

وعمل أيضاً أحجاراً شفافة ملونة من الفيروز واليشم والزبرجد وغيرها. واخترع أشياء تخرج عن العقول، حتى كانت تسميه الحكماء حكيم الملوك.

وكان نمرود فى زمانه قد التقى معه على أربعة أفراس ذوات أجنحة تحمله، وقد أحاط به نور كالنار وحوله صور هائلة، فدخل بها وهو متوشح بثعبان متحزم ببعضه، والتنين فاغر فاه، ومعه قضيب من آس أخضر، فكلما حرك التنين رأسه ضربه بالقضيب.

فلما رأى نمرود ذلك، هاله أمره وخاطبه، فاعترف له بجليل حكمته وسأله أن يكون له ظهيراً، مع أن نمرود كان جباراً مشوه الخلق، قد أتاه الله قوة وقدرة وبطشاً.

وكان الملك يرتفع ويجلس على الهرم الغربى فى قبة تلوح على رأسه، فقصده ملك من ملوك العرب يقال له سادوم، فى جيش عظيم، فأقبل نحوهم، ثم سلط عليهم، من سحره شيئا كالغمام، شديد السواد شديد الحرارة، فأقبلوا تحته أياماً متحيرين لا يدرون أين يتوجهوا. فطار الملك إلى مصر وأخبر أهلها بما جرى، وأمرهم بالخروج إليهم ليعرفوا خبرهم، فوجدوهم ودوابهم أمواتاً. فعجبوا من ذلك.

وهابه الكهنة والملوك وملكهم زماناً، ثم أخبرهم بموته وغاب عنهم، فلم يقفوا له على حال موته.

وأوصى بالملك لأخيه ماليا، وكان نواقاً شرهاً، كثير الأكل والشرب، مشغولا بالتنزه غير ملتفت للحكمة، وفوض أمر البلد لوزيره. وكان محباً للنساء ومعاشرتهن، وله ثمانون امرأة، ثم اتخذ امرأة من بنات ملوك منف، وكانت عاقلة سديدة الرأى، وكان معجباً بها.

وكان له بنون وبنات، فهجم عليه أكبر أولاده فقتله وهو سكران، وصلب تلك المرأة.

وجلس الولد المذكور طوطيس على سرير الملك، وكان جباراً جرياً، شديد

البأس مهيباً، والقبط تزعم أنه أول الفراعنة بمصر، وهو فرعون إبراهيم -عليه السلام- وأن الفراعنة سبعة، وهو أولهم.

خروج إبراهيم -عليه السلام- إلى مصر:

وكان من خبر إبراهيم -عليه السلام- معه، أنه لما هاجر إلى ربه من قومه ومن النمرود، خاف من المقام بالشام لئلا يتبعه قومه فيردوه إلى النمرود. فخرج إلى مصر وكانت معه امرأته ساره، وهى أحسن نساء العالمين فى وقتها، ويقال إن يوسف الصديق - عليه السلام - ورث جزءاً من حسنها لأنها جدته.

فلما دخل مصر ورأى حرسة الباب حسن سارة، عجبوا من حسنها ورفعوا خبرها إلى الملك، فوجه الملك وزيره، فأحضر إبراهيم -عليه السلام- وسأله عن بلده، فأخبره وقال : «ما هذه المرأة منك؟». قال : «أختى، يعنى فى الدين!».

فأمر الملك بإحضارها، فلم يمكنه مخالفته، وعلم أن الله لا يسوءه فى أهله. وسار مع سارة حتى أتوا قصر الملك فأدخلت عليه، فنظر منها منظراً أراعه وأفتنه، فأمر بإخراج إبراهيم -عليه السلام- فأخرج، ووقع فى قلبه -عليه السلام- ما يقع فى قلب الرجل على أهله، فكشف الله الحيطان والستور وكشف عن بصره، بحيث كان يرى الملك ويراها.

ثم إنه راودها عن نفسها فامتنعت عليه، فذهب ليمد يده إليها ليجذبها إليه، فقالت : «إن وضعت يدك علىّ أهلكت نفسك، لأن لى ربا يمنعنى منك». فلم يلتفت إلى قولها ومد يده فجفت[1] يده، وبقى حائراً حتى استغاث بسارة، فدعت له بشرط أن لا يعود لمثل ما أتى به، فلما وثق بالصحة راودها ومنآها ووعدها بالإحسان فامتنعت وقالت : «قد عرفت ما جرى».

(١)شلت.

ثم مد يده إليها فجفت، وضربت عليه أعضاؤه وعصبه، فاستغاث بها وأقسم بآلهته أنه إذا أزالت عنه ذلك لم يعاودها، فدعت له وصح، ثم قال : «إن لك ربا عظيماً لا يضيعك!»، وأعظم قدرها.

وسألها عن إبراهيم -عليه السلام- فقالت : «هو زوجى». فقال : «إنه ذكر أنك أخته». قالت : صدق ، وأنا أخته فى الدين، وكل من كان على ديننا فهو أخ لنا». قال : «نعم الدين دينكم». ووجهها إلى ابنته حوريا، وكانت من العقل والكمال بمكان كبير، فوهبت لها جارية قبطية[1]، من أحسن الجوارى، يقال لها هاجر، وهى أم إسماعيل -عليه السلام-.

وعاش طوطيس إلى أن وجهت إليه هاجر من مكة تعرفه بأنها بمكان جدب وتستغيثه، فكان يرسل إليها الحنطة وأصناف الغلات. وكانت مدة ملكه سبعين سنة.

ثم ملكت بعده ابنته حوريا المذكورة. جلست على سرير الملك ووعدت الناس بالإحسان، وأخذت فى جمع المال وحفظه، فاجتمع عندها من الأموال والجواهر ما لم يجتمع لملك قبلها. وعملت بمصر عجايب كثيرة، وأمرت أن يبنى على حد مصر، بناحية النوبة، حصن وقنطرة يجرى ماء النيل من تحتها.

فلما احتضرت، لم يوجد من بيت الملك أحد سوى ابنة عمها دليقة، فقلدتها الأمر، وكانت عذراء من عقلاء النساء، فجلست على سرير الملك واجتمعت الكلمة عليها، وأحسنت إلى الناس ووضعت عنهم خراج سنة.

وقام أيمين الأتريبى يطالب بثأر خاله أنداخس واستنصر بملك العمالقة، فوجه معه جيشا كبيراً كثيفاً، فهزمها إلى ناحية قوص، وسار خلفها وتمكن من المملكة . فلما رأت دليقة ما وقع لها، سمت نفسها وهلكت

---

(١)مصرية.

وملك مكانها أيمين، فتجبر وقتل خلقاً كثيراً ممن كان حاربه.

وكان الوليد بن دومع العمليقى قد خرج فى جيش كثيف يتنقل فى البلدان، ويقهر ملوكها ليسكن ما يوافقه منها ويعتدل عليه جسمه. فلما صار بالشام أنهى إليه خبر مصر وعظم شأنها، وأن أمرها قد صار إلى النساء وباد ملوكها، فوجه غلاماً له يقال له عون مع جيشه، فسار إلى مصر وفتحها، واستباح أهلها وحوى على أموالها.

ثم سار الوليد بن دومع المذكور إلى مصر ودخلها، واستباح أموالها وقتل جماعة من كهنتها. ثم سنح له أن يخرج ليقف على مصب النيل، فأصلح ما يحتاج إليه واستخلف عوناً على البلد، وخرج فى جيش عظيم، فلم يمر بأمة إلا أبادها.

فيقال إنه أقام فى سفره أربعين سنة، وأنه مر على أمم السودان وجاوزهم، ومر على أرض الذهب وفيها قضبان نابتة. ولم يزل يسير حتى وصل إلى البطيحة التى ينصب ماء النيل إليها من الأنهار التى تخرج من تحت جبل القمر، وهو جبل عالٍ لا يطلع عليه القمر لخروجه من خط الاستواء.

فلما رجع الوليد إلى مدينة مصر، أقام بها واستعبد أهلها، واستباح حرمها وأموالها. وكان ملكه مائة وعشرين سنة، فسلط الله عليه سبعاً افترسه وأكل لحمه. وقيل إنه آذاه ضرسه فقلعه، فكان وزنه ثمانية عشر مناً وثلثى من، وقس على ذلك عظم جثته.

ثم ملك مكانه ابنه الريان بن الوليد، وهو فرعون يوسف الصديق - عليه السلام- والقبط تسمية نهراوش. وكان عظيم الخلق، جميل الوجه، عاقلاً متمكناً، منكراً لأوضاع أبيه، وأسقط عن الناس خراج ثلاث سنين، فأثنوا عليه وشكروه، فاستوزر رجلا من أهل بيته يقال له قطفير، وهو الذى تسميه العرب بالعزيز،

وهو الذى اشترى يوسف الصديق -عليه السلام- وقال لأهله : أكرمى مثواه . وكان عاقلاً أديباً متمكناً.

وكان خراج مصر فى زمانه سبعة وستين ألف ألف مثقال من الذهب.

واستعد الملك للغزو، فخرج فى تسعماية ألف مقاتل[1]، واتصل بالملوك خبره، فمنهم من تنحى عن طريقه، ومنهم من دخل تحت طاعته، ومر بأرض البربر ثم جزائر بنى يافث وأخذ منهم أموالا كثيرة، ثم مضى إلى أفريقية وقرطاجنة حتى بلغ مصب البحر الأخضر إلى بحر الروم، وهو موضع الأصنام النحاس، وضرب على أهل تلك النواحى خراجاً.

ثم سار إلى الأرض الكبيرة وإلى الإفرنجة والأندلس، فحاربهم وكسرهم، ثم صالحهم على أموال.

ثم أخذ نحو الجنوب، ومر ببلد الكوشانيين على معبر البحر الأسود، وهو بحر لا يستطيع أحد أن يركبه لشدة ظلمته، ثم على أمم السودان حتى بلغ إلي بلاد الدمدم، الذين يأكلون الناس.

ثم سار حتى انتهى على وادى الرمل، ورأى أنه يجرى كالنهر العظيم، فأقام حتى سكن جريان الرمل يوم السبت، فجاز عليه إلي بلاد الخراب المتصلة بالبحر الأسود، فسمع أصواتا وصياحاً هائلاً، فخرج فى شجعان أصحابه حتى أشرف على سباع كثيرة عظيمة، وإذا بعضها يهر على بعض ويأكل بعضها بعضاً. فعلم أنه لا مذهب له من ورائها فرجع.

ومر بأرض العقارب فهلك بعض أصحابه، وسار حتى انتهى إلى أرض صلوفه، وهى حية عظيمة كأنها جبل، ففروا عنها وتعوذوا منها بالرقاء، فلم يمر بموضع إلا حارب أهله وكسرهم، وأخذ منهم أموالا وتحفاً.

---

(١) هذا الرقم فيه مبالغة كبيرة لأنه البشر فى قديم الزمان كان عددهم قليلا.

ثم أقبل على مصر، فلم يبق أحد من أهل مصر حتى استقبله بالرحب والسعة، ووجد قد نفد من جيشه سبعون ألفاً، وكانت مدة غيبته إحدى عشرة سنة.

وفى زمان يوسف الصديق -عليه السلام- مات الملك الريان، وتولى مكانه ابنه دارم، وهو الفرعون الرابع.

وفى زمانه ظهر معدن فضة على ثلاثة أيام من مصر، فنقلوا منه شيئاً كثيراً. وكان دارم على خير من أمره إلى أن توفى يوسف -عليه السلام- .

ثم طغى وتجبر وأظهر عبادة الأصنام، فركب فى النيل فى سفينة، فبعث الله تعالى عليه ريحاً عاصفة، فأغرقته ومن كان معه.

ثم ملك بعده ابنه معدان، وكان على ما زعموا ينكر على أبيه فعله.

وفى زمانه ، وقع طوفان أضر ببعض البلدان، فلما جلس على سرير الملك أنصف المظلوم من الظالم.

وفى زمانه، كثر بنو يوسف -عليه السلام- وأهله، فأشار الملك بأن يفرد الإسرائيليون ناحية من البلد لا يختلط بهم أحد غيرهم، فأقطعهم الملك موضعاً فى قبلى منف، فاجتمعوا إليه وعملوا فيه معبداً كانوا يتلون فيه صحف إبراهيم -عليه السلام-.

ثم غيب الملك شخصه بالكهانة، وأوصى بالأمر لابنه كاشم، وهو الفرعون السادس، فأقام سبع سنين بأجمل أمر وأصلح حال، إلى أن مات وزير أبيه الذى كان معه، واستخلف رجلا وهو من أهل بيت الملك على ما ذكر فى تراجم الأمم، وكان يقال له : «طلما»، وكان شجاعاً، ساحراً، كاهناً، كاتباً، حكيماً متصرفا فى كل فن، وكانت نفسه تنازعه الملك.

قيل هو من ولد أشمون، وقيل من ولد صار، وقيل من العمالقة. وكان يقوم بأمر البلد كما كان العزيز مع الوليد.

وقيل سبب استخلافه الملك أنه كان عطاراً بأصبهان، فأفلس وركبه الدين، فخرج هارباً من الدين وأتى الشام، فلم يستقم حاله، فجاء إلى مصر، فرأى على باب المدينة حمل بطيخ ، فسأل عن سعره، فقيل بدرهم، فدخل المدينة وسأل عن سعره فقيل كل بطيخة بدرهم، فقال : «من هنا أقضى دينى!». فاشترى حملاً بدرهم.

وأتى المدينة فنهبه البوابون، فما بقى منه إلا بطيخة واحدة فباعها بدرهم، فقال : «ما هذا، ما هنا أحد ينظر فى مصالح الناس؟». فقالوا: «ملكنا مشغول بلذته، وفوض الأمر إلى الوزير، ولا ينظر فى شئ». فخرج فرعون إلى المقابر، فجعل لا يمكن أحداً من الدفن إلا بخمسة دراهم، فأقام على ذلك مدة لم يتعرض له أحد، فماتت بنت الملك، فقال : «هاتوا خمسة دراهم». فقالوا: «ويحك، هذه بنت الملك». فقال : «هاتوا عشرة دراهم».

فلم يزل يضعفها إلى أن وصلت إلى ماية درهم، فأخبروا الملك بحديثه. قال: «ومن هذا». قالوا: «عامل الأموات». فأرس إلى الوزير فسأله عنه، فأنكر حاله، فأحضره الملك، وقال: « من أنت». فأخبره بخبر البطيخ، وقال: «ما عملت عاما، الموتى إلا حتى يصل خبرى إليك، وتحضرنى لأنصحك لتستيقظ من نومك وتحفظ ملكك وإلا ذهب عنك». فاستوزره، فسار فى الناس سيرة حسنة.

وفى زمانه، شكى القبط إلبه حال الإسرائيليين، فقال : «هم عبيدكم، افعلوا بهم ما بدا لكم». فكان القبطى يضرب الإسرائيلى، فلا يقدر يغير عليه أحد. وإن ضرب الإسرائيلى القبطى قتل.

وبنى فى زمانه مدنا كثيرة وأعلاماً ومصانع وطلسمات. ومن أعجب ما

عمل التنور الذى يشوى فيه بغير نار، والقدر الذي يطبخ فيه بغير نار، والسكين تنصب، فإذا رآها شيء من البهائم، أقبل عليها حتى يذبح نفسه بها، والماء الذي يستحيل هواء وأشياء من النيرنج.

ثم إن الملك بعد أن ملك احدى وثلاثين سنة، غاب عن الناس ولم يعلموا حاله، وأقام طلما الوزير يدبر أحوال الناس احدى عشرة سنة، ثم اضطرب الناس لفقد ملكهم، واتهموا الوزير بقتله فقال : «ما قتلته، بل غاب».

وولى الملك بعده ابنه لاطس، فجلس على سرير الملك. وكان جريئاً معجباً، فوعد الناس جميلاً، وعزل طلما عن الوزارة، واستخلف رجلا يقال له لاهوق من ولد صا الأكبر، ونفذ طلما عاملا على الصعيد، وبعث معه جماعة من بنى إسرائيل، فجدد بناء الأعلام وأصلح الهياكل، وبنى قرى كثيرة وجعلها مقراً لنفسه.

ثم إن الملك تجبر وعلا أمره، وأمر أن لا يجلس أحد فى مجلسه، بل يقومون على أرجلهم إجلالاً له، وبالغ فى أذى الناس وأخذ أموالهم ونساءهم، واستعبد بنى إسرائيل، فأبغضه الخاص والعام. فلما استولي طلما على الصعيد، خالف الملك ووضع يده على أموال الصعيد وخزاينه، فلم يرسلها للملك، وادعى الملك لنفسه، وكاتب وجوه أهل البلاد، فأجابه بعض وتوقف عليه آخر، فبعث إليه الملك جيشاً مع قائد من قواده، فحاربه، فظفر به طلما واعتقله، ثم انفد إليه قائداً آخر، فحاربه وظفر به طلما. ثم سار الملك بنفسه، فحاربه وانكسر فقتل نفسه. ثم سار طلما بعسكره حتى دخل منف.

فلما جلس طلما بن قومس على سرير الملك حاز جميع الخزائن والكنوز، ورتب مراتب الناس ورعى أحواله، وهذا الذى يذكر القبط أنه فرعون موسى -عليه السلام- وأهل الأثر يسمونه الوليد بن مصعب وأنه من العمالقة.

وكان قصيراً طويل اللحية، أشهل العينين، صغير العين اليسرى، وكان أعرجاً. فسار بالناس سيرة حسنة، وأظهر الجود والعدل للخلق بقضاء الحق ولو على نفسه، وعمر البلاد، فأحبه الناس، وعاش زماناً طويلاً حتى مات منهم ثلاثة قرون وهو باق، فبطر وتجبر، وقال : «أنا ربكم الأعلى».

وقيل مكث أربعماية سنة لم يصدع له رأس، ولم يشك من وجع، وكان يملك ما بين مصر وأفريقية. وكان يبعث فى كل سنة، إذا اكتمل التخضير مع قائدين من قواده إردب قمح، فيذهب أحدهما إلى أعلا الصعيد، والآخر إلى أسفله، فيتأمل أرض كل قرية، فإن وجد أرضاً بائراً عطلاً بذر فيها ذلك القمح، وكتب إلى فرعون باسم العامل على تلك الجهة. فأمر فرعون بقتله وأخذ ماله. فربما عاد القائدان بالاردب ولم يجدا موضعاً خالياً.

وكانت الأنهار التى افتخر بها فرعون بقوله: «أليس لى ملك مصر، وهذه الأنهار تجرى من تحتى؟ أفلا تبصرون ستة خلجان : خليج الاسكندر، وخليج دمياط، وخليج مردوس، وخليج منف، وخليج الفيوم، وخليج بنها، وخليج سخا، وهى متصلة لا تنقطع، وبينها بساتين وزروع كثيرة، من أول مصر إلى آخرها؟». وقد دمر الله تلك المعالم، وطمس تلك الأموال.

حكى أن المأمون، لما دخل مصر، قال : «قبح الله فرعون إذ قال : أليس لى ملك مصر، فلو رأى العراق؟».

فقال له سعيد : «لا تقل هذا يا أمير المؤمنين، فإن الله تعالى قال : ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه، وما كانوا يعرشون، فما ظنك بشيء دمره الله تعالى، هذا بقيته».

وقد ذكر أهل التاريخ أنه لم تكن أرض أعظم من مصر، وجميع أهل الأرض يحتاجون إليها، وكانت الأنهار تجرى تحت منازلهم، وكانت البساتين بحافتى النيل من أوله إلى آخره، ما بين أسوان إلى رشيد لا تنقطع، ولقد كانت

المرأة تخرج حاسرة ولا تتخمر لكثرة الشجر، ولقد كانت الأمة تضع المكتل على رأسها، فيمتلىء مما يسقط من الشجر.

وذكر صاحب «مباهج الفكر ومناهج العبر» أن حد مصر طولا من ثغر أسوان، وهو تجاه النوبة إلى العريش، مسافة ثلاثين مرحلة، وحده عرضا من مدينة برقة، التى على ساحل البحر الرومى[1]، إلى أيلة التى على ساحل بحر القلزم[2]، مسافة عشرين مرحلة.

وفرعون هذا هو سابع الفراعنة على قول من يقول، وسموا فراعنة لفرعان الأول، فصار اسما لكل من تجبر وعلا أمره وطال ملكه. وكانت مدة ملكه أربعماية سنة، وعاش ستماية وعشرين سنة.

فلما أغرق الله فرعون وقومه، لم يبق من أهل مصر إلا العبيد والأجراء والنساء، فاتفقت أشراف النساء أن يوى منهن، فولين امرأة يقال لها دلوكه، ابنة زبا.

وكان لها عقل، ومعرفة وتجارب، وهى يومئذ بنت ماية وستين سنة، فخافت أن يطمع فى بلادها أحد ملوك الأرض، فبنت حصنا يحدق بجميع بلادها من المزارع والمدائن والقرى، ووضعت عليه الحرس من كل ناحية، وجعلت دونه خليجا يجرى فيه الماء، فمنعت بذلك مصر ممن أرادها، وفرغت من بنائه فى ستة أشهر. وهو الجدار الذى يقال له جدار العجوز، وقد بقيت بالصعيد منه بقايا.

ثم استمدت دلوكه من ساحرة يقال لها تدوره، فعملت فى وسط مدينة منف بيتا من رخام ذات أبواب أربعة، تفتح إلى الشرق والغرب والشمال

(١) البحر الأبيض المتوسط.

(٢) البحر الأحمر

والجنوب، وصورت فيه صورة الخيل والبغال والحمير والسفن والرجال، وقالت : «فمن أتاكم من أى جهة تحركت هذه الصور، فما فعلتم بالصور التى تحركت من شىء إلا أصابهم ذلك فى أنفسهم». فإذا طمع فيهم أحد من الملوك، وقصد نحوهم تحركت تلك الصور، وما كانوا يفعلون بتلك الصور شيئاً إلا أصاب ذلك الجيش الذى أقبل إليهم مثله من قطع رؤوس أو قلع أعين أو بقر بطون. وانتشر ذلك فى البلاد فتناذرهم الناس.

وكان نساء أهل مصر حين غرق أزواجهن، لم يبق إلا العبيد والأجراء، ولم يصبرن عن الرجال، فجعلت المرأة تعتق عبدها وتتزوجه، وتتزوج الأخرى أجيرها، وشرطن على الرجال أن لا يفعلوا شيئاً إلا بإذنهن، فأجابوهن لذلك، فكان أمر النساء على الرجال إلى يومنا هذا.

وظلت ملكتهم تدبر أمورهم عشرين سنة، حتى بلغ من أبناء أكابرهم وأشرافهم رجل يقال له دركون بن بلطوس، فملكوه عليهم. فلم تزل مصر ممتنعة بتدبير تلك العجوز التى صنعت ذلك نحواً من أربعماية سنة.

ثم مات دركون، فاستخلف ابنه بودس، فملكهم مدة ثم توفى.

فاستخلف أخاه لقاس، فلم يمكث إلا ثلاث سنين حتى مات، ولم يترك ولداً.

فاستخلف أخاه مرنيا، فملكهم، ثم مات.

واستخلف ولده أستمارس، فطغى وبغى وتجبر، وسفك الدماء وأظهر الفاحشة، فأجمعوا على خلعه، فخلعوه وقتلوه، وبايعوا رجلاً من أشرافهم يقال له بلوطس بن مناكيل، فملكهم أربعين سنة، ثم توفى.

واستخلف ابنه مالوس، ثم توفى.

واستخلف أخاه مناكيل، فملكهم أربعين سنة كذلك، ثم توفى.

واستخلف ابنه بُوله، فملكهم مابة وعشرين سنة، وهو الأعرج الذى سبى ملك بيت المقدس، وقدم به إلى مصر. وكان بلغ مبلغاً لم يبلغه أحد ممن كان قبله، فطغى وتجبر، فقتله الله بصرعة صرعته دابته، فدقت عنقه فمات.

ثم ملك ابنه مرتيوس، فملكه زماناً، ثم توفى.

فاستخلف أخاه قرقورة، فملكهم ستين سنة، ثم توفى.

واستخلف أخاه لقاس. وفى أيامه انهدم موضع من بيت السحر الذى عملته تدوره الساحرة، فلم يقدروا على اصلاحه، وانقطع ما كانوا يقهرون به الناس، ثم توفى لقاس.

واستخلف ابنه قومس، فملكهم دهراً طويلاً . فلما ظهر بخت نصر على بيت المقدس وسبى بنى إسرائيل، وخرج بهم إلى أرض بابل، أقام أرميا، عليه السلام، بإيليا وهى خراب، فاجتمع إليه بقايا بنى إسرائيل، فأمرهم أرميا أن يقيموا بها، ويستغفروا الله تعالى، فأبوا إلا الانحياز إلى قومس ملك مصر، وقالوا: «نحن شرذمة قليلون، نخاف علي أنفسنا أن يسمع بنا بخت نصر». فكلما منعهم أرميا عن ذلك وقال : «ذمة الله أوفى الذمم». فما أفادهم حتى ساروا إليه واعتصموا به، فأرسل إليه بخت نصر: «إن لى قبلك عبيدا أبقوا[1] منى، فابعث بهم إلى». فكتب إليه قومس : «ما هم عبيدك، إنما هم أهل النبوة والكتاب وأبناء الأحرار، واعتديت عليهم وظلمتهم». فحلف بخت نصر لئن لم يردهم، ليغزون بلاده!.

فسار بخت نصر إلى مصر، فقاتله قومس سنة كاملة، ثم ظفر به بخت نصر فقتله، ثم سبى جميع أهل مصر، وخرب المدائن والقرى، فبقيت مصر أربعين سنة خراباً، ليس فيها ساكن، يجرى النيل ويذهب، ولا ينتفع به أحد.

---

(١) هربوا.

ثم إن بخت نصر رد أهل مصر إليها بعد أربعين سنة فعمروها، فلم تزل معمورة من يومه.

ثم ظهرت الروم وفارس على ساير الملوك الذين فى وسط الأرض، فقاتلت الروم أهل مصر ثلاث سنين، حتى غلبوهم واستولوا عليهم.

ثم ظهرت فارس على الروم. فلما غلبوهم على الشام، رغبوا فى مصر وطمعوا فيها. وقامت مصر بين الروم وفارس نصفين سبع سنين، ثم استجاشت الروم على الفرس، حتى ظهروا عليهم وأخربوا ديارهم التى بالشام ومصر. وكان ذلك فى عهد رسول الله ﷺ ، فبقى الشام ومصر للروم، ولم يبق لفارس فى الشام ومصر شىء، فأرسل هرقل المقوقس أميراً على مصر، وجعل إليه حرسها وجباية خراجها، فنزل الاسكندرية، فلم تزل مصر فى يد ملك الروم حتى فتحها الله تعالى على أيدى أهل الإسلام، هذا آخر ما انتخبناه من تاريخ مصر».

وذكر السيوطى فى «المحاضرة»، نقلا عن هشام وغيره، أنه لما كانت سنة ست من الهجرة بعث رسول الله ﷺ حاطب بن أبى بلتعة -رضى الله عنه- إلى المقوقس بكتاب فيه :

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول رالله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد. فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين.

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) ﴾ [أعمران]

فلما قرآه أخذه وضمه إلى صدره، وجعله فى حق من عاج وختم عليه. ثم دعا كاتباً يكتب بالعربية. فكتب «لمحمد بن عبد الله، من المقوقس عظيم القبط، سلام.

أما بعد. فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقى، وكنت أظن أنه يخرج من الشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك جاريتين لهما مكان فى القبط عظيم، وبغلة شهباء وحماراً أشهب،، وثياباً من قباطى مصر، وعسلاً من عسل بنها، وبمال».

فلما قدم على رسول الله ﷺ وأعلمه أن ذلك كله هدية، قبله رسول الله ﷺ، وأبقى عنده مارية أم إبراهيم، ووهب أختها لجهم بن قيس العبيدى، وسمى البغلة دلدل، وسمى الحمار يعفوراً، وأعجبه العسل، فدعا لبنها بالبركة، فبقيت.

ملوك بنى إسرائيل

بالشام وغيره

وكان بنو إسرائيل أولاً يسكنون بيت المقدس [فى زمن يعقوب -عليه السلام] ، ثم انتقلوا إلى مصر فى زمن يوسف - عليه السلام-. وكانت بيت المقدس، فى زمن بنى إسرائيل، عظيمة البناء واسعة العمران، وكانت أكبر من مصر وبغداد على ما يوصف. وكان المتولى على أمرهم أولاً موسى ثم يوشع -عليهما السلام- ثم لم يتول عليهم ملك، بل كان لهم حكام سدوا مسد الملوك.

ولو يزالوا على ذلك، حتى قام فيهم طالوت ما شاء الله تعالى. فلما توفى دفن بمدينة دمشق، وله قبر شرقى الصالحية بقرب الركنية يزار ويتبرك به.

وفى «إتحاف الأخصا» أن الوليد، لما بنى جامع دمشق وأراد أن يجعل سقفه رصاصا بدل الطين، وجمعوا غالبه من النواويس، فكشفوا عن قبر، فأخرجوا الميت الذى فيه ووضعوه على الأرض، فوقع رأسه وانقطع عنقه، فسال من فيه الدم، فهالهم ذلك، فسألوا عنه، فأخبرهم عبادة بن بشير الكندى أنه طالوت الملك، فأعادوه إلى ناووسه.

فلما توفى طالوت، ملك بعده داود النبى -عليه السلام-.

ثم ملك بعده ولده سليمان -عليه السلام-.

فلما مات ملك بعده رحبعم بن سليمان -عليه السلام- وكان ردىء الشكل، شنيع المنظر، غليظ الحاجبين، فاختل فى أيامه نظام الملك، وخرج عن طاعته عشرة أسباط، ولم يبق تحت طاعته سوى سبطين، وصار الأسباط العشرة ملوكا تعرف بملوك الأسباط. واستمر الحال على هذا المنوال نحو مايتى سنة احدى وستين سنة، وارتحل الأسباط إلى جهة فلسطين وغيرها من بلاد الشام، واستقر رحبعم على ما هو عليه بيت المقدس سبع عشرة سنة، ثم مات.

وملك مكانه ابنه آفيا، وكانت مدة ملكه ثلاث سنين، ثم مات.

وملك بعده ابنه آسا، وكانت مدة ملكه احدى وأربعين سنة.

ثم ملك بعده ابنه بهوشافاط، وكان رجلاً صالحاً كثير العناية بعلماء بنى إسرائيل. وخرج عليه عدو من ولد العيص، وجاء فى جمع عظيم، وخرج بهوشافاط لقتالهم، فألقى الله تعالى بين أعدائه الفتنة، واقتتلوا فيما بينهم حتى تمحقوا، وولى الباقون منهزمين، فجمع بهوشافاط منهم غنائم كثيرة، وعاد بها إلى بيت المقدس مؤيداً منصوراً من غير قتال، وكانت مدة ملكه خمساً وعشرين سنة، ومات.

فملك بعده ابنه بهورام، وكانت مدة ملكه ثمانى سنين.

ثم ملك بعده أحزياهو، وكانت مدة ملكه سنتين، ومات، واستمرت البلاد بغير ملك.

ثم حكمت امرأة ساحرة، أصلها من جوارى سليمان – عليه السلام– واسمها غثلياهو، فتتبعت بنى إسرائيل فأفنتهم، وما سلم منها إلا طفل أخفوه عنها، وكان اسمه يواش بن أخربوا، واستولت غثلياهو سبع سنين.

ثم ملك بعدها يواش المذكور أربعين سنة.

ثم ملك بعده أمصياهو تسعاً وعشرين سنة، فقتل.

ثم ملك بعده نمرياهو اثنتين وخمسين سنة، فمحقه البرص، فتغلب عليه ولده يؤثم، فملك مدة ثم مات، وفى أيامه كان يونس –عليه السلام–.

فملك ابنه آحز، وكان عمره لما ملك عشرين سنة، واستمر ملكاً ستاً وعشرين سنة. وكان فى أيامه شعيا النبى –عليه السلام–.

وفى السنة الرابعة من ملكه، قصده ملك دمشق واسمه رصين، فبشره

شعيا -عليه السلام- بأن الله تعالى يصرف عنه رصين الملك بغير حرب، فكان كذلك، كما مر، ثم مات.

وملك بعده ابنه خرقياهو، وكان رجلا صالحاً مظفرا أين ماذهب. ولما خلت من ملكه ست سنين انقرضت ملوك الأسباط، وهم سبعة عشر ملكاً، وانضم ملك الأسباط لملكه ودخلوا تحت طاعته. وكان ضعف وقرب أجله، فزاد الله فى عمره خمس عشرة سنة، وأمره أن يتزوج، وأخبره بذلك شعيا -عليه السلام-. وكان قد خرج عليه سنحاريب ملك بابل والموصل.

ثم ملك بعده ابنه منشا، وكان عمره لما ملك اثنتى عشرة سنة، فعصى وأظهر الفسق، ثم تاب إلى الله تعالى. وكانت مدة ملكه خمساً وخمسين سنة.

ثم ملك بعده ابنه آمون، فملك سنين.

وملك بعده ابنه يوشيا، فلما ملك أظهر الطاعة والعبادة، وجدد بيت المقدس وأصلحه. وكانت مدة ملكه احدى وثلاثين سنة، ومات.

ثم ملك بعده ابنه يهوياخين. ولما ملك، غزاه فرعون مصر الأعرج، وظفر به فأسره وأخذه إلى مصر، فمات بها. وكانت مدة ملكه ثلاثة أشهر.

ثم ملك بعده أخوه يهوياقيم.

وفى السنة الرابعة من ملكه، تولى بخت نصر على بابل، وسار بالجيوش إلى الشام وغزا بنى إسرائيل، فلم يحاربه يهوياقيم، ودخل تحت طاعته، فأبقاه بخت نصر على ملكه. ثم خرج عن طاعته وعصى عليه، فأرسل بخت نصر وأمسكه، وأمر بإحضاره إلى العراق، فمات فى الطريق من الخوف. فكانت مدة ملكه نحو احدى عشرة سنة.

ولما أخذ إلى العراق، كان استخلف مكانه ابنه يخسنبوا، ثم أرسل بخت نصر من أخذه إلى العراق، وأخذ معه جماعة من علماء بنى إسرائيل، وحال وصوله سجنه، ولم يزل مسجونا حتى مات.

وكان قد ولى مكانه حين أمسك صدقيا، وكان فى زمانه أرميا، عليه السلام.

وفى السنة التاسعة من ملكه عصى صدقيا على بخت نصر، فسار بخت نصر بالجيوش ودخل بيت المقدس، وقتل بنى إسرائيل حتى أفناهم، وأخذ صدقيا أسيراً معه وأخرب بيت المقدس، وأمر جنوده أن يملؤه تراباً ففعلوا، واستمر غالب البنيان تحت الأرض.

وكانت مدة ملك صدقيا احدى عشرة سنة، وهو آخر من ملك بيت المقدس من ملوك بنى إسرائيل، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يحول، وهو الواحد القهار.

الفصل التاسع

أقدم مدنيات الشرق

مصر

بابل وأشور

الحيثيون والساميون الغربيون

كريت

امبراطورية فارس

دين العبريين

أقدم مدنيات الشرق(١)

ان أقدم المدنيات التى تسترعى انتباهنا، هى :

(١) مدنية مصر .

(٢) مدنية الأمم التى سيطرت، على وادى دجلة والفرات - البابليين والأشوريين.

(٣) مدنية الشعوب التى قطنت بالأراضى الواقعة بين هذه الأصقاع، ورقعة البحر المتوسط الساحلية، سوريا وكنعان، وآسيا الصغرى الشرقية.

(٤) ومدنية كريت التى تغلغلت فى بحر ايجا، وشطر عظيم من منطقة البحر المتوسط. وسنسير قدما بنظرتنا الموجزة على هذه المدنيات إلى الزمن الذى كانت فيه، فى جل أمرها مستغرقة فى امبراطورية فارس العالمية، العظيمة (القرن السادس ق.م). وأخيرا .

(٥) سنلمح إلى طبيعة الامبراطورية الفارسية ومدنيتها حتى الغزو اليونانى المقدونى، الذى قام به الاسكندر الأكبر (٣٣٤-٣٢٣).

مصر

٢- كتب هيرودوت المؤرخ اليونانى الذى زار البلاد فى القرن الخامس قبل الميلاد «أن مصر هبة النيل» والتربة والحاصلات والنبات والحيوان والحياة الإنسانية كلها على السواء، يقرر أمرها النهر العظيم وهو الذى، قبل مجئ الإنسان بزمن مديد، عمل على توسيع كسر فى الحجر الجيرى، إلى فجوة وملأ الفجوة بركام من المرتفعات الجنوبية وبطغيانه على البحر المتوسط كون الدلتا. والقطر واحة طويلة ضيقة تمتد سبعمائة وخمسين ميلا من الشلال الأول، الحد

(١) تراث العالم القديم و .ج دى بورج - ترجمة زكى سوس - مجلة الأسرة .

الجنوبى القديم، إلى الدلتا. والوادى، ويتراوح اتساعه من عشرة إلى ثلاثين ميلا، تحصره حواجز صحراوية فى الشرق والغرب. ويعتمد رخاؤه، الآن، كما كان يعتمد منذ سبعين قرنا غبرت، على ظاهرة طبيعية عظيمة واحدة، فيضان النيل السنوى، الذى تسببه أمطار الربيع وذوبان الثلوج فى مرتفعات الجنوب القاصية.

وانتظام هذه الأحوال الطبيعية البسيطة يعادله انتظام مماثل فى حياة وعادات الشعب. ولقد عكف الفلاحون تحت حكم محمد على فى القرن التاسع عشر الميلادى على المهام الراتبة عينها من فلاحة التربة وأعمال السخرة كعبيد لأرض أولئك الذين لا نعرف لهم اسما، الذين بنوا الأهرام فى الألف سنة الثالثة قبل الميلاد.

إن ثروة مصر الاقتصادية كانت دائما زراعية وقد أطلق المصريون على بلادهم اسم الأرض السوداء فى التفرقة بين الصحراء «الحمراء» علي الجانبين والتربة الفيضية السوداء فى وادى النيل التى قام الدليل على أنها، تحت نظام للرى محكم، ذات خصب يفوق المعتاد.

والنهر كان الطريق العام الذى تمر عليه تجارة الحنطة إلى مرافىء الدلتا وحلقة الاتصال بين مصر والعالم الخارجى. ومن عهد سحيق حفز عدم انتظام فيضان النيل جهد الإنسان إلى صد غائلة المجاعة التى تحل من حين إلى آخر.

ولا يوجد مكان آخر صاول في مكر الإنسان الطبيعة فى دؤوب على مثال ما صاول هنا. كانت البلاد تشيع فيها القنوات والسدود والخزانات، وأظهر المهندسون فى مصر القديمة فى انشائها تمكنا من الفن الآلى. وخزان بحيرة موريس الفسيح، وهو من عمل فراعنة طيبة فى الأسرة الثانية عشرة (فى أوائل الألف سنة الثانية) ينهض دليلا على نفس الهمة لبلوغ القصد كخزان أسوان، الذى أتمه المهندسون البريطانيون تحت ارشاد اللورد كرومر.

ولقد كان منشأ علمنا ببواكير تاريخ مصر القديم أثناء غزو نابليون (سنة ١٧٩٨). ففى سنة ١٧٩٩ كشف ضابط فرنسى بالقرب من رشيد عن حجر. موجود الآن فى المتحف البريطانى، يحمل كتابة بثلاثة أنواع من الخطوط، الهيروغليفى، والديموطيقى أو الشعبى، والأغريقى. وأسماء الأعلام التى كانت هى بذاتها فى الأغريقية كما فى الهيروغليفى، هى التى أرشدت، بعد دراسة مستطيلة، عن الدليل إلى تعرف الكتابة الهيروغلوفية على الآثار المصرية.

ولقد رأى القرن الماضى كشف الغشاء الذى يخفى الماضى البعيد. بالتدرج. إن الخيال يبهر عندما جلى العلماء حقبة بعد حقبة من التاريخ الماضى، الذى يمتد إلى الوراء، على الأقل، إلى الألف الرابعة قبل الميلاد. وهو ليس مجرد تاريخ حروب وغزوات ملوك، ولكن تاريخ عقائد وعادات وفن وثقافة يشمل سلسلة من المدنيات الزاخرة لم تكن تدور فى خلد الناس إلى ذلك الحين.

وتقدم قصة مصر من أول توحيد لها تحت حكومة واحدة فى الألف سنة الرابعة حتى الغزو الفارسى فى سنة ٥٢٥ ق.م سلسلة من حقب المدنية، كل حقبة بعهودها من الصعود والهبوط، وتفصل الواحدة عن الأخرى فترات من الركود والانحطاط. وقد رجعت أبحاث علم الآثار الحديثة بالسجل إلى الخلف، إلى زمن أبعد عندما كانت قبائل من أصل افريقى.

ولكن أتت عليها الهجرات السامية بالتحوير، تقطن بمراكز محلية يحكمها رؤساء منعزلون. وكان هؤلاء المصريون الذين يرجعون إلى ما قبل الأسرات قد حذقوا فنون صناعة الصلصال والحجر ووضعوا السنة التقويمية التى تبلغ ٣٦٥يوما والتى اتخذها بعد ذلك بأكثر من ٣٠٠٠سنة، يوليوس قيصر ولا يزال العمل يجرى بها حتى يومنا الحاضر.

وفى بواكير الألف سنة الرابعة، نجد مملكتين واحدة فى الدلتا والأخرى فى مصر العليا أدمجهما مينا، أول ملك فى الأسرة الأولى (حوالى ٣٤٠٠) فى

حكومة واحدة. ومن هذه المرحلة فصاعدا يمكن جمع التاريخ المصرى حول قيام وسقوط ثلاث حقب عظيمة من التطور : الدولة القديمة، والدولة الوسطى، والامبراطورية الحديثة.

(١) الدولة القديمة (الأسرات من الأولى إلى السادسة) وصل هذا العهد الذى دام ألف سنة إلى ذروته ابان حكم ملوك الأسرة الرابعة فى ممفيس (من ٢٩٠٠ ق.م) وهم الذين مدوا سيادتهم صوب الغرب على ليبيا وصوب الجنوب على النوبة، واستغلوا مناجم سيناء، ونهضوا بالتجارة بأساطيلهم فى البحر الأحمر والمشرق.

ولقد كانوا اداريين عظاما وبنائين عظاما، ووضعوا نظاما ماليا محكما وحكموا مصر بجيش من الموظفين، وأوصلوا رى البلاد إلى درجة عالية من الكمال، وشيدوا أهرام الجيزة العظيمة لتكون قبورا لهم. ويمكن أن نتعرف مهارتهم فى استخدام الوسائل الآلية والموارد العظيمة للعمل الذى تستلزمه هذه الأبنية من الحقيقة الواقعة وهى أن هرم خوفو بنى بأكثر من مليونى قطعة من الحجر يبلغ متوسط وزن الواحدة منها ٢.١/٢ طنا. وفن هذا العهد، عينه، وخاصة نحت الصور والنقش البارز فى المقابر والمعابد كان على جمال لا يضارع فى أى عهد لاحق للثقافة المصرية.

(٢) الدولة الوسطى (الأسرتان ١١-١٢) سقطت الدولة القديمة فى أواسط الألف سنة الثالثة على أيدى الأشراف أصحاب الأراضى، الذين كانت قد أوجدتهم لما كان فيه خطر عليها. ثم ترادف نحو من ثلاثة قرون من الانقسام، وقد عقد السلطان، كما كان فى عصر ما قبل التاريخ للرؤساء المحليين إلى أن قامت ملكية ثانية مركزة، تعرف بالدولة الوسطى فى طيبة فى مصر العليا تحت حكم الفراعنة أولى الصولة من الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة (٢١٥٠-١٧٨٠) .

وقد أعيدت التجارة على مجال واسع مع بنط (الصومال) فى الجنوب بجوار البحر الأحمر ومع الساميين فى سوريا وكنعان، والشعوب البحرية فى شرق البحر المتوسط. ولقد وجدت فى مصر مصنوعات من الخزف (منويه) ترجع إلى هذا العصر ويظهر على الفن (المنوى) أثر الفن المصرى. وتحت حكم الدولة الوسطى، وصلت الفنون الصناعية أعظم ذروة لها من التقدم، وازدهر الأدب، وإذا كانت فنون النحت يغلب أن تكون تقليدية، فانها تنافس نظيراتها فى الأسرتين الرابعة والخامسة.

(٣) الامبراطورية الحديثة (الأسرتان الثامنة عشرة والتاسعة عشرة) أعقب ختام الأسرة الثانية عشرة فترة غامضة كانت فيها مصر المنقسمة، تحت رحمة الغزاة الأجانب وحكم البلاد بدو ساميون (الهكسوس أو ما يطلق عليهم الملوك الرعاة) يضمون في الراجح سبطا عبريا وقد أعاد أمراء طيبة الوحدة.

ويبدأ أعظم العهود روعة، إذا لم يكن فى الثقافة المصرية، فعلى الأقل فى السلطة السياسية، بقيام الأسرة الثامنة عشرة (سنة ١٥٨٠ق.م). كان المصريون بطبيعتهم شعبا لا ينزع للحرب ولكن الفوضى الداخلية كانت قد أدت إلى تكوين جيش مهنى منظم وغدا فراعنة الامبراطورية الحديثة الحكام العسكريين لدولة عسكرية. وقد غزوا سورية وفينيقية، وحاربوا الميتانى (قبيلة يتولى أمرها رؤساء آريون) والحيثيين على الفرات الأعلى ودانت لهم السيادة من ذلك النهر حتى الصحراء الليبية، وأكناف الحبشة.

وقد وصلت إليهم الجزية مما يوالى البحر المتوسط، فكانت مصر مفتوحة لتجار بحر ايجه الكفتيو وكانت منتجاتها تستخدم فى كنوسوس وأثر فنها الزخرفى الخاص على مهرة الصناع الميسنيين، وقام على تدبير أمور الامبراطورية لفيف عظيم من موظفى الدولة.

وعلى دين الدولة طبقة من الكهنة، منظمة. وكان هذا أعظم عصور الفن المعمارى المصرى. وكان معبد الاله آمون فى الكرنك واحدا من أعظم الآثار الدينية روعة فى الأزمنة القديمة.

وتقوم اليوم على رصيف نهر التيمس مسلة تذكارية أقامها ألمع غزاة الأسرة الثامنة عشرة تحوتى مس سو (تحوتمس) الثالث. وبعد انقضاء قرنين من العظمة الامبراطورية بدأت بوادر الانحلال الذى لا معدى عنه، فى الظهور.

ولقد أثار الجهد الغريب الذى بذله المصلح الدينى اخ ن اتن (اخناتون) (امنحتب الرابع ١٣٧٥-١٣٥٨) لاقامة عبادة اله واحد روحية، شعور الشعب والكهنة . وأخفقت الأسرة التاسعة عشرة فى المحافظة على هيبة مصر فى الخارج.

وقبل ختام السنوات الألف الثانية (ق.م) بزمن مديد، كانت سوريا وكنعان قد أفلتتا من أيدى المصريين، وكانت شعوب البحر فى ايجا تعمل فى الدلتا نهبا وتخريبا، وحدث فى غضون هذه الفترة من بداية نشوء الانحطاط أن قطن العبرانيون فى جاسان وكان الخروج إلى صحراء سيناء ليس متأخرا عن عهد واحد من فراعنة الأسرة التاسعة عشرة (حوالى ١٣٢٠-١٢٠٠).

وفى قرون الانقسام والتفكك الذى أعقب سقوط الامبراطورية الحديثة نجد الرؤساء المرتزقة، الليبيين يحكمون فى الدلتا، وأمراء اثيوبيين فى مصر العليا. وفى أواخر القرن السابع (٦٧٠) غزا الأشوريون الذين كانوا يهددون استقلال مصر ردحا من الزمن، الدلتا تحت امرة أسر حدون.

وجعلوا من مصر ولاية تابعة ويبدأ عهد الحكم الأجنبى. ولما وهنت قوة أشور أمام قوة بابل وأتت فرصة أخرى للاستقلال وفى ولاية ملوك الأسرة السادسة والعشرين (فى سايس بالدلتا ٦٦٣-٥٢٥) نشهد احياء للثقافة قصير

الأمد ومصطنعا إلى حد ما، وإعادة توكيد عقيم للمطامع القيصرية. وقد تحالفت مصر مع ليديا والاغريق الآسيويين وجند المرتزقة الأغريق فى الخدمة الملكية.

وخصص مقر للتجار الأغريق فى نقراش (نوكراتيس ومعناها القوة البحرية) فى الدلتا. وغزا نيخو (٦٠٩-٥٩٣) كنعان وحارب نبوخذ نصر ملك بابل على الفرات. وتقديمه العباءة التى كان يلبسها قربانا عندما أوقع الهزيمة بيوشيا فى مجدو، لمعبد أبولو المليزى فى برانخيدا مثال نوى مغزى عن الاتصال التاريخى بين مصر ويهوذا وبابل واليونان ولكن إعادة الاستقلال كان ذا أمد قصير.

ولما سقطت بابل أمام الفرس كان مصير مصر قد أصبح قاب قوسين. وفى سنة ٥٢٥ غزا قمبيز مصر وظلت البلاد خاضعة لامبراطورية فارس فيما عدا ثورات منقطعة خاطفة حتى مجئ اسكندر المقدونى (٣٣٢-٣٣٠).

٥- وبقى أن نسأل إلى أى مدى أثرت مدنية مصر فى المدنية التى نهضت فى غضون السنوات الألف الأخيرة ق.م. في عالم البحر المتوسط. وإذا ألقينا النظر :

(أ) إلى الدين الذى كان فى مصر كما كان بين السلالات الأولى جميعها، بؤرة الثقافة، فاننا نجد طائفة عظيمة من المعتقدات والعبادات المحلية، وقد وحدها فراعنة الأسرات الأولى فى دين دولة، فيه .

ثم آلهة مركزيون صاغ الكتاب الكهنة من قصصهم وفرائضهم، على سير الزمان، شكلا ذا مذهب راهن وله طابع ثابت. وانها لتحوى اليسير من القيمة الفكرية أو القيمة الروحية ما خلا استثناء وحيدا هو محاولة اخناتن التى أشرنا إليها آنفا، بأن يستبدل العبادات الدينية المقررة بعبادة توحيد لآتن اله الشمس.

ويظهر أن الواعز لثورته كان مثالية فكرية صادقة ولكنها كانت عقيمة ولا

تاثير لها حتى فى بلاده ذاتها. والكتابات الدينية، مثل كتاب الموتى، التى تتعلق باقدار الروح فى حياة أخروية.

وهى مجموعة كان منشؤها فى الدولة الوسطى، واتخذت شكلها النهائى فى زمن الأسرة الثامنة عشرة، كان يسيطر عليها السحر، وتكشف عن تصور مادى تماما للروح. والاعتقاد فى محاكمة خلقية بعد الموت، وهو يرتبط بعقيدة أزوريس.

كان له ثمة قيمة من حيث الأخلاق. وفى نصوص الأهرام المبكرة، يمكن أن نطالع كيف تصور المصريون القدماء نظاما خلقيا فى العالم مرده ما شاع بين الناس من أحكام على السلوك، وفقا للقواعد المرعية، فى الأسرة وفى القرية.

على أنه مع ما تقدم لا يوجد دليل على أن دين المصريين أثر تاثيرا خطيرا فى العالم الخارجى، وعبادة يهوه كان موطنها صحراء سينا. وفى عصر لاحق، عندما تقابل الشرق والغرب تحت حكم أمراء مقدونيين فى الاسكندرية، ذاعت العبادات المصرية، كعبادات ايزيس وسيرابيس، وكذلك الاعتقاد فى الخلود والشفاء بالإيمان الذى يرتبط بتلك الالهة وممارسة القصص الرمزى الخلقى الذي تميز به تعليم الكهنة المصريين وجد ذيوعا واسع النطاق فى العالم الرومانى الأغريقى. ولكن قبل هذا التاريخ كانت ديانات العبريين واليونان وروما قد وصلت إلى نضوجها.

(ب) ومرة أخرى كان ما يسمى «حكمة» المصريين أمرا ذا قيمة علمية يسيرة. لقد كانت موضوعات اهتمامهم العقلية نفعية ولم يظهروا إلا ميلا ضئيلا للعلم الخالص أو الفلسفة. ولقد ابتكروا قواعد يتجلى فيها الحذق، لقياس الحقول والأبنية ولكن كان يعنيهم من الهندسة مساحة الأراضى ولا شىء أكثر. ولم يستبن منهم فى هذا أو فى علم النجوم الذى كان لديهم ادراك للمنهج العلمى.

وعندما كانت تظهر بواق لا قبل لهم عليها فى تقديراتهم فانهم كانووا يهملون أنها ببساطة. وقد كان افلاطون على حق تماما عندما انتقد الرياضيات المصرية بأنها قاصرة على أغراض عملية بحتة.

والطب أيضا كان خليطا من الوصفات الجاهزة والتعازيم السحرية. وتظهر الكتابات الطبية الأولى ملاحظة دقيقة، لجسم الإنسان وعلاج الاصابات بما يمليه الحس العام وآراء عن الوظائف الفسيولوجية التى ربما تكون قد وصلت إلى الأغريق وكانت الحافز للأوائل من رجال العلم الهلينيين، ولكنها ظلت، إلى أن أضاعها البحث عن الأسباب والمسببات، لا أكثر من مجموعات من المعطيات، السابقة للنهج العلمى.

وعندما زار الأغريق البلاد فى عهد الأسرة السادسة والعشرين تأثر خيالهم بطبيعة الحال بقدمها: «أنتم معشر الاغريق أطفال على الدوام إذ لا يوجد رجل هرم بينكم» هذا ما قيل أن الكاهن المصرى أنبأ به صولون. والاحترام للآثار التى طالت عليها الحقب يقويه تحفظ المترجمين الكهنة وما يتسم به من وقار، جعل المسافرين الشماليين يتصورون المثل العليا، فى حدود ما وصلوا إليه من أعمال عقلية جليلة، لعلم شعب له مثل ذلك الماضى البعيد ومن الجهة الأخرى كان تأثير مصر، فى الفنون الآلية، عظيما فى العصور التالية.

(ج) كانت الثقافة المصرية ثقافة فن لا ثقافة أدب، ولو أن القصص الشعبية والفاجعة (الدراما) الدينية نشأتا فى الدولة الوسطى واتاح البردى وهو هبة مستنقعات النيل، للرسائل والسجلات المكتوبة أن تكون قابلة للحمل وسهلة. ولكن كان فى مصر هو الذى فرض طابع نفوذه على العالم الخارجى، كما يتضح من العلامات التى يمكن تبينها فى مصنوعات الخزف والنقوش البارزة فى الصناعة المنوية والميسنية وكان هذا قبل أن يبزغ فجر الثقافة الهلينية.

وعندما أهل ذلك اليوم كان الفن المصرى قد تدهور مع استثناء واحد هو الفن المعمارى. لقد شيد المصريون معابد عظيمة وقبورا واستخدموا الأساطين وطرق العمد للسماح للضوء بالانسياب إلى الأرجاء الداخلية بينما اقتصروا على أبسط الأبنية واعتمدوا فى الزخرفة على النقش البارز الوطئ وعلى اللون. ولقد كان لفنهم المتأخر فى الحفر أثر على فن الاغريق فى مراحله الأولى.

ولكن سرعان ما تجاوزوا تقاليده الصارمة، ولقد أعاد حكم مصر المقدونيون أحياء الفن القومى ولكن ما استنسخه الاغريق كان يجافى الذوق والدقة. واليوم بفضل علماء الآثار فان الحال غير تلك الحال. ان أعمال النحاتين العظيمة فى الأسرات الأولى قد تكشفت فى جمالها لتكون مصدرا جديدا للوحى، لفنانى العالم الحديث.

بابل وأشور

والمدنية الفيضية الثانية العظيمة فى الأزمنة القديمة، كانت مدنية بابل. إن سهل كلديا الفيضى بين مجريى الفرات ودجلة السفليين كان على غرار مصر تحت نظام للرى ملائم قمينا بخصب وفير. ولقد قام فى العصور القديمة بأود جم غفير من القاطنين. واليوم بعد أن دمرت قرون من سوء الحكم رخاءه، يتطلب الأمر كد الخيال ليدرك أن بابل كانت حينا من الدهر، شبيهة بمصر، أحد مخازن غلال العالم الرئيسية حيث كانت المحاصيل تؤتى ثمارا مائتين أو ثلاثمائة ضعفا. وكانت الأرض حتى بعد الحصاد الثانى تهيىء الكثير من المراعى.

وحاضرة الملك التى قامت على شواطئ الفرات وأصبحت من فجر الألف سنة الثانية مقرا عظيما للامبراطورية كانت لحجمها الشارع، أعجوبة الأزمنة القديمة. وكان محيط دائرة السور الداخلى زهاء أربعين ميلا. يقول أرسطو: «إن بابل أمة أكثر منها مدينة».

ولقد أضيف إلى مواردها الزراعية الثراء المستمد من صناعات النسيج ومن تجارة رائجة، ومنذ الألف سنة الثانية، كانت بابل سوق الشرق ومركزا عالميا، اجتذب إلى أسواقه وأرصفته محاصيل الهند وايران.

وكان ملتقى مرور التجارة عبر الطرق الصحراوية إلى الفرات من أقطار البحر المتوسط إلى الغرب. والطريق الطبيعى لتوسع بابل، كان مجاله أعلى النهر لأن سهل كالديا كانت تكتنفه من الجنوب ومن الغرب الصحراء، ومن الشرق هضبة ايران.

وفى الألف سنة الثالثة كان سرجون الأكادى مؤسس أول مملكة سامية قد اجتاح أشور وبلاد ما بين النهرين وتوغل حول شمال الصحراء حتى سوريا

وكنعان وعلى هذا، فمنذ زمن مبكر تجاوز البابليون حدود مدنية سهل فيضى لتكون احدى مدنيات البحر المتوسط.

ولو أنهم عندما بلغوا البحر، لم يستخدموه إلا قليلا. وخلال ألفى سنة كان حكام وادى دجلة والفرات يتطلعون صوب الغرب إلى مياه البحر المتوسط كهدف مطمحهم.

كانت ثقافة بابل وأشور التاريخية سامية ولو أنه قبل هبوط الساميين من بلاد العرب، أنشأت القبائل الوطنية مدنية تعرف بالسومرية (سومر - كلديا الجنوبية) ووضعوا أسس الدين واللغة والقانون والرى والحياة المتحضرة التى ظلت أمدا طويلا بعد أن وطد الساميون سيادتهم. وقطع الجواهر هو فن مهرة البابليون، وكان قد بلغ فى الأزمنة السومرية درجة عالية من الكمال.

وكانت النقوش تحفر بالكتابة بالصور وبعد ذلك بالخط المسمارى، حروف (رءوس سهام) وانا لنقرأ عن المشاهدات الفلكية ووضع كتب النحو والمعاجم وانشاء مكتبة ملكية.

وفى أواخر الألف سنة الثالثة أو فى بكور الثانية نجد أسرة تعرف بالأسرة البابلية الأولى، ومقرها بابل ومنذ ذلك الحين صارت عاصمة آسيا الغربية. والدين له كل الخطر فى تارخ بابل وكانت طائفة الكهنة تستحوذ على ثروة وسلطان عريضين، وكان الملوك يعتمدون كثيرا على حظوتهم.

وحتى فى أيام سيطرة آشور لم يكن المغير يستطيع أن يستوثق من دولته فى بابل الا بتقديم فروض الاحترام لمردوك.

ولقد كان حمورابى، أعظم ملك فى هذه الأسرة، هو الذى ركز العبادات الدينية المحلية فى كلديا فى عبادة مردوك الاله - الراعى ، لبابل.

وقد نظم حمورابى المذهب الادارى للامبراطورية وأخضع عيلام إلى

الشرق وأشور إلى الشمال وبسط سيادته حتى سواحل البحر المتوسط وتقوم الأدلة على ثقافة عصره من الآثار الأدبية العظيمة التى تضم الواح عقود ورسائل ملكية. ولكن أهم أثر تذكارى لحكمة هو مدونة القوانين التى كشف عنها فى السنوات الأولى من هذا القرن علماء الآثار الفرنسيون فى سوس.

وهذه المدونة . أحكام الاستقامة التى وضعها حمورابى، الملك العظيم – نظمت فى دقة واحكام القانون المدنى فى بابل ويشمل الملكية والعقود والزراعة والتجارة وأعمال المصارف والزواج والتبنى والإرث وكذلك سير المرافعات القضائية.

وتشهد على المكانة الهامة التى كانت بابل قد وصلت إليها فى تجارة الأمم. وهى تكون مذهبا محكما لقانون الدولة، ولو أن آثارا منها ترجع إلى ما جرت عليه العادات الأولى مثل قانون حكم الله والقصاص بالمثل (العين بالعين)، وهى تمثل تقدما عظيما بالقياس إلى قانون العادات فى المجتمعات الأولى. وقد حرم الانتقام بسفك الدم وقصر تطبيق شرعة المثل بالمثل على اجراءات المحاكم المقررة، والناس من كل الطبقات، الغريب والمولود فى البلاد، على السواء تنتظمهم حماية القانون.

ومن الطرافة بمكان بالغ أن تقرأ كيف أن أمثال هذه المسائل الحديثة كالاعفاء من الخدمة العسكرية وثبات الملكية والتعويض عن التحسينات الزراعية ورقابة تجارة الخمور، وودائع المصارف، والمسئولية عن ديون الزوجة والحقوق الشرعية للنساء والأطفال نظمها هذا الحاكم البابلى فى ختام السنوات الألف الثالثة ق.م.

وبامتداد المدنية البابلية إلى سوريا وفلسطين فان مدونة قوانين حمورابى والقانون الذى جاء بعد ذلك مستندا إليها وضعا طابعها على تشريع الساميين الغربيين.

وظلت المدونة نفسها نافذة المفعول زمنا مديدا فى العهد المسيحى وأثرت بعد ذلك على شرائع غزاة الشرق المسلمين[1]. وغدا يبرز البابليون كقوة تعمل على بسط المدنية فى آسيا الغربية .

وانتشرت فى كل ربوع الشرق لغتهم وعملتهم ومعايير أوزانهم. وكانت نساؤهم يستمتعن بمركز قانونى توفرت فيه الكرامة لهن. وكان فى قدرة الإنسان أن يمتطى متن دابته فى أمان من الخليج الفارسى إلى البحر المتوسط تحت حماية قوانين حمورابى.

وبتقادم أعوام السنوات الألف الثانية، حل الوهن بمملكة بابل ونهضت فى الشمال سلالة جديدة تصعد نحو العظمة، على شواطئ دجلة، حول نينوى. وهذا الشعب، أبناء أشور أو الأشوريون وهم مستعمرون ساميون من بلاد بابل ومن رعايا حكامها فى بادىء الأمر، أصبحوا غزاتها حوالى سنة ١٣٠٠ ق.م.

وقد كان البابليون شعبا من الزراع والتجار. وكان الدين أجل قدرا فى أوضاعهم العامة من فن الحرب. أما الأشوريون فعلى النقيض كانوا منذ البداية إلى النهاية سلالة حرب. وكان ملوكهم قادة تحت امرتهم أشراف عسكريون. ولما كانوا أكثر شعوب الشرق الأخرى غلظة وقسوة فان تاريخهم هو سجل حروب وغزوات. وما اكتسبوه من ثقافة استعاروه من بابل. وكان التقدم الوحيد الذى حققوه هو البناء بالحجر كما كانوا يبنون بالآجر. وتسجل الثيران المجنحة الضخام والألواح المنقوشة فى المتحف البريطانى قصة متواصلة عن الحروب الوحشية.

وقد كتب أحد الأمراء الأشوريين القدامى عن أعدائه: «ملأت بجسومهم

(١) هذا الكلام محل نظر لأن هناك اتهام باطل بأن المسلمين أخذوا شريعتهم من قانون حمورابى كبرت كلمة تخرج من أفاوههم إن يقولون إلا كذبا .

وديان الجبال وقللها، بترت رءوسهم وتوجت بها حيطان مدائنهم، وجلبت العبيد والغنائم والكنوز، أشياء لا تحصى». وكان الأشوريين يخلصون، في تعصب، لدينهم، وكانت جميع انتصاراتهم باسم الههم أشور ولمجده.

ولكن لم يكن للكهنة الا أثر قليل فى استشاراتهم. وكان امراؤهم أول من استبدل الاقتراع السنوى بجيش دائم وكانت انتصاراتهم الحربية ترجع إلى حد عظيم إلى ادخال الفرسان لشد أزر المركبات.

ويشهد على قدرتهم على تنظيم الامبرطورية، طبقات الموظفين المحكمة، وفرض ضريبة سنوية ثابتة على الأقاليم، وبلغت قوتهم أوجها فى ثلاث حقب فى تاريخهم، فى القرن الثانى عشر، ومرة أخرى فى غضون القرن التاسع، ثم فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن السابع. ا

وكان فى القرن التاسع أن نزل سوط الجيوش الأشورية على سوريا وكنعان وأطاح بمملكة إسرائيل ووصل إلى شواطئ البحر المتوسط.

وسقطت السامرة مقر حكم المملكة الشمالية (الافرايمية) التى حاصرها شالمنسير الرابع، أمام سرجون عام ٧٢١. وقد رأينا كيف اجتاح سنخارب، بن سرجون، بعد ذلك بعشرين عاما، مملكة يهوذا وهدد مصر بالغزو وكيف أن الغزو نهض به بعد جيل من الزمان، خليفته سرجون الذى امتدت امبراطوريته من هضبة ايران حتى صحراء ليبيا والشرق الأدنى وشملت أيضا مرتفعات ميديا وجزيرة قبرص. وأعقب موته (عام ٦٦٨)، تدهور قوة أشور، فقبل ختام القرن، هوت بها الحال إلى عقد تحالف مع الميديين والبابليين الذين استردوا استقلالهم فى عهد نابوبلسر. وبسقوط نينوى (٦١٢) توارت امبراطورية أشور من التاريخ وسرعان ما طوت رمال بلاد ما بين النهرين سجلاتها.

ان مجدها تعفى وانقضى. من نينوى باقية الذكر. إلى أن أزاح بوثا وليار، فى القرن التاسع عشر الميلادى الأحجار التى تقص قصة شراستها وغزواتها.

وتقاسم الظافرون الأسلاب فيما بينهم، ما خلا مصر التى استعادت استقلالها فى سنة ٦٦١، بعد سنوات أربع من الخضوع. ولكن انتصارهم كان قصير الأمد. وقد انحطت قوة ميديا سراعا بعد موت مؤسسها قواكسرس أما قوة بابل فقد بلغت ذروتها فى عهد نبوخذ نصر (٦٠٥-٥٦٢) الذي أخضع سوريا وبيت المقدس وحمل أهل يهوذا إلى الأسر فى بابل (٥٨٦).

وقد جعلت أبنيته ومعابده وقصوره وجناته المعلقة من بابل احدى عجائب الدنيا. ولكن قبل مضى زمن طويل حل بأسرته المصير المقدر أن آجلا أو عاجلا، على كل امبراطورية شرقية. يهبط المحاربون الأشداء من المرتفعات المجاورة إلى السهول الخصيبة ويظفرون بمستعمرة جديدة ويلمون شملها لتخضع فى دورها، عندما يمتص الترف العصارة الحيوية فى قوة حكامها وشعبها، لسلالة جديدة من الغزاة.

ونجد الفرس الآن (٥٥٣) وهم زراع أولو نشاط ينزعون للحرب، ومن الجذع الهندى - الأوربى ويسكنون الصقع الجبلى إلى الشرق من الخليج الفارسى قد قاموا ضد أسيادهم الميدين تحت امرة زعيمهم قورش.

وبعد انقضاء أربعة عشر عاما (٥٣٩) يغزون بابل. وتمر ألفا سنة من السيادة وإذا الامبراطوريات السامية تكون قد هوت ولون آخر من المدنية جديد، من أصل آرى يبسط سلطانه على الشرق.

وقد أدى امتداد سلطان الامبراطورية البابلية وسيادتها التجارية فى آسيا الغربية إلى انتشار ثقافتها على مساحة أعظم مما كانت عليه الحال مع مصر. وكانت تلك الثقافة أدبية وليست فنية ولو أن قطع الأحجار الكريمة وصناعة النحاس والتطريز وما إلى هذه الفنون ازدهر فى بابل وغدت حلل بابل مضرب الأمثال فى أرجاء العالم القديم.

وكانت العمارة الوطنية من الآجر ولا شكل لها، نسبيا، وكانت المعابد، وهى أبنيتهم الرئيسية، تقوم على منصات مستطيلة وترتفع فى طبقات متتابعة إلى علو عظم.

وبعد ذلك استخدم الأشوريون أحجارهم الوطنية وزينوا قصورهم بتماثيل هائلة وبالرسوم البارزة بروزا وطينا التى يعهدها كل زائر للمتحف البريطانى. وتنهض ثلاث مسائل فيما يتعلق بتأثير الثقافة البابلية على أهم مدنيات الأزمنة القديمة. أولا يوجد تشابه وثيق بين تقاليد البابليين الدينية وتقاليد العبريين كما جاءت مدونة فى الفصول الأولى من سفر التكوين وفيها نقرأ عن جنة عدن والطوفان والتابوت وعن برج بابل وتبلبل الألسنة.

وقد سرد العبريون كيف أن أجدادهم فى مرحلة بداوة قطنوا مدة من الزمان بكلديا. ومن العسير أن نحكم حكما قاطعا عن مدى رجوع هذه القرابة فى التقاليد إلى الاتصال المباشر مع بابل فى الأزمن البعيدة، وإلى أى مدى للاختلاط الذى حدث بعد ذلك مع شعوب كنعان الذين تمثلوا، على اليقين، ديانة بابل المتأخرة وإلى أى مدى، مرة أخرى، للاتصال المباشر زمن الأسر.

ومهما يكن من أمر هذا، فيما يتصل بتفصيلات التقاليد الدينية العبرية وفرائضهم، تبقى الحقيقة الواقعة وهى أن تطور ديانة العبريين على أيدى النبيين إلى ديانة توحيد روحية كان خلقا مبتكرا متميزا جاءت به العبقرية الدينية العبرية كما كانت فلسفات افلاطون وأرسطوا التى جاءت بها عقبرية اليونان العقلية.

لقد سجل الكلديون مشاهدات دقيقة عن مواقع الأجرام السماوية لمدة تربو على ألفى سنة. وتعرفوا الكواكب السيارة وسموها وقرروا، بالطريقة التجريبية، ترادف حدوث الكسوف والخسوف الدورى واخترعوا المذهب الستينى فى الحساب وقد صنعوا المزولة وهى أداة تبين بظلها، الانقلابين والاعتدالين.

ولقد عرف الأغريق هذه المعطيات وعلى غرار هندسة المصريين التجريبية، حفزتهم على البحث العلمى. ولكن هنا أيضا، مجرد الملاحظة ليس بعلم. ويتضح هذا عندما نبحث عن النفع الذى حققه الفلكيون البابليون من هذه السجلات.

وبينما كشف الاغريق فى قرن واحد من الزمان السبب الحقيقى للكسوف والخسوف، فان البابليين لم يواتهم أبدا حتى أن يصلوا إلى التفسير المعقول لهما. لقد استخدموا معطياتهم لأغراض فلكية خالصة فاذا حدث أن كسوفا أعقبه، مرة، حرب مع عيلام، فان حربا مع عيلام كان قد تنبىء به من حدوث الكسوف.

والملاحظات مهما كانت دقتها، التى ينتفع بها لمجرد أن تكون أساسا لاستنتاجات يجمح فيها الخيال، لا يأتى من ورائها معرفة علمية. وأخيرا كان للمدنية البابلية تأثير صادق فى حياة العالم الغربى الصناعية والتجارية.

والطريق العام التى كانت تسير حول شمال الصحراء السورية عبر آسيا الصغرى إلى سرديس وساحل بحر ايجا كانت حلقة الاتصال بين الشرق واليونان. وعلى الأخص، لاقت العملة والمقاييس البابلية فى الألف سنة الأولى انتشارا واسع النطاق فى آسيا وعالم البحر المتوسط.

واستخدم الهنود والاغريق، على السواء، المنا البابلى الاغريقى كمعيار للوزن. وعلى هذا فمنذ زمن باكر فى بابل إلى الشرق كما فى غرناطة إلى الغرب ولج السامى دوره التاريخى، فى تاريخ البشرية الاقتصادى.

الحيثيون والساميون الغربيون

رأينا كيف أن الثقافة السامية وضعت طابعها على مدنية مصر واستغرقت مدنية السومريين الأوائل فى وادى دجلة -الفرات. وكانت الحال على هذا المنوال فى الأقاليم المحصورة بين بلاد ما بين النهرين والبحر المتوسط. وكانت لغة ودين وثقافة سوريا وكنعان سامية منذ أزمنة بعيدة جدا، ويمكننا أن نميز فروعا متباينة من هذه الأرومة : الساميين الجنوبيين فى بلاد العرب واثيوبيا، والساميين الأواسط فى كنعان، والساميين الشماليين (الأراميين) فى سوريا والشرقيين فى بابل وأشور.

ولكن كلهم على السواء كانوا أولاد بيت عربى واحد وأواصرهم المتبادلة تبرز فى وضوح كأواصر العديد من الجماعات التيوتينية فى أوربا القرون الوسطى وأوربا الحديثة.

وعلينا أن نتحدث الآن هنا عن الفرعين الشمالى والأوسط ويشمل الأول شعوب سوريا والثانى الفينقيين، والقاطنين بكنعان ومن بينهم العبريون. وهذه جميعها، بالنظر إلى موقعها الجغرافى بين امبراطوريتين عظيمتين، تقوم بدور الدول الحاجزة، ولما كانت الوسيطات فى التجارة وبيادق اللعبة السياسية لجارتيهم اللتين تفوقانها قوة، فان تاريخها تقرر مصيره، للخير أو الدمار، علاقتها بأشور ومصر.

وبين هذه الوسيطات قامت أمة، تكاد على التحقيق ألا تكون سامية، بلغت، طوال قرون كثيرة، مرتبة دولة تمت لها القيادة فى آسيا الغربية. وتبين سجلات الألف سنة الثانية، المصريين (فى عهد الأسرة الثامنة عشر) وبعد ذلك، هو نا ما، الأشوريين يصاولون على الفرات الأعلى شعبا يطلق عليه اسم خيتا أو الحيثيين.

ان أصلهم يحيط به الغموض ونقوش كتابتهم التى اتخذت أشكال صور لم تفسر بعد وتاريخهم يزخر بالمشاكل التى تنتظر حلا. ويظهر من المحتمل أن بعضهم، ان لم يكونوا كلهم، كانوا يتحدثون بلغة هندية - أوروبية ودخلوا آسيا الصغرى من الدانوب الأدنى وجلبوا معهم ثقافة ولغة خاصتين بهم.

أتت عليهما بالتحوير، بعد ذلك، المؤثرات السامية التى كانت سائدة فى أرجاء الشرق الأوسط. وكان أول مركز لما استعمروا من أراض، هضبة كبدوكية (بلاد القباذق) حيث كشف عن الكثير من الآثار الحيثية، ثم اتسع نطاقها حتى شمل كيليكية وشمال سوريا وشعوب غرب آسيا الصغرى (أفروجيا وليديا) حدث هذا بين عامى ١٧٠٠ و ١٢٠٠ ويظهر أنهم حوالى هذا التاريخ الأخير، فقدوا سيادتهم على آسيا الصغرى والطرق إلى تجارة البحر المتوسط والبحر الايجى، وربما كانت ترتبط هذه الحوادث بالغزوات الشمالية فى منطقة بحر ايجا وسقوط سيادة كريت البحرية.

ومنذ هذا الوقت فصاعدا حول الحيثيون السوريون وأسياد آسيا الصغرى الجدد (ربما كانوا أفروجيين) نشاطهم إلى الشرق، والجنوب الشرقى وقد اجتذبتهم موارد ما بين النهرين الغنية. ومن مركز رياستهم الجديد فى قرقميش فى أعالى الفرات.

أصبحوا يسيطرون على الطرق البرية العامة بين الشرق والغرب. وتعاملوا على قدم المساواة مع مصر وأشور كليهما.

ولعدة أجيال رأسوا تحالفا أوصد الطريق أمام توسع الساميين. المساكين بلاد ما بين النهرين، صوب الغرب وفى القرنين التاسع والثامن انخذلت قوتهم تحت وطأة جيوش أشور وأوقع عليهم الضربة القاضية كروسس ملك ليديا فى الغرب، قبل مجىء الفرس بزمن وجيز.

وإذا تجاوزنا الولايات السورية - وهى سامية دون نزاع - التى كانت تقع على طريق القوافل من أشور إلى البحر المتوسط وأصابت حظها من الثقافة من مصر بصفة جزئية، ولكن أساسيا من البابليين، فاننا نصل إلى الأراضى الساحلية فى كنعان الشمالية حيث كان يستوطن، على الأقل منذ السنوات الألف الثالثة، الفينيقيون الساميون، وكانت حياتهم بأجمعها تتركز فى التجارة البحرية.

ولما كانوا يستحوذون على رقعة من الأرض ضيقة، فى موطنهم، فقد أقاموا الحصون والمحطات التجارية فى محاذاة الطرق العامة الداخلية وخاصة حول شواطئ البحر المتوسط. وكانت صيدا فى الأزمن الأولى، المدينة الفينيقية الهامة.

وحوالى القرن الثانى عشر تخلت عن مركزها لصور. وانا نقرأ فى العهد القديم عن التحالف الذى عقد فى القرن العاشر بين داود وسليمان وحيرام أمير صور. وكان الفينيقيون يسكنون دول - المدن، تحت حكومة ملكية، وبهذا كانوا يستبقون، ولو فى نتائج جد متباينة، دول - المدن فى العالم الهلينى. ويقع عصر القوة البحرية الفينيقية العظيمة وجلائل أعمالها التجارية بين سنتى ١٢٠٠و٨٠٠ فى أعقاب سقوط قوة منويا البحرية فى البحر المتوسط وقبل نهوض اليونان.

وقد كانت سفائن فينيقية التجارية العظيمة تبحر صوب الغرب إلى ما وراء عمد ملقارت (جبل طارق) فى عرض المحيط الأطلنطى، واستوطنوا تارشيش (طارطسوس على مقربة من قادس وجابوا ساحل مراكش بحرا وتوغلوا أيضا صوب الشمال إلى البحر الأسود.

وأينما أبحروا، كانوا يقيمون المستعمرات، فى صقلية وأسبانيا وأفريقيا وأقدم ما جاءت به المدونات كانت أوطيقا فى أفريقيا الشمالية (حوالى ١١٠٠)

وأبعدها صيتا كانت قرطاجنة ويترادف الزمن نبذت قرطاجنة اعتمادها على المدينة وطنها، صيدا وبسطت سيادتها على الأرض التى تجاورها فى أفريقيا.

وأنشأت مستعمرات لها ووضعت حكرا على التجارة فى مياه البحر المتوسط الغربية. ولا تزال باقية بين أيدينا نسخة اغريقية ترجع إلى القرن الخامس لرحلة قام بها حنو القرطاجنى إلى ساحل أفريقيا الغربى.

ومنذ القرن السابع كانت قرطاجنة مشتبكة فى صراع تجارى لا ينقطع مع المدن الاغريقية فى صقلية وفى الغرب استمر حتى القرن الثالث عندما استدعت الحال مجابهة قوة روما التى كانت تسير فى صعود.

وقد وجد الفينيقيون فى مناجم الفضة فى أسبانيا مصدرا لثروة هائلة. وكان أحد نتائج هذا الكشف هو انخفاض قيمة الفضة بالنسبة لقيمة الذهب، وقد كانت حتى ذلك الزمن يسر العثور عليها فى آسيا وأفريقيا، كمعدن له أعلى قيمة.

واحتكر الفينيقيون أيضا حينا من الزمن، صبغ الأرجوان الذى يستخرج من الرخويات البحرية. وبعد القرن الثامن فقدت فينيقية استقلالها. وفى زمن لاحق أمدت أسيادها الجدد الفرس بالأسطول. وكنا نغتبط أن يكون لدينا مزيد من المعرفة عن الاقتصاد الداخلى لهذه المدن العظيمة حيث كان تصادم المصالح مصدرا للقلق الدائم.

ومع كل ما وصلوا إليه من حذق فى التعدين وصناعة المعادن وجسارتهم فى البحار، فان الفينيقيين لم يكونوا مبتكرين. لقد كانوا الوسطاء العظام فى زمنهم وكان عملهم ببساطة، أن يوزعوا منتجات البلدان الأخرى على شعوب عالم البحر المتوسط.

ويدين سكان كنعان الساميون، إلى جنوب فينيقية بأهميتهم التاريخية لما

كان يربطهم من أصرة وثيقة مع العبريين، بعد الفترة التى أمضاها العبريون على تخوم مصر، وانقاذهم على يد موسى -عليه السلام- فى الأسرة التاسعة عشرة، تجولوا فى صحراء سيناء إلى أن نجدهم يستقرون فى قادش فى جنوبى كنعان. وسنرى كيف أن موسى كان قد أوجد أمة عبرية باقراره عبادة يهوه[1] كدين قاصر على الأسباط العبرية. وبعد ذلك ببضعة أجيال، عندما دخل العبريون كنعان، تشبعوا بثقافة السكان الأولين وتحت التأثير الكنعانى، أبدلوا عادات البداوة بحياة زراعية مستقره.

وفى ختام الألف سنة الثانية نجم عن الكفاح مع الفلسطينيين وهم شعب غير سامى[2] وربما كانوا مهاجرين من كريت، قيام النظام الملكى فى عهد شاءول البنياميني واستهلال حقبة قصيرة من الرخاء الدنيوى، واخضع داود الشعوب التى تربطها وشائج القرابة، مواب، وادوم، وعمون، والممالك السورية إلى الشمال.

وفى عهد خلفه سليمان، نمت التجارة وصار للعبرانيين اتصال أكثر قربا بالثقافتين المصرية والبابلية، وأصبحت الحياة أكثر ترفا وحجبت، ببساطة، العادات القديمة بمدنية البلاط الحضرية.

وبموت سليمان (حوالى ٩٣٢) أعلن الإسرائيليون الشماليون يقودهم سبط افرايم استقبالهم عن الجنوب (يهوذا).

ودامت الملكية المنقسمة فى أقدار متقلبة، مدة تزيد على مائتى عام، وقامت المملكة الشمالية، وكانت أقوى المملكتين، بدور عظيم فى السياسة الدولية فى عهد بيت عمرى الذى سجلته الواح أشور.

---

(١) كل نبى دعا إلى عبادة الله تعالى وحده .

(٢) هذا محل نظر لأنه معروف أن العرب ساميين أى ينتسبون إلى سام من نوح عليه السلام-

ولكن كان من الواضح أن الموضع موضوع زمن ليس غير إذا أنهم وقعوا تحت وطأة جيوش الشرق. وفى سنة ٧٢١ سقطت السامرة، أمام سرجون الأشورى وتوارت عن الوجود المملكة الأفرايمية. وأنقذ يهوذا، فترة من الزمان، اعتراف ملوكها بولائهم فى الوقت المناسب، وفشل سنخارب فى مصر (٧٠١) إلى أن حلت بابل محل أشور كدولة دانت لها السيادة فى الشرق.

ثم على يدى نبوخذ نصر حلت ساعة مصيرها المحتوم (٥٨٦) واستطال زمن الشعب العبرى فى الأسر عند انهار بابل إلى أن حملهم قورش مؤسس الامبراطورية الفارسية على العودة إلى استيطان موطنهم القديم (٥٣٨) وكان فى هذا العهد أن العبريين - وقد أصبحوا على عقيدة دينية محضها الألم وشريعة تجددت تحت تأثير المعلمين الذين ينزعون إلى النبوة، ولو أنه كان لهم شأن يسير فى المجاملات الدولية الدنيوية - استهلوا رسالتهم الروحية للبشرية.

كريت

ألقينا نظرة شاملة على مصر وبابل وأشور وكنعان وسوريا حتى النصف الأخير من القرن السادس ق.م. عندما طوتها امبراطورية فارس القوية بين حناياها. ولكن لايزال علينا أن نتحدث عن سلسلة أخرى من مدنيات قامت فى كريت وجزائر بحر ايجا وشواطئه.

ترى من كان شعوب البحر هؤلاء الذين تسميهم الآثار المصرية (داردنويين واقيوشيين) وهما اسمان يقاربان اسمى دردانيين (= الطراوديين) واخائيين، اللذين جاءا فى هومر.

وثمة طرافة خاصة يلمسها المتتبع لتاريخ هذه السلالات الايجية الأولى علاوة على طرافه لكشوف لعجيبة التى رفع النقاب عنها علماء الآثار فى السنوات القريبة، فى أنهم كانوا السابقين الأولين للاغريق.

فمنذ سبعين سنة خلت، لم يكن يعرف الا النذر اليسير أو لا يعرف - شىء ما على التحقيق، عن حياتهم وتاريخهم. وكان الرائد لعلم آثار ايجا هو هينريش شليمان .

لقد أثارت خياله وهو صبى فى حانوت تاجر فى ألمانيا، القصص التى جاءت فى أشعار هومر، فعلم نفسه الاغريقية وأصاب نجاحا فى العمل واكتنز مالا وفيرا .

وكان هدفه الأوحد هو أن يحقق بالبحوث فى موقع طرواده الهومرى صدق قصص الألياذة وفى حصارلك فى الطرواد (شمال غرب آسيا الصغرى)، موقع طرواده كما ذهبت إليه الشائعات. وفى ميسنيا وفى طرونس، فى بلوبوتيسس، أزاح التراب عن معالم مدنية عظيمة يرجع تاريخها إلى الألف سنة الثانية قبل الميلاد.

واقتفى العلماء من جميع الأمم خطواته ويأتى كل عام بمزيد على كنوز المعرفة الوفيرة التى كشف عنها على هذا المنوال، عن حياة منطقة ايجا الأولى وثقافتها، ويمكنا هنا فقط أن نرسم الخطوط المجملة لبعض النتائج الرئيسية التى كشف القناع عنها.

فى غضون السنوات الألف الثالثة قامت فى جزيرة كريت مدنية باهرة متباينة الأشكال اتسع نطاقها على مدى الزمن حتى شمل جزر بحر ايجا ورودس وقبرص وشبه جزيرة اليونان والجزائر الايونية وتشعبت أفرع لها بعد ذلك فى سوريا الشمالية وصقلية وفى غربى البحر المتوسط وأدت إلى التواصل مع فلسطين ومصر. وأطلق عليها اسم منوية باسم منوس واضع القوانين وصديق زيوس الذى جاء فى الأساطير الاغريقية وتوجد ذكرى سيادته على البحر محفوظة فى صفحات ثقوديدس.

والسلالة التى قطنت بكريت فى أزمنة ما قبل الهلينية لم تكن آسيوية ولكنها من سلالات البحر المتوسط وتنتمى على ما يرجح كثيرا إلى الأرومة غامقة اللون طويلة الرأس، قصيرة القامة الناحلة الجسم التى كان موطنها الأصلى فى شمال أفريقيا. ان كريت حلقة اتصال طبيعية بين أوربا وآسيا وأفريقيا وأصبحت على الزمن مركز امبراطورية بحرية تجارية قوية.

وكانت مدنيتها لها لون يتميز عن مدنيتى مصر وبابل وبلغت ذروتها أولا عند استهلال الألف سنة الثانية (الفترة المنوية الوسطى الثانية عندما كانت الأسرة الثانية عشرة تتولى الحكم فى مصر ومرة أخرى، بعد ذلك ببضعة قرون (الفترة المنوية المتأخرة)، فى وقت معاصر للأسرة الثامنة عشرة المصرية، وعلى هذا فقد ظل ازدهارها متواصلا قرابة ٦٠٠عاما.

ولقد كشفت الحفائر الحديثة فى كنوسوس وفايسطس وغيرهما من الأمكنة عن قصور ملكية رائعة تزخرفها النقوش البارزة المنحوتة والصور

وتحوى كنوزا من صناعة المعادن، من الذهب والبرنز والنحاس ودمى من العاج والصينى وجواهر محفورة وخزفا فى بدع نادر.

وكلها تقدم الأدلة الكافية على المستوى العالى الذى وصلت إليه الثقافة والتهذيب. وقصر كنوسوس بما فيه من تيه الغرف، طبقات بعضها فوق بعض والمجازات والساحات، هو فى ذاته مدينة وهو قصر التيه (الليورنت) الحق، الذى كان فيه الأسرى، كما جاء فى الأسطورة واستبان الآن أنها سجلت صدقها التاريخى، يقادون فى ميدان مصارعة الثيران كقرابين للوحش المقدس الذى كان معبود كريت.

وكان نظام المصارف والمرافق الصحية خليقين بالقرن العشرين بعد الميلاد. وعندما استعرضت أمام عالم فرنسى أردية النساء فى صور الحيطان هتف : «ولكن انهن لباريسيات» . ولقد صورن فى لبوس محكم بذراعات مطرزة قصيرة وأردان واسعة وقمص طوال الشق من الأمام ونطق صغار الصدار خيطت عند أعلى حوافها شرط أو اتخذت شكل ناقوس، وبنيقات عالية كتلك التى كان يتخذنهن سيدات الحاشية فى انجلترا على عهد اليصابات.

وكانت شعورهن مزرفنة (مجدولة كالزرفين وهو الحلقة ومجعدة ولها أربطة من الدانتلا. وكان يلبسن قبعات مظلة تزينها شرط وورود. وكان الرجال يحلقون شعر الوجه ولهم شعر طويل مضفور فى حلقات وله عقائص على الكتفين ويرتدون سراويل وأحذية عالية متينة ويتمنطقون بأحزمة عند الوسط وعلى غرار النساء يتزينون بالعقود والدمالج.

وكان مهندسو كريت المعماريون والبناءون بالحجر ينافسون أولئك الذين كانوا فى ممفيس وفى طيبة. وكان الكريتون أول شعب معروف فى أوربا استخدم الكتابة، وقد وجدت نقوش فى حروف تشبه الهيروغليفية وحروف خطية على السواء، بوفرة ..

وعندما يثبت أن الجهود التى بذلت لتفسيرها حققت نجاحا فسنعلم المزيد من التاريخ المفصل لعالم البحر المتوسط الباكر ومع هذا فان ما نعلمه علم اليقين، هو أنه قبيل منتصف السنوات الألف الثانية كانت ثقافة متناسقة الشكل قد مدت رواقها إلى حد بعيد فيما يلى تخوم المنطقة الايجية، وإلى مراحلها المتأخرة ينتمى كشوف شليمان فى طرونس وميسنيا ومن المحتمل أنه عندما هوت كريت من عليائها ورثت ميسنيا موطن أجاممنون الهومرى نصيبا من قوتها البحرية.

ومهما يكن من أمر هذا، فإنه توجد أدلة واضحة على أنه فى تاريخ يقرب من سنة ١٤٠٠ حلت بالمدينة المنوية فى كريت جائحة أطاحت بها وتقص أطلال قصر كنوسوس المتفحمة قصتها. ويرجع الكثير إلى فعل الزلازل.

ولكن الغزاة الهمج من الشمال كانوا يتداعون فى جماعات، متواليات على العالم الايجى – وكانوا محاربين أجلافا يتفوقون بالعدة والسلاح، وأخيرا، بمعرفة الحديد، ولم يعنوا كثيرا بالثقافة الرائعة التى أطاحوا بها ومن المحتمل جدا أن هؤلاء القوم، الذين يتحدثون لغة هندية – أوربية كانوا سلفا للاغريق الذين يعرفهم التاريخ. وجاء فى أعقاب هذا عصر ظلام استطال زمنه إلى أن نجم عن امتزاج بقايا المدنية القديمة بطبع وعبقرية الأسياد الجدد مولد ثقافة اليونان التاريخية.

كانت شواطىء آسيا الصغرى الايجية كما سنرى وشيكا، اغريقية من أبعد الأزمنة. وعندما قامت المدن التجارية الغنية فى القرنين الثامن والسابع ق.م كانت هدفا طبيعيا لحسد أمراء الأصقاع الداخلية. ان آسيا الصغرى هضبة تنحدر منها الوديان إلى الساحل الغربى تعزلها سفوح الجبال وقد حددت طبيعة البلاد من جبال وسهول تاريخها.

إن المدن البحرية، وقد عزلت الجبال الواحدة عن الأخرى، كانت فريسة سهلة للغزاة من الهضبة الداخلية. وفى السنوات الألف الثانية كان الحيثيون ومن يتبعونهم على الهضبة قد وسعوا نطاق سلطانهم حتى السواحل الايجية.

وفى القرن الثامن اجتاح القمريون الرحل الهابطون من سهول السهوب فى شمال البحر الأسود، آسيا الصغرى وعملوا فى المدن الاغريقية المكشفة من البحر تخريبا ونهبا. وقد دمروا مملكة فروجيا القديمة وضربوا دولة ليديا الفتية ضربة قوية.

وكانت ليديا فى ذلك الوقت (من القرن الثامن إلى السادس ق.م) الدولة الحاجزة بين العالم الاغريقى وامبراطوريات الشرق العظيمة. وقامت أسرة ليدية جديدة تثقف أمراؤها بالثقافة الاغريقية وأعطوا الاغريق مقابل ذلك ما يميز فى المعتاد بأنه اختراع الليديين المبتكر الوحيد، العملة ذات الطابع التى حلت محل المعدن ذى الوزن الذى لا يحمل طابعا والذى كانت تتداوله الثقافة البابلية وغيرها من الثقافات الأولى.

وحوالى عام ٦٥٠ ق.م أصبح كروسس ملكا على ليديا. وطالما كان يخضع الاغريق على سواحل ايجا فى آسيا، فانه كان يحكمهم حكما متحررا ووضع تحت رعايته الدين والثقافة الاغريقيين.

وعندما قهر قورش الفارسى ميديا (عام ٥٤٩) شن كروسس دون أن ينتظر معاونة مصر وحلفائه الآخرين، الهجوم على قورش وأغرمته الهزيمة مملكته (٥٤٦). وصحب سقوط ليديا خضوع الاغريق الآسيويين وأصبحت امبراطورية فارس تمتد من الهندوكوش إلى بحر ايجا.

امبراطورية فارس

فى أزمنة ما قبل التاريخ ترك فرع من الأسرة الهندية - الأوربية موطنهم الأصلى فى أراضى السهوب شمال قزوين وهاجر فى اتجاه جنوبى شرقى. ولقد سار بعضه عبر ممر خيبر إلى البنجاب بينما استقر البعض الآخر فى شرق الهضبة الايرانية العظيمة.

وفى بواكير السنوات الألف الثانية، يممت هذه القبائل الايرانية (سمت نفسها آرية ومن هذه التسمية اشتق الاسمان المحليات آريا وايران) صوب الغرب إلى المرتفعات التى تحف سهول ما بين النهرين وكلديا.

وبعد ذلك بألف سنة، نجد الميديين إلى الجنوب من بحر قزوين والبرتيين فى خراسان والبكتريين فى منحدرات الهند كوش الشمالية والفرس فى الجبال التى تشرف على الخليج الفارسى إلى الشمال الشرقى. وكانت سلاسل جبال الهند كوش وسليمان تقوم حاجزا من جهة الهند.

ولقد أحضر هؤلاء الآريون معهم الحصان وهو من نتاج سهول السهوب ولم يكن للبابليين أيام حمورابى عهد به ولكن استخدمه الأشوريون كعدة حرب. ولقد حملوا معهم كذلك دينا متميزا، يتناقض تناقضا يسترعى البال مع دين جيرانهم الساميين المستوطنين السهل وكان يختلف أيضا - على الرغم من أساس مشترك دأب على المحافظ على نفسه بين الفرس إلى يومنا - عن دين الآريين ذوى قرابتهم فى الهند .

وبينما أخضعت العقيدة الهندية كل الآلهة الأخرى إلى إله أعظم أوحد فان الدين الايرانى كان له مظاهر ثنائية وكان مجمع آلهتهم يأتلف حول قوتين لهما السيادة، الواحدة قوة الخير وهى ايجابية خالقة ومصدر النور والحياة والأخرى قوة الشر وهى الظلمة والموت، وهى سالبة.

وكانت القوتان تسميان على الولاء، أهورامزد (أورمزد) وأهريمن والصراع خارق العادة، بين هاتين القوتين الالهيتين غدا ينعكس فى مجرى تاريخ البشر وبين الاثنتين، يقف الإنسان وقد وهب الحرية الخلقية التى يتوقف على استخدامه مصيره فى العالم الذى يقع فيما يلى اللحد.

وكان الدين الايرانى ينزع إلى آداب السلوك، ولم تكن آلهته كآلهة الآريين الهنود. معان مجردة تصورية ولكنهم كانوا شخوصا خلقيين ولم يكن هدف الجهد الإنسانى الاندماج التألهى فى مطلق وحدة الوجود ولكن سعادة أبدية فى السماء حيث يحكم أهورا مزدا وما كانت الحياة الإنسانية وما يلازمها من فروض اجتماعية وأفراح وأحزان بخدعة ولكنها المجال للعمل فى همة والقيام بالواجب الخلقى.

وفى اعترافه بقيمة الثقافة الدنيوية واتجاهه إلى غاية يكون فيها الخلاص الفردى وليس الخلاص القومى، فان دين ايران كان يختلف عن دين العبريين وان تشابه معه فى تعليمه الخلقى الرفيع.

وكان الفرس يتسامحون مع الديانات المحلية عندما لا تناصب دينها العداء ومع هذا فان عقيدتهم انتشربت صوب الغرب بتوسع امبراطوريتهم. وفى نقاوته كما نهض به النبى زرداشت،

كان دون ريب، عقيدة القلة أكثر من أن يكون عقيدة الكثرة، وكان من شأنه، بين أيدى المجوس (وهم طبقة من الكهنة) أن يتدهور إلى فرائض رسمية بينما أصبحت الجماهير تفسر تعليمه فى صيغ ديانة ما قبل زرداشت القديمة. وكان مرجع قوته الحقيقية إلى اصراره على المسئولية الخلقية.

ويستعرض فرس التاريخ نوعا نبيلا من الخليقة، لقد ولدوا حكاما للناس وكانوا أولى كبرياء ومسلك يتسم بالأبهة والفخامة محبين للولائم والصيد وذوى

إنسانية فى الحرب ولهم أفضال على الشعوب التى عنت لهم وعلى أهبة أن يقابلوا الأفكار الأجنبية بالتسامح أو قد يستحوذون عليها.

ولما غزا مقدونو الاسكندر فى القرن الرابع امبراطوريتهم كان يمكنهم أن يروا فى أشراف الفرس، وهو فى الواقع ما كان حقا، أنسباءهم القدامى. ولقد أظهر الفرس فى الفن وفى العمارة، القليل من الابتكار وكانوا ينقلون عن النماذج البابلية.

أما التجارة فقد حقروها لأنها كانت غير خليقة بالرجل الحر. وكانت الجندية والزراعة والفلاحة أعمالهم التقليدية. وكان الكذب أعظم الجرائم شناعة. ولقد لخص هيرودوت تدريب شبابهم فى الركوب والرمى بالقوس والصدق فى القول.

ولقد اتخذت فاجعة الامبراطورية الفارسية السمت الذى أصبح مألوفا فى تاريخ الشرق، الغزو فالتنظيم والاحتفاظ بالقوة احتفاظا لا يريم فالتدهور فالسقوط، تتابع كلها فى سلسلة منطقية. ويمثل قورش، المؤسس وأحد بناة الامبراطوريات العظام، فى التاريخ، فترة الغزو. وعند موته عام ٥٢٨، كانت ممتلكاته تمتد من ايجا فى الغرب إلى هندو كوش فى الشرق ومن قزوين فى الشمال إلى صحراء العرب فى الجنوب.

ولقد خلع ملك فارس على نفسه لقب شاهنشاه (ملك الملوك). ولم يكن توكيده هذا لدعواه فى امبراطورية عالمية، دون أساس، لقد كان قمبيز بن قورش هو الذى غزا مصر (عام ٥٢٥) والمستعمرة الاغريقية فى قورينا. ولم يحدث قبل ذلك بتاتا أن مدنية النيل تآلفت بمدنية الفرات فى دولة واحدة. وتتركز الحقبة الثانية، حقبة التنظيم فى شخص دارا بن كشتاسب (٥٢١- ٤٨٦). ان دارا هو طراز الادارى الشرقى على مدى الزمان. وكانت امبراطوريته شاسعة الأرجاء

وهى مريج من جميع الشعوب والأمم واللغات ولا تنظمها وحدة سلالة أو دين أو صالح مشترك، وكانت تنقسم إلى عشرين ولاية أو اقليم يحكمه نائب ملك.

ولكى تكون البلاد بمأمن من خطر نشوب ثورة، وضع دارا زمام السلطتين المدنية والعسكرية فى كل ولاية فى أياد مخالفات، وكانت الوظيفة الخاصة لشخص عظيم الشأن فى سوس مقر الحكم الرسمى، يحمل لقب «عين الملك»، هى الاشراف على الولايات وساعد على تركيز التحكم، نهج رائع للطرق والمراكز

وكما كانت تجرى عليه الأمور فى الامبراطوريات الشرقية، فان الشعوب الخاضعة كانت تحتفظ بدياناتها المحلية وعاداتها ونظمها، بعيدة بعدا تاما عن تدخل الحكومة المركزية.

وكانت علامتا الخضوع دفع جزية سنوية ثابتة والتجنيد لخدمة الميدان. وكان أشراف الفرس يعيشون تربطهم أواصر شخصية وثيقة بالحاكم أما الفرس المقيمون فى الأقاليم فكانوا يكونون مع ممثلين من السكان الوطنيين مجلس الشورى للوالى. وعلى هذا، كان يقوم بالرقابة على الوالى مجلسه وقائد الجيش والحكومة المركزية فى آن واحد ولقد أصبح هذا النهج الذى وضعه دارا النموذج الذى تحتذيه الملكيات الشرقية التى جاءت فيما بعد.

وضم دارا أيضا البنجاب وبلاد العرب إلى الامبراطورية وعبر السبنطس إلى أوربا وتقبل ولاء تراقيا ومقدونيا. وفى ختام حكمه الطويل كان يجمع جيشا لجبا لينهض باخضاع اليونان الحرة. وعلى مثال غيرها من دول الشرق، جهدت فارس فى التوسع صوب الغرب الذى لاقت منه مصيرها المحتوم. ولكن قصة الصراع الاغريقى مع فارس تتصل بفصل آخر.

كان خلفاء دارا طوال قرن ونصف قرن بعد ذلك (٤٨٦-٣٣٨) معنيين

على الأخص بالمحافظة على الامبراطورية التى عمل دارا على لم شملها وقد أدى الوهن الذى حل بالبيت المالك والثورات المتواصلة فى الأقاليم المتطرفة، وخاصة فى مصر، والصراع الطويل مع اليونان على انحلالها على التدرج، وانتقل مركز الثقل فى السياسة العالمية إلى شواطئ بحر ايجا.

وقبيل انتصاف القرن الرابع كانت تعتمد هيبة الفرس على معاونة المرتزقة الاغريق وقادتهم. وأعقب موت آخر حاكم قدير وهو أردشير الثالث (أخوس) فى سنة ٣٣٨ فترة فوضى أتاحت للعدو فرصة فريدة إذ كان فيليب ملك مقدونيا قد دبر حرب انتقام من الغزو الفارسى لليونان، فى القرن السابع.

وفى عام ٣٣٤ عبر ابنه الاسكندر السبنطس وأقام نفسه سيدا على آسيا الصغرى.

وفى عام ٣٣١ حقق أعظم انتصار له فى جوجميلا، وبعد ذلك بعام، يموت آخر خلف لدارا، انتقل اللقب والامبراطورية جميعا إلى الغازى المقدونى. ومن ذلك الوقت، أصبح تاريخ الشرق الأوسط جزءا من تاريخ المدنية الهلينية.

الخلاصة

ولو أن مختلف المدنيات التى مرت أمامنا فى هذا الفصل كانت لها أهمية جوهرية بالغة، فانها، مع استثناء واحد ذات أهمية ثانوية بالنسبة لمستقبل العالم الغربى. وإذا نظر إليها من هذه الناحية فيمكننا القول ألا شىء كان يلائمها أفضل من اندماجها، آخر الأمر، فى الهلينية. وسنرى قريبا كيف أنه عندما أصبح امتزاج الشرق والغرب حقيقة واقعة، وفى عهد خلفاء الاسكندر أثارت أفكار مصر وبابل وفارس الدينية استجابة من داخل نطاق الثقافة الاغريقية - الرومانية. ولكن تلك الثقافة نشأت ونمت فى أوضاعها الخاصة على النقيض من فكر الشرق وعاداته، أكثر من أن تكون بمعاونتهما والاستثناء الوحيد الذى

ألمعنا إليه أنفا هو، دون مراء، دين العبريين، ان دين العصور اللاحقة، فى هذا المجال وكذلك فى مجال الأخلاق، للسلالة السامية، لا يحصى. ان عبريا من طرسوس كانت تنشئته فى أشد مدارس المذهب الفريسى الحق صرامة أصبح رسولا للوثنيين. وعلى هذا فان الفصل التالى سيخصص لدراسة الحقبة الانشائية الرئيسية فى التاريخ العبرى الدينى وعند ذلك سنتحول صوب الغرب، إلى اليونان وروما. وحتى دين العبريين، لم يؤثر تأثيرا خطيرا فى الغرب إلا بعد أن كانت اليونان وروما قد أقامتا دعائم مدنيتها. وكانت الهلينية قد وصلت إلى ذراها قبل أن يشرع رسل الانجيل، بزمن مديد، فى العمل على جعل التقاليد العبرية ملائمة لمزاج وعادات العالم الأغريقى - الرومانى.

لقد كانت الهلينية فى أرفع تعبيراتها كلها، فى الفن والفلسفة والحياة المدنية، الخلق المبتكر العبقرية الاغريق. ولقد أضافت السلالات الأخرى، مواد إلى دعائم بنائها الاقتصادى وحافزا أمام حب استطلاعها العقلى وتركت هنا وهناك كما فى فن العمارة، آثارها فى بعض تفصيلات جلائل أعمال الاغريق.

ولكن الاغريق كانوا يعرفون ما كانوا يرمون إليه عندما قابلوا بين ثقافتهم الخاصة وحياة الهمجية التى كانت تطغى أمواجها حول جماعاتهم الصغيرة من كل جانب. ولقد قامت الثقافة، السحر، وسط عالم غريب كما نهضت الالهة أثينا فى الأسطورة من رأس زيوس ويظهر تاريخ الشعوب المجاورة النقيض ويقدم الاطار للتعبير عنه.

دين العبريين

١- تقديم

ان ديانات عالم البحر المتوسط العظيمة الثلاث، العبرية والإسلامية والمسيحية كلها من أصل سامى. ولأنها لاتزال قوة حية بين الناس فان هذا يقيم الدليل الذى يبقى على الزمن، على قدر العبقرية الدينية التى كانت لدى الساميين. ولقد كان قبول الدينين الأولين مقصورا، على وجه الإجمال تقريبا على الفرص السامى أما الثالث وهو الدين المسيحى فقد حطم منذ زمن بعيد حواجز السلالات وأقام دعواه، كدين عالمى، فى ولاء الوثنى والعبرى ولكن انجيله بشر به للعبريين فى البداية وقام بينهم كتكملة تاريخية لنامو س العبريين ونبوءة العبريين. ويواجهنا السؤال كيف تأتى لعقيدة قبلية لشعب سامى لا خطر له أن تقدم فى غضون نموه التاريخى أساسا لرسالة روحية للبشرية ؟ أين كانت، بين الخصال التى لازمت عقيدة العبريين القديمة وعبادتهم، تكمن البذور لتكونا عامتين ؟ لم يكن لدين العبريين فى مراحله الأولى ما يتميز به كثيرا عن دين شعوب كنعان التى تحيط به.

كيف حدث أنه بينما توارت آلهتهم بانهيار الدول التى كانت تعبدها، سياسيا ظل إله العبريين باقيا بعد السبى وتفرق شعبه ولايزال موضع اجلال الملايين من جميع السلالات فى زمننا الحاضر؟ إن الجواب على هذا السؤال يتكشف فى دراسة أنبياء العبريين.

وكما أن عبقرية الاغريق العقلية وهى تعمل فى مناهج لها نفع عام للفكر الإنسانى، حولت معطيات التجارب التى لم تتناولها يد التهذيب، إلى بنيان من المعرفة التى يدعمها العقل، وكما أن عبقرية روما السياسية صاغت قوانين مدينة ايطالية فى مبادئ قضائية، لدولة عالمية.

كذلك محضت عبقرية العبريين الدينية التى تجلت عن طريق بصيرة أنبيائها، عبادة إله قبلى كانت وظيفته أن يخوض غمار معارك شعبه ضد منافسيه من الهة البلاد الأخرى، إلى عبادة إله واحد خالق الكون الذى يظهر أبوته الروحية فى حكومة بارة تسود أمم الأرض جمعاء.

عندما لم موسى، فى النصف الأخير من الألف سنة الثانية، قبل الميلاد، شمل فريق من العشائر السياسية فى مجتمع واحد، فإنه لم يؤسس أمة وحسب ولكنه أرسى قواعد دين وكان كحامل لوحى دينى، على مثال محمد ﷺ بعد ذلك بألفى سنة، انه استطاع أن ينهض بتحول بعيد الأمد فى عادات البدو الساميين القبلية التى لولا ذلك لظلت باقية على ما هى عليه. وقد ثبت عبادة يهوه لتكون عبادة شعب وبهذا أتى بأمة إلى حيز الوجود ومنذ ذلك الحين صار يهوه إله العبريين الذى أطلق سراح أبائهم من العبودية وقادهم خلال أخطار البرية إلى أرض الموعد.

وكذلك يمكن أن ينسب إلى موسى وضع شعائر عبادة ونظام كهنى. ولقد كونت أحكامه الشفوية النواة لقيام شريعة (التوراة ودين يهوه هذا، كما حمله العبريون إلى كنعان كان علي التحقيق بدائيا ويتخذ إلهه هيئة إنسان. وكانوا يتصورون أن ليهوه شكلا جسميا ومقرا للسكنى وتدفعه العواطف الإنسانية، من غيرة وغضب.

ولقد كان إلها محاربا، رجل حرب، يقاتل دون هوادة لأجل شعبه الخاص ضد أعدائهم وعلى غرار حاكم شرقى كان يطلب مقابل هذا، الولاء والعطايا. ولم يكن همه يتعلق بالفرد ولكن بالأمة وبالأمة خاصة فى أزمنة الحرب.

ولكن يمكن أن نتبين فى هذا الشكل البدائى للعقيدة القومية بذور دين خلقى وان لم يكن دين توحيد، فانه كان صراحة عبادة إله واحد من بين إلهة

كثيرين. ولقد أنفذ الأمر إلى العبريين . «لا تعبد آلهة أخرى غيرى». ولم يكن ليهوه أساطير خرافية أو مجمع إلهة يشتركون معه أو زوجة - إلهه كما كان طابع العبادات الكنعانية.

إنه كان مصدر الحق والعدل وقدس أقداسه مستودع القانون المعترف به. ويكتب عالم معاصر نابه «إن فضل موسى العظيم يرجع إلى الحقيقة الواقعة وهى أنه ألف بين الفكرة الدينية والحياة الخلقية» وكانت تربط يهوه بشعبه الآصرة الشخصية التى تكون بين أب وبنيه، آصرة لا تستند إلى وشيجة طبيعة من قرابة الدم ولكن إلى الاختيار والإرادة.

لقد اختار يهوه العبريين وتقبل العبريون يهوه، ونجد هنا أصلا مبدأ «العهد» الذى جاء فيما بعد. ولقد كانت هذه العقيدة الخلقية التى تمثلت لعبرانى ذلك العصر فى مناصرة يهوه للعبريين ضد أعدائهم هى التى حفظت الأمة الناشئة من أن تطويها مدنية الكنعانيين السابقة لها.

وكان الاستقرار فى كنعان عملية امتزاج بطيئة تركت، عرضا، علامات فى دين العبريين. وكما عرف المهاجرون البدو من جيرانهم عادات حياة الزراعة فانهم استحوذوا معها على عبادات آلهة الكنعانيين (بعليم - أسياد البلاد). ولم يكن هؤلاء البعليم. على غرار يهوه، آلهة حرب ولكنهم كانوا آلهة طبيعة مسالمين تتمثل فى شخوصهم قوى الخصب والحياة المنتجة ويتألفون أزواجها، ذكرا (بعل) وأنثى (عشتاروت).

ولهم ديانات محلية متباينة تصحبها الشهوة المخزية ولو كانت عملية الامتزاج سلمية بجملتها، فربما كان دين العبريين قد هبط فى يسر إلى مستوى الدين الكنعانى ولكان يهوه قد اندمج فى البعليم ولما ترك العبريون طابعا على تاريخ البشر الروحى.

ولكن كان على الغزاة أن يحاربوا لأجل ميراثهم ولقد حفظ شخصيتهم الدينية والقومية، ما وقع من حرب متواصلة. وظل يهوه بين كل ما تمثلوه من العبادات الكنعانية كالمرتفعات والصور الخشبية لعشتاروت أو العمد المقدسة، إله شعبه المختار.

وأغنية دبورة وهى واحدة من أقدم شذرات أدب الشعر العبرى، لا تزال باقية لتبين كيف أن عقيدة يهوه ألهمت عشائر العبريين فى تلك المعارك القديمة مع الشعوب المحيطة بها.

وقد عملت على تقوية الشعور بقومية متميزة، الحروب مع الفلسطينيين فى القرنين الحادى عشر والعاشر التى نجم عنها قيام النظام الملكى فى شخص شاول البنياميني وغدا يتجسم فى الملك الاستقلال الدينى والقومى فى نفس الوقت. ومن ذلك الوقت فصاعدا، أصبحت عبادة يهوه، على الرغم من طائفة عظيمة من اضافات كنعانية، الرمز المعترف به لمصير العبريين الذى تميزوا به.

وإذا نحينا إلى جانب المشاكل الغامضة عن أصل عبادة يهوه، وإلى الجانب الآخر، أرجأنا النظر فى تطور دين العبريين تحت تأثير النبيين إلى دين توحيد خلقى خالص النقاوة، فإننا نلحظ الخصال التالية الملازمة لذلك الدين من عهود استهلاله على يد موسى إلى أن وصلت اليهودية إلى صوغها النهائى كدين عالمى فى القرنين الأولين من العهد المسيحى.

وسنفصح للقارىء عن الهوة الواسعة التى تفصل التقاليد الدينية العبرية، قبل وبعد أن تستحوذ عليها المسيحية، عن تلك التى يرجع مصدرها إلى التفكير الهلينى سواء أكانت عن مسائل ما وراء الطبيعة (الميتا فيزيقيا) أو علم اللاهوت. ففى المكان :

الأول : (أ) كانت تقوم على الاعتقاد الذى لا يمارى، بوجود الله (عز وجل) لا استنادا إلى أية فروض استنتاجية عن وجوده أو طبيعته وجوهره.

والجواب الوحيد الذى صرح به، ردا على موسى وهو يستعلم اسمه كان توكيد كينونته الذاتية : «أهيه الذى أهيه» وفى كينونته الذاتية ، فإنه العلة، كخالق لوجود كل ما هو كائن» فى البدء خلق الله السموات والأرض».

وهذه الكلمات، فاتحة الأسفار الخمسة لا تعبر عن نظرية فلسفية ولكنها بيان أولى للوعى الدينى العبرى. ومن البداية أعلن يهوه نفسه الإله الحى، ويكون قبوله بالإيمان ويسمو على أقصى ما يصل إليه الاستقصاء الفكرى.

وعلى غير شاكلة إله أفلاطون وأرسطو فإن إله إبراهيم واسحاق ويعقوب هو، بالنسبة للعقل الإنسانى، إله مستخف .

ثانيا: (ب) دين العبريين، وحى به ويستمد سلطانه ودعواه فى طاعة الإنسان، ليس عن طريق العقل ولكن عن طريق مصدره الإلهى لا غير.

والوحى واحد كما أن الله واحد. وكان تصور نقيض الله الذى تحاشى الدين الفارسى به، مشكل مصدر الشر، غريبا عن العقل العبرى، تماما. وعلاوة على هذا فقد كان الوحى نهائيا وكاملا كما أن الله نفسه كامل ولا يتغير. «كل الدين أوحى به وكل فحوى الوحى كان الدين».

وكان يتألف منه التوراة أو شريعة الله، ويشمل القانون المسطور (الأسفار الخمسة) وعلى سير الزمان، تفسيره الشفوى أيضا كما صيغ ووضعت له مذاهب، فى النهاية، فى المدارس اليهودية.

وكانت الحال كذلك مع الأنبياء الذين لا ينطقون بأقوال من عندهم يدلون فيها بما لديهم من ثقة ولكن بكلمات أوحى بها إليهم يهوه.

ثالثا : (جـ) دين العبريين تنظيمى، بما أنه التعبير عن الإرادة الإلهية بلغ بها الإنسان ككائن ذى نشاط وله حق الاختيار. إنه مجموعة من الأوامر تنظم سلوك الإنسان وتفرض عن طرق جزاء فيها الخير أو الويل نتيجة لقبول الإنسان

أو رفضه «مخافة الرب هى الحكمة». وإلى الحد الذي يجعل فيه الله طبيعته معلومة للعبريين، فى الكشف عن ذاته، تكون طبيعته كطاقة عملية فإن الكون يصير إلى وجود بفعل قوته الحرة. ويتجسم فى سجل تعامله كله مع العبريين غرضه الأساسى. ولو أنه يسمو سموا لا يمكن أن يلم به وصف، على أساليب الزمن أو التغير، فإن وجوده باطن وتستبين إرادته فى كل جزىء في الطبيعة وتاريخ البشر.

ويكون مشهد نشاطه، ليس الشعب المختار فقط ولكن الكون بأجمعه وجميع الأمم التى تسكنه: «ألم أصعد إسرائيل من أرض مصر والفلسطينيين من كفتور والأراميين من قير؟» . وهنا ،كما للغرض الله ولو أنه، على غرار فاتحته، عمل من التدخل خارق العادة، فى مجرى التاريخ، فانه يتصور ككارثة فى المستقبل التاريخى.

وفكرة الحياة الأبدية التى يرتاح لها الفلاسفة الاغريق كانت غريبة عن نظرة العبرانيين الدينية. إن يهوه كان يسمو على الزمان، ليس لأن لا زمن له ولكن لبقائه الذى لا يعرف نهاية :

كان «منذ الأزل إلى الأبد» وأخيرا، أنه من الجلى أن دينا توحى به هذه العقائد كانت تفعمه قدرة فياضة على التطور الخلقى. كان يهوه إله بر ورحمة أوصى بأعمال الصلاح والرحمة عبيده.

وأولى هاتين الخصلتين كان يتمثل فى أنه فرض فى صرامة القصاص عن الخطيئة أى فى عبارة يوحنا «التعدى على الناموس»

والثانية فى استعداده الذى لا يعتريه وهن للصفح عن الخطيئة بشرط أوحد هو توبة الخاطئ. وهنا لا يوجد وعى بالتفرقة بين الواجب الدينى والواجب الخلقى.

وكل عمل سواء أكان صادرا عن الفرد أو المجتمع يقع فى مجال المسئولية الخلقية وكذلك ينطوى على طاعة أو عصيان الأمر الإلهى، لأن المجتمع (بيت إسرائيل) أيضا كان يتألف برابطة شخصية يهوه، كشخص ذى جسد» واقعى ، يتميز بأنه ينزع إلى آداب السلوك، عن وعى الجماعة العريزى السابق للأخلاق وكوحدة قائمة بذاتها عن المجتمع المصطنع الذى هو نتاج تعاقد من جانب الأفراد الذين ينتظمون أعضاء فيه.

الفصل العاشر

قيام الهلينية

دولة المدن الهلينية .

توسيع اليونان

عظمة أثينا

١- دولة أثينا .

٢- الفن والأدب فى أثينا فى القـــرن الخامس

قيام الهلينية

إن أصول الشعب الإغريقى يعسر اقتفاء أثرها. ولقد رأينا كيف أنه منذ عهد بعيد، فى الألف سنة الثالثة، كانت كريت موطن مدنية زاخرة وصلت إلى اليونان فى القارة وجزر ايجة والبحر المتوسط. والرأى السائد هو أن صانعى هذه المدنية كانوا يختلفون عن يونانى التاريخ اللاحق، فى السلالة والخليقة واللغة.

وعلاوة على هذا فإن شهادة التقاليد القديمة وعلم الآثار الحديث تشير كلاهما إلى كارثة أطاحت بدولة كريت، فى وقت ما، يقرب من ختام الألف سنة الثانية، وإلى فترة لاحقة من الفوضى والاضطراب، مماثلة لتلك التى وقعت بين سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب وظهور نظام مجتمع جديد فى العصور الوسطى، والأزمنة القديمة أيضا كان لها عصور مظلمة، ومنها انبعثت يونان التاريخ.

وفى كريت، على سبيل المثال، دمر حريق أبنية منويا العظيمة ثم بعد قرون لم يصل منها إلا اليسير من الوثائق نجد الاغريق الدوريين يحتلون الجزيرة. ولقد أنبأت قصة الديانة الاغريقية عن صراع بين آلهة عجائز وآلهة أصغر منهم سنا وعن انتصار هؤلاء.

وقد حفظ الشعراء والمؤرخون الإغريق ذكريات عن هجرات بالبر والبحر وعن صراع وامتزاج بين الغزاة الأخائيين والدوريين من جهة والبلاسجيين السابقين للأخائيين من جهة أخرى. والقليل الذى نعلمه عن عصر الانتقال هذا يوحى بمشكلات لا بنتائج.

ولكن هذا القدر على الأقل نعلمه علم اليقين، وهو أنه فى زمن متأخر فى الألف سنة الثانية، هبط محاربون طوال، صفر الشعر فاتحو اللون، من الجذع

الهندى الأوربى فى موجات متتابعات إلى العالم الايجى من أصقاع الشمال الداخلية. وبعضهم وقد جلبوا معهم أسراتهم وما لديهم من متا ع كالوط والفرنجة فى زمن متأخر عن هذا، شقوا طريقهم قسرا صوب الجنوب بالبر إلى طراقية ومقدونيا وتساليا وأفيروس وواصلوا السير إلى اليونان الوسطى وبلوبونسس. وآخرون غيرهم، ربما فى تاريخ أسبق، عبروا السبنطس إلى آسيا الصغرى وكذلك آخرون كرجال الشمال، فى القرن التاسع أغاروا بالبحر على سواحل وجزر ايجا.

ويمكننا أن نتصور هؤلاء الشماليين الأجلاف وهم لا يختلفون فى عاداتهم وثقافتهم عن المقدونيين فى عصر فيليب والاسكندر أو عن الألبانيين فى زمننا. ولم يكونوا حين سادوا فى خلال القرون مدنية كريت القديمة هدامين بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

ولقد تركت هذه المدنية آثارها على تدرجهم فى الرقى، ومن المحتمل أن تفوق الثقافة الاغريقية بموازنتها بثقافة الرومان كان مرجعه إلى حد ما، إلى هذه الواقعة وهى الاتصال المبكر بالمدنية المنوية.

وعلى أية حال كان اغريق التاريخ نتاج الامتزاج التدرجى بين الأخائيين وغيرهم من دخلاء الشمال والقاطنين القدامى بالعالم الايجى. ومن الطبيعى أن هؤلاء الأخيرين وقد كانوا أكثر عداء أن يطبعوا الغزاة بطابع ثقافتهم. واستمرار الغزاة فى اليونان الأوربية كان يصحبه أو يعقبه هجرات المستعمرين الاغريق إلى جزر بحر ايجا وشواطئه الآسيوية والتقاتل مع ذوى قرابتهم الذين عبروا إلى هناك بطريق آخر فى زمن أسبق.

ومن المحتمل جدا أن ذكرى مثل تلك المعارك هى التى حفظتها قصة حرب طروادة. ولقد أبحرت إحدى تلك الجماعات من المستعمرين، وهم

الأيوليون، من تساليا إلى شمال غربى آسيا الصغرى والجزر التى تقع فيما يلى الساحل. وغيرهم من المستوطنين، بعيدا إلى الجنوب، اتحدوا فى تحالف فيدرالى، يطلق عليه اسم الجمعية الأيونية حول مقدس بولو فى ديلوس. وكان باسم الأيونيين (يوفان فى العهد القديم) أن قدماء الاغريق عرفوا لدى شعوب الشرق.

ويمكننا أن نضع تاريخ هذه الهجرات البحرية عبر ايجا بين سنة ١٣٠٠ وسنة ١٠٠٠ق.م. ومن المحتمل كثيرا أن هذه الهجرات ترتبط بالشدائد التى عانتها مصر من جوابى البحر فى عهد الأسرة العشرين.

وأخيرا فى ختام الألف سنة الثانية تماما وصلت آخر موجة من الغزو الشمالى إلى اليونان الأوربية عندما احتل الدوريون وهم جيل من أصلاب المحاربين، أسلاف الأسبارطيين الذين جاءوا فى تاريخ لاحق، أجزاء من اليونان الوسطى والغربية، وعندما بلغوا فى سيرهم مناطق الجنوب دانت لهم السيادة على التدرج، على الجزء الأعظم من بولبونسس. وعبر المهاجرون الدوريون أيضا بحر ايجه واستعمروا كريت ورودس وشواطئ آسيا الصغرى الجنوبية الغربية. وكان من أثر هذه الهجرات التى استغرقت عدة قرون وانتهت حوالى سنة ٥٠٠ق.م. استقرار السلالة الاغريقية واللغة الاغريقية على جانبى بحر ايجة.

دولة المدن الهلينية

إن حياة الشعب اليونانى خلال القرون البواكر من الألف سنة الأولى، كما فى حقبة الهجرات السابقة، يكتنفها الغموض، وعلمنا بطبيعتها يتألف على الأكثر من نتائج عامة تستند إلى استدلالات ترجع إلى العصر التالى. وهذا جلى فى جميع الأحوال، فلقد امتدت المدنية الهلينية منذ فجر تاريخها، إلى ما يلى يونان القارة.

وسنرى فى الحال كيف أنه فى القرنين الثامن والسابع، بسطت هذه المدنية رواقها فيما يوالى منطقة ايجا حول أكسين (البحر الأسود) وفوق أراضى الساحل فى أفريقيا الشمالية وجنوبى ايطاليا وصقلية. وقد أصبحت ايطاليا الجنوبية تعرف لدى الاغريق باسم «هلاس العظمى» وأينما نجد فى عالم البحر المتوسط مدنا اغريقية والتحدث بالاغريقية فهناك، بما له شأن بالتاريخ، نجد اليونان.

ولكن الحقيقة التى لها الأهمية الأساسية للمدنية الهلينية هى أنه عندما يرفع الحجاب جزئيا فى القرن الثامن، نرى الاغريق، فيما عدا الجماعات المتخلفة التى تقطن بالجزر، قد تجمعوا فى دول مدينة، ونرى ممالك الملوك الآباء التى نقرأ عنها فى الأشعار الهومرية قد أخلت فى الغالب أمكنتها للأرستقراطيات الوراثية، وفى الجماعات المدنية الأكثر تقدما نجد القوانين والنظم الدستورية قد بدأت فى الظهور.

وكانت كل من هذه المدن الصغيرة تستمتع بالاستقلال السياسى التام وترقى بمنظماتها التى تتميز بها وبسنن الحياة، فى سبيل التقدم. ومن الجوهرى أن ندرك أن اليونان الحرة لم تتوحد اطلاقا فى دولة واحدة. والوثاق القومى كان وثاق السلالة واللغة المشتركين وليس ذلك الذى يكون بالاتحاد السياسى.

ويجب أن يكون مدار تفكيرنا فى التاريخ الاغريقى على أنه سجل لمئات المدن المستقلة التى تناثرت فى أرجاء جزر وشواطئ البحر المتوسط وكل منها يملك رقعة صغيرة من الأرض المدنية.

ورقعة أثينا على سبيل المثال، التى كانت على اتساع منقطع النظير، كانت تشمل شبه جزيرة أتيكا ومساحتها تعدل مساحة مقاطعة انجليزية متوسطة. وفى عصر بر كليس، كان عدد المواطنين الذين يمكن تجنيدهم يبلغ ٣٠٫٠٠٠ يمثلون سكانا أحرارا تعدادهم زهاء ٢٥٠٫٠٠٠ بما فيهم النساء والأطفال يضاف إليهم الكثير من العبيد والغرباء المستوطنين.

وعلى غرار الجمهوريات الايطالية فى العصور الوسطى المتأخرة كانت هذه المدن الاغريقية تحرص حرصا شديداً على استقلالها. وكلما ظفرت واحدة منها مثل أثينا أو سيراكوز الصقلية بالسيادة على الأخريات فان الامبراطورية كانت تثير الجفاء العميق بين رعاياها.

وكانت الوطنية الاغريقية مدنية وليست قومية. وليس معنى هذا أنهم كانوا مجردين عن الاحساس بأصرة القرابة الهلينية المشتركة، ولكن على النقيض كانوا يدركون فى جلاء، الهوة التى كانت تفصل موازينهم فى الأخلاق والمدنية عما كان لدى «الهمج» الذين كانوا يحيطون بهم ولكن الرابطة كانت رابطة شعور ولغة وثقافة.

ولقد وجدت تعبيرا خاصا بها فى الحفلات الرياضية العظيمة التى كانت تعقد تحت الرعاية الدينية ومجالها مفتوح لكل الهلينيين وقاصر عليهم ومن بينها كان أقدمها وأبعدها صيتا، ذلك الاحتفال الذى كان يعقد كل أربع سنوات فى ألومبيا على تخوم الس تكريما لزيوس، وقد نظمت من بواكير القرن السادس حفلات أخرى فى نميا بالقرب من أرجس على برزخ كورنت - والفوثى - على سهل كريسا عن قرب من هيكل أبولو فى دلفى

ودين الاغريق، على الرغم من طائفة جمة من الضروب المتباينة المحلية، كان يكون ارثا مشتركا. وكانت تحاط الآلهة الأولبية الرئيسية مثل زيوس وبسيدون وأثينا وأبولو بالتبجيل فى جميع أرجاء المنطقة الهلينية.

وفى عهد التوسع التجارى تطور مهبط الوحى فى دلفى إلى منظمة جامعة هلينية دينية. وبفضل سهولة المواصلات بالبحر بين جميع أجزاء العالم الهلينى، سرعان ما أصبحت ضروب الفن والشعر والعلم التى قامت فى متنوع مراكز الثقافة ملكا مشتركا لها جميعا.

وعلى هذا فان الحاجة إلى اتحاد سياسى كأداة للمدنية لم يشعر بها الاغريق طوال حقبة الخلق العظيمة، فى تاريخهم، وحتى عندما كانت تسيطر على مدائن اليونان الوسطى والشرقية المملكة المقدونية فى القرن الرابع، احتفظت مدن ايطاليا وصقلية باستقلالها وظفرت مقدونيا بسيادتها وحافظت عليها عنوة.

والبولس دولة - المدينة كانت من خلق الشعب الهلينى الخاص. إن أثرها فى مستقبل المدنية لا يحده حصر، ففى المكان الأول، فى حياتها وبنيتها تستعرض، فى شكل أبسط مما هو عليه فى الدول الكبيرة فى الأزمنة الحديثة، المعطيات والمشكلات الخلقية والاقتصادية جميعا، اللواتى يجابهن الإنسان فى كل العصور كعضو فى مجتمع اشتراكى.

وكما صاغ الاغريق فى فلسفتهم، فى تعابير بسيطة نسبيا، النتائج الجوهرية للفكر الإنسانى تلك الى توارت عن نظرنا الذى جاء فيما بعد، تحت كتلة مركبة من المواد فهكذا فى نطاق العمل العام فى دولة - المدينة، وطنوا أنفسهم على إدراك الشرائط الجوهرية لحياة المواطن الحقة.

ومرة أخرى فإن مشكلات المجتمع المتمدين كان يعالجها الاغريق إلى أن

تصل إلى الحل التام الممكن فى ظل ذلك الشكل من التنظيم. ويمكن تتبع تاريخ دولة – المدينة الهلينية من بواكيره حتى تدهورها وسقوطها.

ثالثا: قدم الاغريق نظريتهم الخاصة فى السياسة فإنهم لم يخلقوا فقط دولة– المدينة، ولكنهم، كانوا يمنعون الفكر فيها.

وانا لنجد فى فلسفتهم كلا من التحليل المثالى والتفكيرى، لعملهم العام. وتقوم دولة– المدينة الهلينية على النقيض من امبراطوريات الشرق الأوليات من جهة، ومن دول الأزمنة الحديثة، من جهة أخرى. والدولة الحديثة، لا حاضرتها، هى الوطن،

وقد تتغير الحاضرة كما فى روسيا من موسكو إلى سان بطرسبرج وبعد ذلك من لينينجراد إلى موسكو بينما الدولة باقية كما هى.

وقد يقوم للدولة كيان كرابطة المصالح المشتركة (الكومنولث) الاسترالية حتى قبل أن يتحدد موقع حاضرتها المستقبلة.

ولكن فى اليونان وفى روما فى عهد الجمهورية كانت الحاضرة هى الدولة بعينها، وعلى خلاف الممالك الشرقية، حققت دولة – المدينة فى اليونان توحيد الحياة المتمدينة والحرية السياسية.

وفى الشرق يكون لحرية الحكومة وجود ولكن فقط بين القبائل غليظة الطباع التى تعيش فى جماعات صغيرة، ويكون تقدم الثقافة ممكنا فقط عن طريق تكوين مجموعات عظيمة من مثل هذه الجماعات تحت حكم استبدادى وعلى ذلك تكون الحرية الثمن الذى يبذل للحصول عليه.

وهكذا كانت حال الإسرائليين فى كفاحهم ضد جيرانهم فانهم وضعوا أنفسهم طوعا تحت امرة ملك كمناط رجائهم الأوحد فى الخلاص القومى. وقالوا لا بل يكون علينا ملك فنكون نحن أيضا مثل سائر الشعوب ويقضى لنا ملكنا ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا.

وطوال العصور القديمة، كان معنى الدولة العظيمة هو الحكم الاستبدادى وإلى أن ظهر الاغريق كان معنى التقدم فى المدنية خلق دولة عظيمة. لقد كانوا أول من حل مسألة الجمع بين الثقافة والحرية فى مجتمع صغير وحلوها عن طريق دولة - المدينة. وقد اجتمعت ارادتهم على أن يشابه الواحد منهم الآخر ووصلوا إلى نتيجة فريدة وحققوا فى حياة دول - المدينة، العامة الحرة تاريخا يتناقض تناقضا فاجعيا مع قصة الاستبداد الرتيبة ومزايا الطبقات الاجتماعية والاستعباد، التى يجىء سردها فى سجلات الشرق.

لقد أوجدت «دولة - المدينة» قاعدة المدنية الهلينية والمثل الأعلى لها فى نفس الوقت. ولم يأتنا الا اليسير من العلم عن النسق الذى درجت فيه المستعمرات البدائية إلى دول- مدينة، وفى مكنتنا أن نتصور المغيرين الشماليين يسكنون كغزاة بين آهلين معادين فى أزمنة كان البحر يكتظ فيها، بالجوابين من طلاب الغنيمة ويقيمون حصونا بدائية فى مواقع ضاحية على التلال على مسافة قريبة من الشاطئ، يمكن أن يأووا إليها بقطعانهم فى أوقات الخطر.

وفى أثينا فى العصور التاريخية، كانت قلعة الأكروبول لا تزال «المدينة»، ومن الجائز أن الجماعات القروية تجمعت هناك للدفاع عن النفس أو تآلفت حول مقدس مشترك للعبادة الدينية. وفى هومر كانت المدينة، أولا وفوق كل شىء حصنا يمكن الدفاع عنه.

يجب أن نرجع بتفكيرنا إلى الماضى، إلى زمن كان يذهب الاغريق كغيرهم من السلالات الباكرة، إلى أن ثمة قرابة كانت تربط الآلهة والناس وحق حيوانهم. وبقيام الهجرات وهى الوثاق وبدأت أواصر الأسرة تخلى مكانها للاخلاص للجماعة. وأصبحت دولة - المدينة الرمز المادى لهذا الولاء. وكان كل رجل فى العشيرة يراها بعينه المجردة تستوى أمامه وهو يفلح رقعته من الأرض فى الأرباض أو يجتمع مع رفاقه للمقايضة أو للعبادة داخل أسوارها.

وفى ساحات المدينة، كان كل شىء يقع تحت نظره، ذا قرابة وثيقة ومألوفا. وهناك فى المجتمع الصغير الذى يضم مئات قليلة من المواطنين، يتجمعون فى أسرات وعشائر ولا يزال الاحساس بالقرابة يدب بين حناياهم.

وهناك كانت تسود مساواة فى الزمالة، حقة . وكان كل شخص يعرف الآخر بالنظر وبين الواحد والآخر من الأغنياء والفقراء والحكام والمحكومين كانت توجد أواصر شخصية مباشرة.

ولم تكن تعوق الملوك والنبلاء، كما فى الحاشيات الشرقية، قواعد آداب السلوك ورسميات الدولة ولم تقف القواعد الشكلية للتعريف حائلا أمام التواصل الإنسانى.

ولقد عاش الاغريق عيشة فى الخلاء، معرضا للشمس، يجوس خلال ساحة السوق أو حلبة المصارعة متلكئا - كما يطيب للفرد من أهل الجنوب أن يتلكأ - وهو يتجاذب الحديث مع جيرانه، دون أن يعبأ بزمن،

وكان الاغريق شعب زراع، يزرعون الحنطة ويغرسون الكرم والزيتون وأتاح لهم عملهم ومناخهم أن ينفقوا معظم حياتهم فى الهواء الطلق ولديهم أوقات فراغ للتواصل الاجتماعى .

ولا يمكن تصور نقيضا لحياة مدينة صناعية حديثة حيث يتزاحم الكل لأعمالهم بالمناكب، وحيث لحظات الاستجمام قليلة ومنتظمة، أعظم من الحياة غير الرسمية الطليقة التى كانت تحياها دولة - المدينة الاغريقية.

ولكن وقت الفراغ كان يعنى للاغريق أى شىء إلا الكسل. إنه كان يهيىء مخلصا من ضغط المطالب المادية وفرصة لاستعراض العقل والموهبة.

ويجب أن يدور تفكيرنا حول الاغريق كرجال عمل أكثر منهم فنانين أو مفكرين. إن فنهم وعلمهم كانا يتآلفان تآلفا محكما بمصالح الحياة العملية. ولقد

قام النحت وفن العمارة بطبيعة الحال، بينهم لأن الحاجة كانت تمس إليهما لاقامة بيوت الآلهة والناس وقامت فلسفتهم لأن الحاجة كانت تدعو إليها للتحكم البصير فى العالم الذى كانوا يعيشون فيه.

وكان الاغريقى يعجب بالكفاءة أكثر من كل الأشياء، واللفظ الذى كان يطلقه على الفضيلة لا ينسحب على السمو الخلقى وحسب، ولكن على الموهبة العقلية والقدرة على الظفر بالنجاح فى كل ميدان فى الحياة العامة. والمثل الأعلى لرجل قوى، يعرف ما يحتاج اليه من العالم وله القدرة على الحصول عليه، كان دائما يستهويه ويقصيه عن نهج الاعتدال.

ولقد أوجدت دولة - المدينة لهذا النشاط العقلى والبدنى القلق، مجالا طبيعيا. والحياة الوحيدة التى تستحق العيش، فى نظر الاغريقى كانت حياة الخدمة كمواطن. وكانت الأسرة تسترعى إهتماما يسيرا وقيمة خلقية ليست بذات خطر.

وكان الابن عندما يصل إلى سن الرشد يترك أباه وأمه، وفى بيته كانت الزوجة لا نفس لها، ولا وزن لها. ومن هنا، كان المركز الوضيع للنساء والأطفال وفشل التعليم الاغريقى. ودولة - المدينة.

وفى دولة - المدينة، كانت السوق بما يحيط بها من أروقة ذات عمد وأبدية عامة وطنه وعالمه. وعلى هذا فكلما أخذ أفق الاغريق العقلى والخلقى فى الاتساع فإن الثقافة التى كانت تجد التعبير عنها فيه كانت فى كل مرحلة ترتبط بالمدينة.

ونغمة الرأى العام التى تحدد خلائق الرجال وعاداتهم، بطريقة غير محسوسة ومع ذلك فى قوة عظيمة، كانت نغمة دولة - المدينة المميزة . وفى القيام بدور ذى قيمة فى حياة دولة المدينة، كان على مطمح للمواطن والمعيار الذى يقيس به نجاحه وسعادته

والمولد فى دولة - مدينة وضيعة كان يعد عثور جد خطير. وعلاوة على هذا، كانت دولة - المدينة تحدد فحوى واجباته، لا الخلقية وحسب ولكن الدينية أيضا.

ولم يعرف الاغريق التمييز بين الكنيسة والدولة ومن الأزمنة الهومرية وما بعدها كان الحاكم يرأس دين المجتمع بينما كانت تنحصر أعمال الكهنة فى تصريف واجبات الفرائض. وهيأت المدينة أيضا الواعز للتقدم العقلى. وفى مجالس الشعب الرسمية، كما فى التواصل اليومى فى ساحة السوق أو مائدة الطعام أتاحت الفرصة لحرية الفكر والتخاطب.

إن مثل هذه الحرية فى النقد، شيء مستقل تماما عن الأنظمة الديموقراطية وأداة الحكم الذاتى السياسى. وكان الجند يخوضون فى مناقشة أعمال وخلائق ضباطهم من وراء الستار والصغار فى أولئك التى تكون لكبارهم، فى المدرسة أو الكلية دون أن يكون لهم أى حق فى التصويت لانتخابهم.

وكانت الديموقراطية فى اليونان النتيجة وليست السبب، للنقاش الحر. كان اليونانيون أمة متحدثين وكان حديثهم فى الغالب صبيانيا ويجانب الاخلاص ومن شأنه أن يثير الاحتقار فى صدر الرومانى الذي كان ديدنه أن يعمل فى صمت.

وما كان يميز الاغريق عن الشعوب الأخرى التى تشغف بالكلام هو أنهم كانوا يتحدثون أيضا فيما كان جديرا حقا بالمناقشة : القانون والحرية والواجب الخلقى وغاية الحكومة وطبيعة وأسباب الأشياء والفن والشعر والفضيلة وصالح الإنسان.

وفوق هذا كله، كان حديثهم يلائم العقل والمنطق، والافصاح عن التفكير الخالص وتفهم الواقع. ولم يفكر أى شعب اطلاقا بمثل هذا التعمق أو تحدث بمثل هذه الإجادة عن هذه الموضوعات السامية، كما فعل الاغريق.

ولم يرسم أى شعب قط، بمثل هذه اليد الثابتة الخط الفاصل بين الخدعة والحقيقة أو وطنوا أنفسهم بمثل هذه العزمة على فهم واستيعاب عالم الطبيعة. وكل هذا كان نتاج المطارحة الطليقة بين العقل والعقل التى أوجدها التواصل المشترك، كمواطنين فى دولة - مدينة.

والمثل الأعلى الاغريقى للحياة، كان يتصور فى حدود دولة - المدينة، وكانت السعادة عند رجال السياسة والفلاسفة على السواء، هى النهوض بشرف، بالواجب المدنى. ويعبر واضعو الفاجعة والمؤرخون فى القرن الخامس، على التقريب، فى كل صحيفة من كتاباتهم عن احساسهم بقيمة دولة - المدينة وهى تهيىء المجال لتحقيق الحياة الصالحة.

والفلاسفة الذين كانوا يسعون إلى أن يحددوا بالاستدلال العلمى طبيعة ومعيار الصلاح الإنسانى، لم يتزعزعوا فى اعتقادهم بأن الحياة الوحيدة التى تستحق العيش، كانت حياة المواطن فى دولة - المدينة الهلينية. عندما عرض على سقراط، بعد أن حكم الأثينيون عليه بالموت، الهرب من السجن، أجاب بأن التملص من قانون دولة - المدينة حتى عندما يكون قد طبق بالجور كان من الوجهة الخلقية خطأ أشبه بعمل من أعمال العنف يوقعه ابن على أبيه الهرم. وقد حكم أفلاطون بأن كل الدول الاغريقية القائمة فاسدة فسادا لا رجاء فى تقويمه.

ومع هذا فقد وضع تخطيطا مجملا فى جمهوريته، للمجتمع المثالى على أنه دولة - مدينة هلينية أجرى عليها الاصلاح. وعنده، كما كان عند أرسطاليس فى الجيل التالى، كانت المدينة الصالحة توجد حالة الحياة الصالحة لأعضائها وكذلك ما يلازمها.

وقد عرف أرسطو دولة - المدينة بأنها جماعة تكونت لحفظ حياة مكتملة وفيها اكتفاء ذاتى، وأشكال أخرى من الجماعات يسرت للإنسان العيش ولكن دولة - المدينة وحدها، يسرت له العيش الطيب.

ولقد عرف الإنسان بأنه (حيوان سياسى)، مخلوق حى نزعت به طبيعته نزوع حياة النشاط المدنى. ووظيفة المشرع والسياسى الأصلية، هى ايجاد الصلاح الخلقى فى المواطن وتعليمه حتى يمكنه النهوض الكامل بمواهب طبيعته فى دولة – المدينة. وحتى الرواقيون وهم يكتبون بين أشتات الاستقلال السياسى الاغريقى المتناثرة، جهدوا فى أن يعيدوا تركيب نسج الواجب الخلقى بتعليم الناس أن يعيشوا كمواطنين فى الجمهورية العالمية، دولة – مدينة أساسها العقل الخالص، مدينة الله.

وبهذا تأصلت أرومة مدنية الشعب الاغريقى، تأصلا عميقا فى تربة دولة– المدينة. لقد كانت (الصخرة التى نحتوا منها) و(نقرة الحفرة التى استخرجوا منها). إن فن العمارة والنحت، والحفلات الفاجعية والأنشودة العاطفية، والعلم والفلسفة، والدين والأخلاق، والطوائف الحرفية وفنون الحرب والسلم، وتكوين الدستور ومبادئ السياسة العامة، وأشكال التواصل الاجتماعى، والحديث، والأخلاق، كانت كلها فروعا لتكوين عضوى أوجد دولة – المدينة.

ولكن للصورة جانب آخر. إن للحرية سيفا ذا حدين. وقد أفسحت حياة دولة – المدينة المجال لمزاج الوطنية المدنية وكذلك مجال الطموح الشخصى. وفى اليونان القديمة، كما بعد ذلك بألفى سنة فى فلورنسا فى عهد دانتى. كانت عوامل التفكك فى التشيع الحزبى والأغراض الذاتية فى الأفراد تغلى مراجلها عن قرب تحت السطح.

إن التوقف، وانفصام العرى المدنى، كان المرض المزمن فى دولة – المدينة الهلينية. وكلا الشكلين اللذين اتخذهما وهما عدم قدرة المدن على التضام فى اتحاد سياسى، حتى فى مواجهة عدو مشترك، والنضال الداخلى الذى يقوم بين الرجال والأسرات والأحزاب داخل أسوار مدينة واحدة، عملا على انحلال الاستقلال اليونانى فى نهاية الأمر.

وفى الحق، انا لنقرأ باستمرار عن تحالف المدن لأغراض ترجع إلى الدين أو الدفاع. إن تاريخ الاغريق هو فى معظمه تاريخ أحلاف، من حلف الجماعات التى يربطها الجوار إلى معبد فى القرن السابع إلى الأحلاف الأخلائية والايطولية فى القرنين الرابع والثالث.

ولكن هذه الضروب من التضام كان ينقصها الدوام والتلاحم إذ كان لها أثر فعال فقط، فى أغراض عابرة وداخل حدود الهلينية الضيقة، وقد دلت على أنها عديمة الجدوى تماما بالموازنة بقوات مقدونيا وروما.

وفى النهاية، كانت نتيجة المغالاة فى الحرية الوقوع فى العبودية لدولة أجنبية. والاغريق ولهم ذلك الاحساس المرهف بحقائق الحياة، لم يكونوا متباطئين فى تعرف عوارض فوضاهم الخاصة.

ولكن كان لا حول لهم فى علاجها، ولقد أرجع أفلاطون ببصره الذى لا يخطئ بالطبيعة البشرية، أصل الطغيان العام فى الدولة إلى طغيان العاطفة التى لا ضابط لها فى الفرد. ولقد رأى أن أعظم أولى المواهب من المواطنين، من أمثال تمسطوقلس أو السبيادس بالنسبة إلى عظم ما يستحوذون عليه.

كانوا أكثر عرضة لأن يقعوا فرائس لشهوة السلطان وأن يحطموا أولا اقتصاد أرواحهم هم، ثم بعد ذلك اقتصاد المجمع. ومع كل ما فيه من روعة جلائل الأعمال، يزخر التاريخ الاغريقى بالمأساة. إن حطام النفوس التى أتى عليها الدمار يتناثر فى مطوى صفحاته.

وهذه الصفحات تعرض التضحية التى اشترى بها عقل الإنسان حريته فى أن يفكر وأن يعمل. ولكن يجب إلا تخدعنا حتى نزعم لحظة أن النصر لم يكن يستحق التضحية.

توسع اليونان

إن تأثير دولة - المدينة للخير أو للضمير يتجلى فى بيان أكثر وضوحا. وقد شاهد القرنان الثامن والسابع انتشارها السريع فى جزر البحر المتوسط وأراضيه الساحلية. وقد كانت الأحوال المناخية والجغرافية تلائم توسع السلالة الاغريقية هذا.

وكانت مدن منطقة ايجا تقع إما على الجزر وإما على الوديان التى تفصلها سفوح الجبال العالية وأصبحت بذلك فى حماية من العدوان بالبر. ولكنها لم تكن منعزلة عن التواصل المتبادل وإلا كانت كالمدى السويسرية فى التاريخ الحديث، لتحتفظ باستقلالها بأى ثمن.

وكان البر وثاق الاتحاد. وقد ضمن خليج كورنث والتعاريج الساحلية التى لا عد لها، والمداخل، للاغريق الأوربيين خطا ساحليا بالغ الاستطالة ولا تكاد توجد أية ولاية اغريقية ليس لها مخلص سهل إلى البحر.

وكان الاغريق سلالة بحرية منذ الأزمنة الأولى. وقد عمل التواصل فى التجارة بينهم وكذلك بينهم وبين الشعوب الأخرى، وهو يتآلف بحرية مدنهم وكيانهم الفردى، على تنمية ثقافة متنوعة زاخرة، وندر أن وجدت سلالة، كائنة ما كانت، أضفت عليها الطبيعة فى مثل هذا الاغداق عوامل مدنية، وطبيعية. إن الجبال والبحر والمناخ المعتدل الذى يبعث على النشاط وتربة كانت تتطلب الهمة والمهارة وتجزل لهما العطاء، إن هذا كله عمل على بعث صفات حب المغامرة والعمل المتحرر اللذين حملهما الغزاة الشماليون معهم عندما هبطوا إلى العالم الايجى.

ولقد تميز القرنان الثامن والسابع بالمغامرات التجارية والنشاط الجم فى الاستعمار، ونمو الثروة والتهذيب الاجتماعى والقلق السياسى الذى اتسع نطاقه.

وقبيل سنة ٦٠٠ق.م. كان الاغريق قد أنشأوا مستعمرات تجارية على شواطئ بروبنطس (بحر مرمره) والاكسين (البحر الأسود وعلى ساحل افريقيا الشمالى وحول جنوب ايطاليا وعلى الخط الساحلى فى صقلية، بطوله إلا حيث كانت حصون قرطاجنة تتحكم فى غرب الجزيرة الأقصى.

ولقد رأينا كيف أنه فى بواكير القرن السادس استحوذ التجار الاغريق من أمراء موالين فى الأسرة السادسة والعشرين على مقر دائم فى نوكرانيس فى دلتا مصر. وكانت تجارة البحر المتوسط من صقلية إلى الشرق قد أفلتت من يد الفنيقيين إلى الاغريق.

وفى أقصى الغرب استمتعت قرطاجنة باحتكار لا ينازع. ولكن فى غيره من الأصقاع تمكن اليونانى التاجر والمستعمر بما له من عبقرية طبيعية يكون فيها مطمئن البال فى أحوال جدد وبين ناس غرباء، من طرد السلالات السابقة من أسواق البحر المتوسط. وقد لازم هذا التوسع التجارى نتائج بعيدة الأثر فى الحياة الاجتماعية والسياسية.

وقامت المدائن الرائعة مثل مليتوس فى أيونيا وسيراكوز فى صقلية وسوبارس فى جنوبى ايطاليا ويدل لفظ Sybarite إلى يومنا على شخص يتعشق الدعة المترفة. ولقد نهضت إلى حيز الوجود طبقة من الأمراء التجار قامت برعاية الفن والشعر فى سخاء ونبل.

وفى مجال السياسة كان يفور على الدوام شغب دائم وثورة. فقد أصبح ألو اليسار الجدد يكافحون من أجل السلطان والامتيازات ضد احتكار النبلاء القدامى. وقد نجم عن الكفاح الحزبى العنيف دافع لجديد من الاستعمار. ولم يكن من غير المعتاد أن يرسل غير الراضين وكثيرا ما يكون ذلك بارشاد مهبط الوحى فى دلفى الذى علت أهميته فى هذه الحقبة، كمستعمرين إلى أية منطقة

غير مأهولة تصلح للتجارة، حيث كانوا يؤسسون دولة - مدينة تتمتع بالحكم الذاتى.

وكانت المستعمرة الاغريقية مستقلة سياسيا عن المدينة- الموطن الأصلى، والأسباب التى تربطها كانت تلك التى تتصل بالدين أو العاطفة أو التحالف التجارى.

وعلى هذا كان العصر، عصر انتقال سياسى سريع. وقد مهد تنافس النشأة والثراء، والأرض والتجارة، الطريق حينا للديموقراطية وحينا آخر للطغيان. وأعظم ظاهرة تسترعى النظر فى تلك الأزمنة، كانت قيام شكل الحكومة المعروف للاغريق باسم حكم الطغاة. ولو أنها كانت قصيرة الأجل فى أية مدينة بعينها فإنها غدت منذ ذلك الزمن ظاهرة مستديمة فى مراكز اليونان التجارية.

ويغلب كثيرا، كما حدث فى أيام النهضة الايطالية أن تاجرا غنيا يطيح بالنبلاء الظالمين بمعونة الشعب ويقيم نفسه حاكما مستبدا. وكان «الطغاة» فى الكثير الغالب حكاما متنورين ذوى شمائل إنسانية مثل بسطراطس فى أثينا فى القرن السادس .

ولكنهم كانوا يسيئون إساءة بالغة إلى تعشق الاغريق للحرية ولقد أثار حكمهم المقت المرير. لقد وضعوا أنفسهم فوق القانون وبذلك. نبذوا كل دعوى فى حمايته. وكانت سلطتهم انتهاك لطبيعة دولة- المدينة الهلينية، يضاف إلى هذا، أن الاغريق كانوا يسهمون إلى أقصى حد فى المقت الذي يحس به أحرار الناس فى جميع العصور نحو السلطة التى يكون أساسها امتلاك الثروة.

وقد كتب ثيوجنس مواطن مجارا: «إن الإطاحة بطاغية يبدد الناس ليس بخطيئة ولن تعاقب عليه الآلهة». ويحتفل الشاعر سيمنيدس بحمد قاتل ابن

بسطراطس بهذه الكلمات: «إن ضوءا عظيما تفجر على الأثينين عندما ذبح هرمديوس وارسطغيطن ابرخس».

وتتجلى نتائج هذه الحقبة فى حياة اليونان العامة أيضا، فى تقدم القانون والنظم السياسية والسير قدما صوب الديموقراطية، بهدم الحقوق المتوازنة. ومما كان له شأن عظيم توسع الثقافة فى مجال الشعر والفن والعلم.

عظمة أثينـــــا

١- دولة أثينا

كان فى أثينا فى القرن الخامس أن المدنية الاغريقية وصلت ذراها. وكانت أثينا فى ذلك الوقت أهم مدينة تجارية وسياسية فى العالم الهلينى الذى كان تفيض إليه كل تيارات الأدب والفن والمعرفة وفى عبارة بركليس رجل السياسة فيها، الشهيرة، أصبحت «مدرسة هلاس».

ولا يوجد فى التاريخ ما يعادل الثروة وتنوع العبقرية الخالقة اللذين انتجتهما أثينا فى هذا القرن أو ضمتهما إليها من جميع أرجاء اليونان. وفى مدينة واحدة لم يكن تعداد سكانها الأحرار، أكثر من تعداد سكان بلدة انجليزية متوسطة الحجم.

كان يقطن خلال ثلاثة أجيال من مدى الحياة الإنسانية، رجال سياسة مثل ثمسطوقاس وبركليس والثلاثة من شعراء المأساة أسخولس وسفوكلس ويوربيدس، وشاعرا المسلاة (كوميديا) أرسطوفانس وفيدياس ومدرسة النحاتين الرائعة التى كانت له، والمؤرخان هيرودوتس وثقوديدس والفيلسوف أناكساغوراس وسقراط أعظم معلمى البشر أجمعين، وتلميذ سقراط الخالد. أفلاطون.

وكان يوجد غيرهم كثير، لا عد لهم- رجال سياسة وشعراء ومفكرون، من بينهم عدد وفير ليسوا أكثر من مجرد أسماء للأزمنة التى ترادفت وهم مع ذلك، فى عهد أقل التماعا كان يمكن أن يكونوا من بين مشاهير رجال التاريخ. ويخال أن فردية المدنية الاغريقية بذلت الجهد فى فترة نضجها الوجيزة لتتجاوز حدود أجل عمل ممكن.

ولو أن أثينا تطورت إلى مدينة تجارية عظيمة، فان أساس حياتها المدنية كان زراعيا. ولقد انضم، قبيل القرن السابع، سكان أتيكا فى اتحاد (كومونولث) واحد، وأخذت الملكية مكانها لحكم أرستقراطية من ملاك الأراضى وأصبحت فروق طبقات الأشراف والزراع وأصحاب الحرف، وقد تعددت نهائيا وغدت مساوىء الدين والعبودية الشخصية واضحة وضوحا بينا.

وصار الأصاغر من ملاك الأرض مدينين للكبار لدرجة ميئوس منها وسمح لهم بأن يرتهنوا حريتهم الشخصية لدائنيهم. ولقد رأى ختام ذلك القرن نشر مدونة قوانين وهو حادث له أهمية فى تاريخ كل الجماعات الأولى وعلى الأخص فى حالة أثينا حيث كان «القانون المتماثل» فخر مواطنيها.

ووصل علم الاختصاص القضائى إلى مستوى من الكمال لا يضارع فى العالم الهلينى. وبفضل قربها من البحر وفرضتها فرايوس تمكنت أثينا من الحصول على قسطها الكامل فى توسع التجارة.

وهنا، كما فى أماكن أخرى، كان فيض الثروة وقيام حكم الأغنياء من التجار مما زاد القلق السائد شدة. وكان مصدر المتاعب يرجع إلى أن الامتيازات السياسية أصبحت تنحصر فى ملاك الأرض. وسمح صولون بادىء ذى بدء، للذين يملكون رأس مال تجارى بأن يشتروا الأرض من الملاك الذين يعوزهم المال،

وعلى ذلك يكونون أهلا بصفة فعالة لحقوق المواطنين وللوظائف العامة. وفى بواكير القرن السادس وقد استدعى صولون لتولى زمام الحكم حتى يحل الأزمة الاقتصادية وأتاه النجاح - باصلاح القانون الجنائى وخاصة بانشاء المحاكم الشعبية التى كان الحكام مسئولين أمامها - فى وضع أسس الديموقراطية.

وفى المجتمع القديم، كانت محكمة القانون وليست الجمعية، موطن الحرية السياسية حيث ظفر الشعب بالرقابة على السلطة التنفيذية. وأعقب هذا فى تتابع سريع تغييرات دستورية طوال القرن السادس.

وكان حكم بسطراطس الاستبدادى، الذى ربما كان يستند إلى تعضيد عماله فى مناجم أتيكا الجنوبية، يتميز، بصفة ملحوظة، باحترامه للقانون وإجراءاته الدستورية وتشجيعه للزراعة والتجارة وانعاش الفن والثقافة.

وقد شجع أيضا صغار المستردين للأرض البور فى أتيكا. وقد مدت أثينا فى ذلك الحين علاقاتها التجارية والسياسية على كل شاطئ بحر ايجا. وكان حكم بسطراطس الاستبدادى قصير الأمد، لأن التعطش إلى المساواة السياسية وقد أثير فى لفيف المواطنين الأثينيين، أصبح من الشدة بحيث لا تشفى غلته ولا يقبل هوادة.

وقد تغيت أسرة بسطراطس بثورة شعبية تظاهرها قوة اسبرطية ولكن أعداءهم الحقيقيين كانوا القمايوندا وهم أسرة منافسة، من النبلاء. وفى ختام القرن أوقع اقلستينس ضربة قاضية على نفوذ الأرستقراطية الإقليمى وأعاد تنظيم الحكومة على أساس ديموقراطى صريح.

ولم يسمح فقط للمقيمين الأجانب بكسب حقوق المواطن الكاملة ولكنه حل التجمعات السياسية التى كان أساسها روابط الأرض المحلية، واستبدلهم بقبائل جدد جلب أعضاءها من أنحاء متفرقة فى أتيكا.

وكان من أثر هذا، أنه عندما فاضت موجة الغزو على اليونان فى فجر القرن الخامس، استطاعت أثينا أن تواجه الأزمة بعدة من المنظمات السياسية حقيقية بمزاج مواطنيها وبمكانتها الجديدة فى اتحاد (كومونولث) دول – المدن الهلينية. ثم فى قدرتها على التقدم السياسى وفى حرية التواصل بالمدن الأخرى،

قدمت أثينيا فى هذا الوقت وما بعده نقيضا ظاهرا للدولة التى كانت لها السيادة على أرض اليونان الأصلية، اسبارطة.

ومن موطنهم فى وادى يورطاس المنعزل، أخضعت الأرستقراطية الاسبارطية بلوبونيسس الجنوبية اخضاعا تاما. وبفضل شجاعتهم التى لا تمارى ومهارتهم فى استخدام السلاح، اعترف بهم دولة عسكرية دانت لها الزعامة فى اليونان.

ولكن اسبارطة كانت ثكنة، لا دولة. وكان يتحكم فى تدريب وحياة مواطنيها، الهدف الأوحد وهو حذق فن الحرب. وقد احتفظت بمنظماتها البدائية قرونا، دون أن يطرأ عليها تغيير، فى الغالب.

ولما كانت تحقر التجارة، فقد قامت بحراسة تخومها (حدودها) من تدخل الأجانب، فى بأس. ولم تضف إلا القليل أو أنها لم تضف شيئا على الاطلاق مما له قيمة دائمة فى بناء المدنية الهلينية.

وكانت قوتها ترجع إلى شدها أزر العهد القديم فى كل مكان فى اليونان، فى سياستها الشعبية ومبدأ العزلة الذى ضمن لها سيادتها. ولقد أنجبت جنودا شجعانا. ولكن لم تنجب إلا القليل من رجال السياسة الممتازين. وكان المواطنون أولو المواهب العظيمة أهدافا للريبة فى موطنهم، وعندما كانوا يتحررون من جو التقاليد الاسبرطية، يصبحون فرائس للفساد، سهلة.

وأنا لنعجب للصيت الذى أحرزته اسبارطة فى عينى اليونان المعاصرة وللسلطة الخلقية التى بسطتها على الكثير من أحسن العقول الهلينية.

ولما قنط أفلاطون من خلاص أثينا السياسى، تطلع صوب اسبارطة بحثا عن العلاج ويرجع السبب إلى هذا : أنه ولو أن الارستقراطية الاسبارطية كانت ضيقة وغير مثمرة وظالمة فقد ظهر أن ثباتها والتمسك بوحدة المبدأ والولاء للدولة

يكمل النقص الذى كانت الحاجة تمس إليه لديموقراطية أثينا العاطفية التى لا استقرار لها.

وأتاحت الحرب مع فارس الفرصة العظمى لأثينا. تلك الدولة التى نهضت سريعا وأخضعت الاغريق الآسيويين تحت نيرها. وهدد أسطولها البحرى الذى جند رجاله من مدن فينقية التجارية، بتحويل ايجا إلى بحر فارسى. ولقد اصطدم الحكم الذاتى فى دولة - المدينة الاغريقية بالقيصرية الفارسية بينما ألقت الحركات الديموقراطية وهى تهدد الحالة الراهنة، الاقتصادية والسياسية، بحماتها المحافظين بين يدى فارس. وقد وصم القوميون الاغريق هذه الوسيلة للنجاة «بالميدية» لأن تاريخها يرجع إلى ما قبل قيام فارس.

وقد أوقعت القوة البحرية التى كانت لبوليكراتس الساموسى، الخطر على تحكم فارس فى سواحل آسيا الصغرى.

وفتحت غزوات دارا فى طراقيا عينى مليطوس التى كانت فى البداية قد طغت عليها «الميدية». وقد أكدت ثورة الاغريق الأيونيين فى السنوات الأولى من القرن الخامس. للحكومة فى سوس الحاجة إلى تعزيز حدودها الغربية.

وفى عام ٤٩٠، أرسلت حملة تأديبية بحرا ضد الأثنيين الذين كانوا قد قدموا قوة عسكرية مسلحة كعون للثورة الفاشلة التى أشعلها ذوو قرابتهم الأيونيو. وقد قوبل جيش فارس وأوقعت به الهزيمة، على سهول مراثون على ساحل أتيكا الشمالى الشرقى. ومن العسير، بالنظر إلى الحوادث التالية التى كان لها شأن أعظم، أن ندرك ما كان يعنى هذا النصر لليونان.

ولأول مرة قوبل التمثال الفارسى الهائل فى الميدان المكشوف. وبالنسبة لأثينا، قدمت مراثون ذكرى لا تفنى وبعد ذلك بزمن مديد عندما سرد أعظم خطبائها كيف جمع مواطنوه شملهم أمام كفاح الموت ضد مقدونيا، فإنه رجع بفكره إلى أولئك الذين سقطوا ممجدين فى مراثون .

وأما بالنسبة للفرس فليس ثمة شك فى أن الموقعة لم تكن تعنى أكثر من صد عنيف لسياستهم الأمامية على الحدود. وجعلت القيام بعمليات على نطاق واسع أمرا لا مناص منه، ولكن جمع المجندين الامبراطوريين تطلب زمنا.

وسببت ثورة فى مصر وموت الملك دارا تأخيرا لسنين عدة. ولم يكن الجيش حتى عام ٤٨١ قد تجمع تحت قيادة خشيارشاى فى سردس، بينما كان الأسطول فى ايجا مرابطا عن كثب، لغزو اليونان غزوا نهائيا.

ولقد وافت اللحظة الحاسمة المدنية الهلينية آخر الأمر وأثناء تقدم الفرس، قدم نصف المدن الاغريقية خضوعها وقام مهبط الوحى فى دلفى بدور الخائن للدعوة الهلينية. كانت اسبارطة وهى العمود الفقارى للدفاع بالبر تفكر، كما كان العهد بها دائما، على الأخص فى البلوبونيس.

وفى تلك الآونة، تقدمت أثينا كنصير للحرية الهلينية. ولقد شاهد موطنوها مرتين، من ملجئهم الجزرى فى سلاميس دون خوف نهب أراضيهم وتدمير مدينتهم. ولقد أحرز أسطولها النصر الحاسم فى سلاميس (عام ٤٨٠).

وفى السنة التالية، حارب جنودها جنبا إلى جنب مع المشاة الاسبرطيين فى «الرحمة الختامية» فى فلاطيا ووجدت أثينا فى شخص ثمسطوقلس قائدا له قدرة غالية فى الحرب وفى السياسة، ونجت اليونان وكانت نجاتها ترجع على الأخص إلى وطنية أثينا.

وكان هذا آخر تهديد يوجه للحرية الهلينية من الشرق. وكان الخطر مزدوجا، ففى الغرب أيضا كانت قرطاجنة قد هاجمت اغريق صقلية فى سنة غزو خشيارشاى فلحقت بها هزيمة قاصمة فى الهمرا على يدى جيلو طاغية سيراكوز. واستهل نصر جيلو حقبة باهرة فى سيادة سيراكوز. وفى الحق تحتل سيراكوز من ذلك الحين المكانة الثانية بعد أثينا، كمركز للفن والثقافة الهلينيتين.

وكان انتصار اليونان رائعا، ولكنه على أية حال لم يكن أعجوبة. وهو يقدم أول مثال واضح، فى التاريخ عن انتصار دنيوى للنوع ضد الكم. ولقد صنع الاغريق فى سلاميس وفلاطيا ما صنعه الاسكندر بعد ذلك فى أسوس وجوجميلا وكليف فى الأزمنة الحديثة فى بلاسى.

إن تاريخ الإنسان يكذب فى كل مرحلة المثل الأحمق بأن « الله يكون إلى جانب الكتائب العظيمة»، وإذا كان نابوليون قال هذا على الإطلاق فلابد أن قوله كان يحمل فى مطواه تحفظا بأن «يكون النوع متعادلا» والأعجوبة الحقة هى فى استخدام الأثينيين للنصر الذى حازوه.

ولقد أظهروا فى ساعة النصر، نفس البصر بالحقائق واتساع النظر، كما فى ساعة الخطر الداهم. وعندما ارتضت اسبارطة والدول الاغريقية الأخرى بما نالوه من أكاليل الغار، أجمعت أثينا الرأى على أن تواصل الجهاد حتى تتحرر كل مدينة اغريقية فى منطقة ايجا من النير الفارسى.

وكانت السياسة وكذلك روح الوطنية دون ريب، تشيران إلى هذا الاتجاه ولكن مما فيه شرف أثينا الخالد، أنه فى هذه اللحظة لاممت أثينا بين دعوة نفع المدينة ودعوة الاستقلال الهلينى. ولقد جنت الثمار ألف ضعف، فى العظمة السياسية كما فى حياتها الداخلية التى تتصل بالمدينة وفى تجارتها وامبراطوريتها فى البحار.

وكذلك كما سنرى، فى أنبل ثمرات الثقافة العقلية، التى كانت أبدا من نصيب النوع الإنسانى. وقد تركتها حرب التحرير (٤٧٨-٤٧٠) سيدة مياه ايجا دون منازع. وقد أمن تحصين المدينة ومرفئها، فرايوس من منافسة اسبارطة لها فى البر. وكانت أساطيلها تقوم بالحراسة على ايجا الذى أصبح من الآن موصدا، كما كانت أراضى ساحل أسيا الغربية، أمام الفرس.

وكانت هذه الحقائق أساس التفاهم الذى أنهى فى عام ٤٤٨ الصراع الذى استطال حتى بلغ أربعين سنة ونيفا . ولقد تركت أثينا وفى حيازتها احتكار التجارة الشرقية. وكانت المدن المحررة ما تزال منتظمة فى جمعية تحت رياستها ولها خزانة مشتركة فى جزيرة ديلوس المقدسة.

كانت تقدم إليها كل مدينة حصة معينة للاحتفاظ بالأسطول البحرى الحامى. وفى روعة بالغة، حققت أثينا ما انتوته وقطعت العهد به. ولكن والقرن يسير فى مداه، حدث تغير فى سياستها .

لقد تحولت الدولة التى عقدت لها الرياسة على الاتحاد الديلى إلى مدينة ذات سيادة على امبراطورية خاضعة لها . ولقد غدا حلفاؤها القدامى تابعين يلتزمون بدفع الضريبة وكان مطلبهم فى الانفصال عن الجمعية يداس تحت الأقدام فى عنف.

ونقلت الخزانة إلى أثينا وأعيد وضع منظماتها الداخلية لصالح سيادة أثينا . ولما كانت أثينا ديموقراطية فان المدن الخاضعة يجب أن تكون أيضا ديموقراطية. ومن خصائص التاريخ السياسى الاغريقى أن الصداقة والعداوة بين الدول كانا يعتمدان إلى حد عظيم على اللون اسياسى للحزب الحاكم.

وقد تحالفت الحكومات الديموقراطية مع أثينا والحكومات الأرستقراطية مع اسبارطة. وفى زمن بركليس (٤٦٠-٤٣٠) كانت الامبراطورية الأثينية تشمل جزر ايجا ومدن طراقيا وآسيا الصغرى الساحلية والسبنطس والمجاز البحرى إلى الأكسين. ولو أن تكسس ثارت عام ٤٦٥ وساموس عام ٤٤٠.

وأكثر من هذا، فإن أثينا أظهرت نشاطها فى محاولات فاشلة لبسط سيادتها على اليونان الوسطى وفى حملة عسكرية أنفذتها إلى مصر وانتهت بنكبة ونمت المدينة فى الثراء والسكان كنتيجة طبيعية لتجارتها الواسعة المتنوعة

ومع الكراهية المريرة التى كان يشعر بها رعايا امبراطوريتها، لا يوجد أى دليل على أنها كانت تحكم حكما غير عادل. ويجب أن يكون الهادى فى حكمنا اعتبارين. بتركيز القضايا التى تنسحب على مدن مختلفة وكذلك أعظم الدعاوى الجنائية خطورة، فى المحاكم الأثينية، فإن أعلى مذهب فى الإدارة القضائية، رقيا، كان يوجد فى العالم فى ذلك الحين، فتحت أبوابه لكل اليونان الشرقية.

وعلاوة على هذا، كانت أثينا تدرك تماما الواجب الذى تفرضه عليها سيادتها. وكان لزاما على مواطنيها، كما كان يشعر على الأقل ساستها الذين كانت لهم الصدارة، أن يعيشوا عيشا خليقا. بقدر امبراطوريتهم.

ولقد حازت جهود بركليس لإدراك هذا المثل الأعلى ثقة شعب ديموقراطى. ولم يصل حلم اتحاد جامعة هلينية تحت زعامة مدينة واحدة، إطلاقا، قريبا من تحقيقه كما فى عهد الامبراطورية الأثينية فى زمن بركليس.

وعندما نضع إلى جانب قوة أثينا الخارجية لنمعن النظر فى حياتها العامة الداخلية، نجد أنه منذ عهد اقلسثيتس كان يهيمن على الحكومة إرادة لفيف المواطنين الأحرار. ولقد رأينا كيف أنه، عند الاغريق كانت حياة المواطن الحقة هى خدمة الدولة فى السلم وفى الحرب وقد حقق هذه الفكرة في اسبارطة، الارستقراطية الحاكمة.

ولما كانوا قد وهبوا الضياع التى يقوم بالعمل فيها الرعية من السكان، فقد أتاح لهم وقت فراغ ليخصصوا كل حياتهم للخدمة العسكرية. وقد جهد بركليس وخلفاؤه فى القرن الخامس فى جعل مثل هذه الحياة ممكنة لديموقراطية أثينا. واستحداث الأجرة لحضور المجلس ومحاكم القانون، التى كان أعظم مشاغلها الدعاوى السياسية، كان الوسيلة التى استخدمت للوصول إلى هذا الهدف.

وعلاوة على مهمة الحكومة المحلية، كان مباحا لكل مواطن أن يحضر بشخصه وإن يدلى بصوته وأن نتحدث فى الاجتماعات الأسبوعية للمجلس ذى السيادة حيث كانت تبرم مواضيع السياسة الخارجية والامبراطورية والمواضيع المالية ويعين الحكام وتناقش تقاريرهم وتفحص.

وكان مجلس الرأى يعهد إليه بتحضير التشريع للجمعية وكان يجتمع عشر العدد كمجلس تنفيذى دائم، فى دار البلدية كل شهر فى السنة. وكانت لجان تتألف من بضع مئات من المحلفين يختارون بالقرعة من لفيف المواطنين، تصدر أحكامها فى الاتهامات الدينية والسياسية.

ولقد صب الشاعر المحافظ أرسطوفانس التحقير المرير على مغالاة هؤلاء الدبابير الأثينيين فى الدعاوى القضائية. ولقد تصاعدت روح التشبع وكان الحزب الأرستقراطى ينادى بالسلام والصداقة مع اسبارطة،

أما الحزب الديموقراطى بقوته بما يضم من السكان البحريين، فكان يناصر توسيع الامبراطورية فى البحر والبر. ولكن عندما نتسامح فى المغالاة فى الروح الحزبية والمطامح الفردية فان الديموقراطية الأثينية لم تكن غير جديرة بالمثل العليا للسياسى العظيم الذي وطد سيادتها.

ولقد عبر بركليس عن هذا المثل الأعلى فى خطبة له فى الثناء على الجنود الذين سقطوا فى معمعة القتال فى حملة عام ٤٣١. وقد سجل الخطبة المؤرخ ثقوديدس ويمكن اقتباس النص الآتى لتوضيح تصور بركليس للديموقراطية الأثينية:

«إن شكل حكومتنا لا يدخل فى مجال التنافس مع أنظمة غيرنا، وإننا لا نحتذى حذو جيراننا ولكنا نضع المثال لهم. وهو صدق أن الديموقراطية تطلق علينا لأن الإدارة فى أيدى الكثرة وليست القلة ولكن بينما القانون يضمن

المساواة فى العدالة للجميع على السواء فى منازعاتهم الخاصة فإن دعوى التفوق يعترف بها أيضا .

وعندما يمتاز مواطن فى أية ناحية فانه يفضل للخدمة العامة، ليس كامتياز ولكن جزاء للفضل. ولا يكون الإملاق (الفقر) مانعا ولكن يمكن للإنسان أن يحقق نفعا لوطنه مهما كان شأنه مغمورا. ولا يوجد احتكار فى حياتنا العامة .....

وبينما لا نخضع لأى قسر فى تواصلنا الخاص فإن روحا من الاحترام تشيع فى أعمالنا العامة ويجنبنا ارتكاب الخطأ، الاحترام للسلطة وللقوانين إذ لنا اعتبار خاص لتلك التى وضعت لحماية الذين وقعت عليهم مساطة.

وكذلك لتلك القوانين غير المكتوبة التى تجلب على الخارجين عليها تنبيذ الرأى العام ... إننا عشاق للجمال ولكننا بسطاء فى أذواقنا وإننا نثقف العقل دون خسران للرجولة. والثراء نستخدمه ليس للحديث والزهو، ولكن عندما يوجد نفع صادق فى استخدامه. والجهر بالفاقة عندنا ليس مذلة، والمذلة الحقيقية هى فى القعود عن عمل شىء لتحاشيها.

إن المواطن الأثينى لا يهمل الدولة لأنه يعنى ببيته. وفيما بيننا، حتى أولئك الذين ينهمكون فى الأعمال، لديهم فكرة جد طيبة عن السياسة ونحن، دون سوانا، نعتبر الرجل الذى لا يهتم بالمسائل العامة، ليس شخصا لا ضرر منه، ولكنه شخص لا جدوى فيه.

وإذا كانت قلة منا مبتكرين، فإننا جميعا حكام صادقون لثمة سياسة. والعائق العظيم أمام العمل، فى رأينا، ليس النقاش ولكن الافتقار إلى تلك المعرفة التى تكتسب بالنقاش، ارهاصيا للعمل. لأن لنا قدرة خاصة على التفكير قبل العمل وعلى العمل أيضا.

بينما ناس آخرون لهم شجاعة وليدة الجهل ولكن يترددون بعد امعان الفكر... والخلاصة، أقول أن أثينا هى مدرسة الاغريق وأنه يبدو أن الفرد الأثينى فى ذاته، يستطيع أن يكيف نفسه فى أعظم أشكال العمل تباينا، بأجل ما يكون من قدرة، متعددة النواحى، وكياسة .

وليست هذه كلمة عابرة ولكنها الحق والواقع ، والتوكيد تصدقه المكانة التى رفعت إليها هذه الخصال الدولة لأننا أجبرنا كل بر وكل بحر ليفسح طريقا أمام بسالتناوغرسنا فى كل أوب، آثارا خالدة لصداقتنا وعداوتنا .

هذه هى المدينة التى لأجلها حارب هؤلاء الرجال وماتوا فى نبل. ولم يكن فى وسعهم احتمال الفكرة بأنه يمكن أن تستلب منهم، وكل واحد منا على قيد الحياة يجب أن يكدح فى اغتباط لأجلها».

أن امبراطورية أثينا وحكم الديموقراطية الذى خلقها وربما كان كلاهما قصير الأمد. ويقع التاريخ الأثينى فى القرن الخامس في ثلاث حقب تتميز الأولى بنهوض قوتها فى الحرب الفارسية والثانية ببلوغ ذراها فى زمن بر كليس والثالثة بتدهورها وسقوطها .

والحياة العامة الاغريقية هى فى كل مكان سجل من التغيير متنوع المناظر ولقد أظلت سحائب أيام، قيادة بر كليس السعيدة، حتى قبل موت السياسي العظيم (٤٢٧) وكان منافسو أثينا يتحينون الفرصة لجمع الشمل ومهاجمة سيادتها .

وأتى الواعز من دول البرزخ وخاصة من كورنت التى كانت مصالحها التجارية فى اليونان الغربية يتهددها مطمع أثينا المتزايد. وبينما كان الكورنثيون يدفعون إلى النشاط قوات اسبرطة القوية، ولو أنها متكاسلة، كانت المدن الخاضعة فى الامبراطورية الأثينية ترقب فى تلهف الفرصة المواتية للثورة.

وفى عام ٤٣١ قام الصراع الذى يعرف فى التاريخ باسم الحرب البلوبونيسية. وفى الواقع تورطت كل اليونان فى الصراع وقد ناهضت قوة أثينا البحرية من جانب، تحالفا ينتظم أعداءها تحت القيادة الاسبرطية. واستمر مع فترات انقطاع حتى عام ٤٠٤ عندما أعقب تدمير الأسطول البحرى الأثينى سقوط المدينة الامبراطورية.

وقد سرد ثقوديدس قصة الحرب وقام بنفسه بدور فى مشاهدها الأولى فى توليف سيبقى أبد الدهر خلقا رائعا للتاريخ الذى يتبع فيه التأمل. وعنده، كان الصراع فاجعة تتركز حول خطيئة الديموقراطية الأثينية التى كانت تأخذ فى النمو، وتنتهى بالقصاص الذى نجم عندما تخطوا، فى محاولة غزو صقلية، المعلم.

وكما فعل سالفه هيرودوتس فى تقفى أثر يد عناية آلهية غيورة، في القصاص الذى لحق الامبراطورية الفارسية عندما ألقت بجحافلها فى صلف القوة، ضد اليونان، رأى ثقوديدس فى روح فلسفة أكثر نضجا فى الجائحة التى أصابت المدينة وطنه فى اللحظة التى ظهر فيها أن تعطشها لامبراطورية عالمية قد أدرك مرماه، عملية لا ليان فيها للقوانين التى تقرر مصير الأمم.

والديالوج الذي يقص فيه انذار أثينا النهائى إلى سكان جزيرة ميلوس بتوكيده الذى لا هوادة فيه أن الضرورة لا تعرف أى قانون وأن حاجة السياسة الملحة لا تعبأ بكل مطالب الفروض الخلقية وأن طغيان القوى على الضعيف هو الحق الطبيعى للآلهة والناس.

يجىء بعده دون فاصل، قصة البحار الأرمادا ضد سيراكوز وما أصابته من ضروب النجاح الأولية وما أعقب ذلك من نكبات ثم ذهابها أبابيد. ولم تقم لأثينا قط قائمة بعد هذه الضربة.

ولما رأى السبيادس صديق سقراط وأعظم شخصية سياسية التماعا وتعددا فى نواحى قدرته، أن النائبة أوقعت عليه العار، انضم إلى أعدائها ونصح بالتحالف مع فارس التى أمدتهم بموارد غير محدودة لخلق قوة بحرية.

وما كانت أثينا لتقهر إلا بالبحر. وقد استمر شعبها فى القتال فى ثبات وشجاعة عجيبين ضد كثرة هائلة ولكن دم حياتهم كان قد نضب معينه وكان لا مندوحة من الخراب فى النهاية.

وعندما وافت النهاية، كانت حامية من الأسبرطيين الممقوتين تعسكر فى الأكروبول، ووقعت المدن الخاضعة التى كانت قد ثارت ضد أثينا والأمل يحدوها فى استعادة استقلالها فى قبضة الظافر، ولا حول لها. ولو أن أثينا استطاعت أن تزيح نير اسبارطة.

ولو أن الديموقراطية استعيدت وفاضت التجارة مرة أخرى فى فرايوس، إلا أن امبراطوريتها أصبحت فى خبر كان. ووجدت عبقرية المدينة، بعد فترة وجيزة من الروعة السياسية والعسكرية، موطنها الحقيقى الدائم فى ميادين الأدب والفكر.

الفن والأدب فى أثينا

فى القرن الخامس

نوهنا فيما سبق بأن جميع ألوان النشاط التى عبرت عنها العبقرية الاغريقية تجمعت فى أثينا فى أزمن القرن الخامس العظام. ويصدق هذا، فى المكان الأول، على فنون العمارة والتصوير والنحت التى تربطها قرابة. ولقد كان الوازع للثلاثة وازعا دينيا، اقامة وزخرفة المعابد لعبادة الآلهة.

وكان الطرازان، الدورى والأيونى فى فن عمارة المعبد، الواحد ضخم وقاس والآخر أكثر أناقة وزخرفة، قد تطورا فى الحقبة السابقة، من أشكال بدائية للبناء بالخشب.

وكان النحت أيضا منشؤه حفر الخشب وقد حل محل دمى المعبد الخشبية فى عصر التوسع التجارى وتحت رعاية الطغاة الأثرياء التماثيل من الحجر.

وفى القرن السادس، تقدمت مدارس أرجوس وسنيون وأيجينا وأثينا تقدما سريعا فى مهارة الصنعة وفى معرفة التركيب التشريحى وحرية المعالجة وتحرر فن النحت من ارتباطه القاصر على الموضوعات الدينية. وتوضح تماثيل اللاعبين الرياضيين الاهتمام المتزايد بطرز جمال الرجولة.

ولقد وصلت هذه التطورات الباكرة إلى قمتها فى المدرسة الأثينية فى عصر بر كليس تحت زعامة فيدياس. وقد قدم إلى أثينا أيضا بوليجنوتس مواطن ثاسوس ، أعظم مصور فى ذلك الزمن والذى اشتهر بانشاءاته العظيمة الهائلة مثل نهب طروادة وأدوسيس فى الجحيم وقد امتدحه ارستطاليس لحذاقته فى تصوير خليقة الإنسان.

ولقد دمر الغزاة الفرس أبنية أثينا وفى الجيلين التاليين وطن ساستها العزيمة على جعل المدينة الجديدة خليقة بمكانتها فى الامبراطورية. وجهد بر كليس على الأخص، فى تدريب المواطنين على حب ما هو جميل عن طريق أبنيته وما يزخرفها من أفانين النحت. وفى عصر كانت فيه الكتب نسبيا، لا سبيل إلى الوصول إليها، فمن المستحيل المغالاة فى تقدير قيمة الأبنية الرائعة، فى التعليم.

وكان الاكروبول فى أثينا ببوابة المدخل ومعابده وتماثيله، يؤدى للاثينيين فى ذلك الزمان، نفس الخدمة التى كانت تؤديها الكاتدرائيات التى تزخر بالنحت، لمدن أوربا فى العصور الوسطى. وفى عبارة جاءت فى «الجمهورية» يختتم أفلاطون حجته بأن حكام المدينة المثالية، من الشباب، يجب أن تحيط بهم بيئة من الرشاقة والجمال بهذه الكلمات.

هل يجب أن تقتصر على الإشراف على الشعراء وقسرهم على أن يضفوا على انتاجهم طابع الخصال الخلقية الطيبة وجزاء مخالفة ذلك عدم قرض الشعر بيننا، أو هل يجب أن نبسط اشرافنا على أساتذة كل حرفة أخرى على السواء وتمنعهم من أن يطبعوها بتلك العلامات سيئة النوع من الانحلال والخسة وعدم الأناقة سواء فى صور الكائنات الحية أو فى الأبنية أو أى عمل آخر من صنع أيديهم.

ونمنع منعا كليا أولئك الذين لا يستطيعون القيام بغير هذا، من العمل فى مدينتنا حتى لا تكون تربية أوصيائنا بين صور الرذيلة كما فى مراع غير صحية يقتطفون الكثير كل يوم، قليلا قليلا، من أمكنة عديدة ويطعمون منه حتى يجمعوا، دون أن يشعروا، كتلة عظيمة من السوء فى قرار أرواحهم ؟

ألا يجب علينا، على النقيض، أن نلتمس فتاتينا من طابع آخر، أولئك الذين بقوة العبقرية يمكنهم أن يقصوا طبيعة ما هو جميل ورشيق حتى أن شبابنا،

الذين يقطنون كما هى الحال بصقع صحى يتاح لهم أن ينهلوا الطيب من كل مكان.

ويقع أى فيض من الأعمال النبيلة على أعينهم أو آذانهم، كعاصفة تجلب العافية من المراتع الصحية ودون أن يحسوا، يظفر بهم منذ نعومة أظفارهم ليكونوا على تشابه وحب وانسجام مع جمال العقل، الصادق ؟ .

ولا يستطيع أى فرد أمضى حداثته تحت ظلال ثمة كتدرائية رائعة أو داخل حيطان كلية من كلياتنا العتيقة أن ينازع هذا الحكم على ما للفنون من تأثير خفى غير مدرك على خليقة وعقل الإنسان.

وأهم الأبنية التى أقامها بر كليس على الأكروبول كان معبد أثينا العذراء، البارثنون. ولم يعرف ضريب فى أى عصر لأعمال النحت التى كانت تزين المعبد، من صنع فيدياس وزملائه من مهرة الصناع.

وفى بواكير القرن التاسع عشر جلب لورد الجن معظم ما تبقى منها إلى انجلترا وهى الآن فى المتحف البريطانى. لقد صور على الطنف مثلثة الشكل مولد الآلهة أثينا من رأس زيوس والصراع بين أثينا وآله البحر بُسيدون على امتلاك تربة اتيكا.

وعلى ألواح الأفاريز التى كانت تزخرف الشريط الخارجى من الحجر المحيط بالمعبد فوق صف العمد الدورية، نحتت مشاهد الكفاح فى أسطورة البطولة، فى المباراة بين سنتورس ولابئس .

وعلى النقيض من المناظر المصورة على المعبد من الخارج، كان الافريز الذى يربط الحائط الخارجى للناوس يحمل رسوما بالنقش البارز الوطئ عن الحياة التى تتصل بالمدينة، لأثينا المعاصرة، الركب الدينى فى عيد الجامعة الاثينية ورجالا فى المركبات وعلى متون الخيل والأغنام والماشية تقاد للتضحية

وحكام المدينة والموسيقيين والفتيات اللواتى يحملن الرداء المنسوج المقدس، قربانا لأثينا وهى تجلس بين الهة الأولب.

والشكل الأوسط فى المجموعة، تمثال أثينا الهائل الذى صنعه فيدياس من الذهب والعاج، أتى عليه البلى. ولكن الأشكال المصنوعة من المرمر فى متحفنا الوطنى، تكشف للرجل الانجليزى المعاصر أكثر من أية آثار تذكارية أخرى من العصور القديمة عن صفات النشاط والاسترواح والمثل الأعلى الرفيع والجمال الرزين، التى تميز بها الفن فى عصر بر كليس.

وفى مجال الأدب، فلأثينا القرن الخامس الذكر الباقى لخلق شكلين من التعبير، جديدين، الفاجعة (الدراما) فى الشعر والتاريخ فى النثر إن الحافز على تمثيل الشخصيات تمثيلا فاجعيا يشترك فيه كل بنى الإنسان فى الواقع لأنه كما ألمع أرسطاليس فى «نقد الشعر» تتأصل عادة المحاكاة والبهجة فى انتاجها فى طبيعة البشر.

ولكن توجد هوة واسعة بين ارتجالات الاغريق الأوائل والسلالات الأخرى، التى تظهر فيها الغلظة وأمثال تلك النماذج العليا التامة من الفن الدرامى كالمأساة والمسلاة فى أثينا فى عهد بر كليس. واحصاء وتفسير هذا الكنز الزاخر من الأدب الفاجعى يقعان خارج نطاق هذا السفر ويكفى أن نشير إلى عدة خصائص مميزة تكون المعرفة بها مطلبا لدراسة الروايات عينها دراسة فطنة.

والقارئ فى زمننا عندما يراوده التفكير فى الفاجعة، فانه يفكر فى شكسبير، بما لا معدى عنه، ولكن الرواية الاغريقية كانت تختلف اختلافا بينا فى الجو وفى التركيب جميعا عن الطراز الشكسبيرى ويرجع بعض الاختلاف، إلى الأحوال التاريخية التى ظهرت فيها الفاجعة الأتيكية إلى حيز الوجود.

فعلى سبيل المثال، كان يؤلف المأساة والمسلاة شعراء مختلفون وكانتا تمثلان فى أعياد مختلفة، الواحدة تعالج الموضوعات المثالية والأخرى تصور طبيعة الإنسان فى مستوى أوطى من المستوى العادى.

وكانت تثير الضحك بالسخرية من نقائض البشر. وكانا يختلفان فى ظروف أصلهما. فقد قامت المأساة (تراجيديا = عنزة) من الترانيم التى كان يغنيها جوق يرتدى جلود المعز، بين الدوريين فى بلوبونيسيا الشمالية.

بينما درجت المسلاة فى صقلية وكانت نشأتها فى المجون الذى لا ضابط له، لمقيمى الولائم الصاخبة الحصاد وجنى الكرم بقذف شخصيات من رفاقهم من أجلاف المهرجين بين الحشد الذى يحلق حولهم.

ومما يسترعى الانتباه الخاص ثلاث خصائص أخرى تبرز من خلال تاريخ الفاجعة الاتيكية. فى «الحوادث» الفاجعية أو الفصول وفى القصائد الغنائية المذهبية التى كانت تغنى فى الفترات التى تقع خلال التمثيل، نجد الاتجاهين الأساسيين فى الشعر الهلينى الباكر، وهما يتآلفان فى وحدة أعظم، الملحمة والقصيدة الغنائية.

انه وجود هذا العنصر الأخير بما يصحبه من موسيقى ورقص حتى أن الفنون الثلاثة تكون انتاجا واحدا من الجمال الفنى تكون فيه كلمات الأغنية العامل الحاسم، هو الذي يظهر لنا عند أول تعرفه أنه غير مألوف. وكانت الترنيمة المذهبية فى ذلك الحين أو – النواة الأصلية للفاجعة.

وقد فصل على التدرج عنصر القصص وتحول أولا، إلى شكل فواصل ينطق بها قائد الجوق بين أجزاء الترنيمة ثم إلى اشراك مجيب أو ممثل يتحدث من مسرح (وهنا نجد بداية الديالوج والتمثيل) ثم إلى إضافة ممثل ثان وأخيرا ممثل ثالث.

وبهذا تدرج العامل الفاجعي صعودا على حساب عامل الشعر الغنائي إلى أن أصبح دور الجوق، وهو الغالب في الأصل، يخضع خضوعا تاما للديالوج والتمثيل. وفي هذا، وفي اختيار المدار بما يغلب أن يكون عاما، من قصص البطولة، نرى تأثير شعر الملحمة.

لقد بين أرسطاليس الذي كان شغوفا يتقصى أثر السوابق لما جاء بعد ذلك من أشكال أن « كل أجزاء الملحمة تضمها المأساة ولكن أجزاء المأساة لا توجد كلها في الملحمة». وبهذا تمازجت الطرز الأولى من شعر الملحمة والشعر الغنائي، وكذلك الموسيقى والرقص وانضوت تحت شكل التمثيل الفاجعي في هذا الخلق المتفوق، للعبقرية الشعرية الاغريقية.

وكانت الأحوال الخارجية التي انتجت فيها الروايات لها تأثير على خصائصها. لأنها، لسبب، كانت تمثل في الهواء الطلق في مسرح نحت في منحدر الأركوبول على مقربة من معبد ديونوسيوس وكان يشهدها حشد عظيم من المتفرجين ربما يبلغ عددهم زهاء ثلاثين ألفا يجلسون في منحنيات متحدة المركز، ترتفع فوق الفرقة الموسيقية والمسرح اللذين كان موضعهما في القاعدة.

وقد جعل هذا من الضروري استخدام الوسائل الاصطناعية لمساعدة النظر والسمع، والأحذية ذات النعال العالية لرفع قامة الممثل والتحشية والأقنعة التي ترمز للدور الذي يمثل، وقد ركبت فيها أنابيب للتحدث، لمعاونة الصوت حتى يصل إلى أقصى مداه.

ولقد عظمت هذه الأدوات، بالضرورة، الصفة التقليدية للفاجعة الاغريقية التي كانت تمثل الأنواع في أشخاص الأفراد. ومع هذا فقد نجح واضعوا الفاجعة والممثلون الاغريق باتقانهم الصنعة، في التغلب إلى حد كبير، على هذه الحوائل. ويمكنا أن نتتبع نمو وضع خصائص الفرد ونحن نسير من أسخولس إلى سفوكلس ومن سفوكلس إلى يوربيدس. ولكن حتى في آخر تطور لها، كانت

الفاجعة الاغريقية أبسط، إلى حد بعيد، فى مدارها وتكوينها، من الفاجعة فى أوربا الحديثة.

وكان شعراء الفاجعة، كالرياضيين فى الألعاب، يصاول الواحد الآخر، للظفر بجائزة. وعندما نذكر أن كل متسابق كان يقدم أربع روايات تمثيلية فى احتفال واحد وأن المباريات كانت كثيرة وتقع مرارا عديدة، فيمكنا أن نقدر وفرة الخلق الفاجعى فى أثينا القرن الخامس.

وليست الروايات التمثيلية الباقية لدينا وهى سبع فاجعات لأسخولس وسبع لسفوكلس وثمانى عشرة ليوربيدس، وإحدى عشرة مسلاة لأرستوفانس، إلا جزءا يسيرا من مجموع المؤلفات الدرامية التى أنتجها هؤلاء وشعراء غيرهم من ذلك العصر، كثيرون.

وكان لغشيان هذه الاحتفالات المستمر والدربة التى اكتسبت فيها على الحكم بالجوائز ما أتى، فى زمن كانت فيه الكتب نادرة، بتأثير تعليمى له قيمة خارقة للعادة، على الجمهور الأثينى.

ونعلم من توكيد أفلاطون لأهمية مقاييس الانشاء الفاجعى. الحقة، من الوجهة الخلقية على تدريب الأحداث ما كان لتعليم الشعراء من أثر عميق على عقول المستمعين. وكما في السياسة، كذلك فى الأدب، لابد أن المواطن الأثينى كان فى جميع الأحوال، حكما صادقا، لما له قيمة جمالية، إن لم يكن المبتكر له.

ويشير الشاعر شلى فى عجالة، إلى الفاجعة الأثينية قائلا أنه : «مما لا نزاع فيه أن الفن نفسه لم يفهم قط أو ينتهج وفق فلسفته الحقيقية، كما فى أثينا». وبعد أن وكد الخصلة العقلية للفن الهلينى، كما سميناها آنفا، يضيف : «لأن الأثنيين استخدموا اللغة والتمثيل والموسيقى والتصوير والرقص والمنظمات الدينية لكى ينتجوا تأثيرا عاما فى تمثيل المثل الأعلى فى ذروته، للعاطفة والقوة،

وكل قسم فى الفن وصل به فنانون واتتهم مهارة فى أبعد حدها، إلى مرتبة الكمال فى نوعه وقوم فى تناسب جميل ووحدة، الواحد تجاه الآخر.

وعلى المسرح الحديث، لا يستخدم إلا القليل فقط من العناصر القادرة على التعبير عن شكل تصور الشاعر، فى آن واحد. إن لدينا المأساة دون موسيقى ورقص دون أعلى تمثيل للشخصيات وهو ما يليق أن تصاحباه، وكلاهما دون دين ووقار.

لقد أصبح من المعتاد ابعاد التعليم الدينى عن المسرح، فى الواقع». انه هذا الترابط الوثيق بالعرف الدينى، هو الذى تتألف منه أعظم خصائص الفاجعة الأتيكية ظهورا. وكان يحتفل بأعياد «الفاجعة» تكريما لآله الطبيعة ديونوسوس وقد عقدت رياستها لكاهن ديونوسيوس على مقربة من معبده بمصاحبة المراسم الدينية. وفى وسط الأركسترا أو حلبة الرقص، كان يقوم محراب الآله.

ولقد كان شهودها واجبا من واجبات النفى مفروضا على كل مواطن صالح. وكجزء لا يتجزأ من عبادة دولة – المدينة، فان الأعياد كان يعهد بها، بصفة مباشرة، إلى الحكام المدنيين. وتقدم الروايات التمثيلية نفسها الأمثلة العديدة عن الشعور بحب الوطن الذى يجيش فى نفس الشاعر.

وكان مدار الرواية –على الأقل فى المأساة– يستمد فى المعتاد، من قصص الآلهة والأبطال التقليدية ويمكن أن يستدل على مدى تنوع هذه المادة من الحقيقة الواقعة وهى أن أكثر من مائتين من مختلف الموضوعات، على ماهو معروف، عالجها واضعوا الفاجعة فى القرن الخامس.

وعلى هذا، كانت الفاجعة الاغريقية تدور حول مواقف متتالية وحوادث كانت– على الرغم من الحرية التى كان يسمح بها للشاعر فى معالجة الشخوص والوقائع المفصلة – مألوفة تماما للمستمعين الذين كانوا يعتقدون أنها وقعت فعلا فى أزمنة البطولة، الماضى.

ومن هذا كله، قام فى عقل الجمهور الأثينى ترابط وثيق بين شعر الفاجعة وتعاليم الحقائق الخلقية والصلاح. ويقوم الدليل على أن الأمر كان كذلك حتى فى المسالة من دعوى أرسطوفانس بأن شاعر الفاجعة كان المعلم الخلقى للمواطن البالغ.

ولكن كان الثلاثة العظام من واضعى المأساة، أسخولس وسفوكلس (٤٩٦ – ٤٠٦) ويوربيدس (٤٨٠ – ٤٠٦) هم الذين أودعوا فى تقاليد الاغريق الدينية معنى روحيا جديدا. وسعى أسخولس فى لغة أوحت مرارا بأنها تتماثل مع نصوص جاءت فى النبوة العبرية لكى «يبرر طرق الله للناس» وأن يفسر سيادة زيوس القديرة حتى يمكن أن يجعل البر الألهى على توافق مع حقائق الألم والخطيئة، وأن يلائم بين قوانين الجبرية والقدرية التى لا ليان فيها وحرية الإرادة البشرية.

وفى سفوكلس تمثل المراسيم الالهية بأنها تعمل عن طريق خليفة الإنسان، الوسيط الخفى، والحيد دون تعقل والعمل الأحمق الذى يكون وليد العماية والجهل، يستنزلان القضاء غير المتوقع على طبيعة هى، دون هذا، نبيلة.

وكان الشاعر على دين أبولو، اله الطهارة والنور، بكلمة النداء التى تضمنها «اعرف نفسك» ومثله الأعلى لقواعد السلوك السفرسونية وهى تتعارض مع توكيد الذات وكبرياء الحياة (هبرس) . وفى جد خلقى معادل.

ولو أنه يعبر عن مذهب الشكاك الدينى الذى يتناقض مع التلقى المحافظ فى سالفيه، مزق يوربيدس، قناع التبجيل الذى كان يخفى أفعال وخصال الالهة عن التحليل النقدى، وفى واقعية لا هوادة فيها، أظهرها للعيان كما كانت فى الواقع. ويخال أنه يقول : انكم تطلبون الحقيقة وها أنا ذا أعطيها لكم، إذا كانت هذه الأمور، كما تعتقدون، حدثت فعلا .

فان الالهة الذين ارتكبوها لم يكونوا صالحين ولكنهم كانوا أشرارا، وليسوا آلهة مثاليين ولكن قساة ينزعون إلى الانتقام وفيهم شر عواطف النوع الإنسانى.

لقد كانت صورة مزعجة، تلك التى رسمها، تعبر عن المزاج الذى تغير فى عصر عقلى المذهب وكان يوربيدس كذلك جادا إلى غور عميق فى هذا التحليل الذى لا رحمة فيه للعقيدة الصادقة، وفى عزمته التى لا يعتريها وهن، لأن يرى الحق، وأن يواجه حقائق الحياة.

وفوق كل شىء فى اشفاقه على الضعيف والمنكوب، على النساء والأطفال والأسرى والعبيد وعلى جميع الضحايا الذين لا عد لهم، لجور الإنسان والقانون الطبيعى،. وكان قد وافى الزمن عندما كانت القوى خارقة الطبيعة لعقيدة أسبق، تخلى السبيل لقوى الطبيعة، أمام العقول المفكرة.

ولكن بمجرد أن أصبح هذا جليا، فان مهنة الشاعر، كمعلم للمعرفة صار مقضيا عليها وتطلع الناس إلى العلم، وليس إلى الشعر، للهداية فى البحث عن الحق.

وكانت «المأساة» قد وطدت لنفسها مكانا فى أثينيا قبل الحروب الفارسية. ولكن كانت تلك الأزمة وما أعقبها من توسع الحياة العامة الأثينية هما اللذان أوجدا الحافز فى سبيل تقدمها. إن كل واحد من واضعى «المأساة» ، الثلاثة العظام يمثل أحد العصور الثلاثة التى ينقسم إليها تاريخ أثينا القرن الخامس،

بطبيعة الحال. كان أسخولس قد حارب فى مراثون وفى مصنفه «الفرس» وضع فى صيغة الفاجعة الانتصار البحرى فى سلاميس. وفن سفوكلس هو التعبير الذى وصل إلى مرتبة الكمال لمثالية عصر بر كليس. ويعبر يوربييدس ، كما لاحظنا عن القلق العقلى الذى يبسط رواقه فوق أثينا فى سنى الحرب البلوبونيزية.

ولكن فى المسالة الأتيكية نجد أعظم أصرة مباشرة بيني الفاجعة والحياة المدنية الأثينية. وكان أرسطوفانس، كمعظم شعراء المسلاة، محافظا أضفى المثل الأعلى على الديموقراطية المعتدلة فى زمن الحروب الفارسية.

ولما كان ذا منحى شخصى وفيه مجانة رابلية لدرجة لا يمكن تصورها فى أحوال الحياة الحديثة فانه هال التهكم، فى رواياته التمثيلية، على الاتجاهات الجديدة فى الشعر والفلسفة والسياسة، التى قامت فى الثلث الأخير من القرن.

وفى الفرسان (٤٢٤) كان هدفا لسخريته كليون السياسى الديموقراطى وفى «الدبابير» (٤٢٢) المحلفون فى محاكم القانون الشعبية وفى «العصافير» (٤١٤) أحلام الامبراطورية الجامحة التى أدت إلى الكارثة الصقلية وفى «الضفادع» (٤٠٦) فن يوربيدس الحديث؛ وهو الذى يمثل فى «المأساة» الثقافة الجديدة وفى «السحب» (٤٢٥) آراء وتعليم سقراط وفى ليسستراتا (٤١١) و «السيدات فى البرلمان» (٣٩٢) مطالب النساء فى أن يسهموا فى الحياة العامة للمدينة، المطالب التى نادى بها الكلبيون من أتباع سقراط وبعد ذلك أفلاطون فى «جمهوريته».

ان لأغانيه العاطفية التى تتأثر فى رواياته التمثيلية جمالا خارق العادة. ومن مظاهر «الكوميديا القديمة» التى أتاحت للشاعر فرصة خاصة للتهكم الشخصى كانت «براباسس».

وهى بقية من احتفالات القرية الصاخبة، القديمة، وفيها كان الجوق يستدير فى وسط الرواية التمثيلية ويخاطب الحاضرين بأغنية فيها مساس بأشخاص أو بموضوعات اليوم.

ولقد أوقع سقوط أثينا وانهيار سياستها الديموقراطية، الضربة القاضية على مثل هذا النقد السياسى الصريح. والحال مع الشعوب كالحال مع الأفراد

فى أنهم يستطيعون فقط الاستمتاع بالسخرية طالما كان وعيهم بالأمان باقيا لا يتزعزع.

وفى ساعة القوة، كان الأثينيون يحبذون حق كل مواطن فى الافصاح عن دخيلة عقله دون أن تقيده قوانين القذف. وقد عبر عن حرية الكلام هذه التى اختصوا بها، أصرح تعبير فى «الكوميديا القديمة».

ومن الجهة الأخرى فانه بقيام القرن الرابع، كفت المسلاة عن أن تكون شخصية أو تعنى بالسياسة وكانت «الكوميديا الجديدة» كوميديا أخلاق قصور طرزا من الحياة الاجتماعية فى مناهج اتبعها الرومانيان فلاوطس وطرنس وفى الأزمنة الحديثة موليير وواضعو الفاجعة الانجليز فى عصر الاصلاح.

وقد شاهد نفس العصر تدهور المأساة. ولكن أعمال واضعى الفاجعة فى القرن الخامس تظل مع نحت فيدياس من عداد جلائل الأعمال التى بلغت الذروة التى قامت بها العبقرية الهلينية فى مجال الخلق الجمالى.

وفى عبارة شاعر معاصر وهو يجيل الفكر فى تمثال زيوس الهائل الذى صنعه فيدياس من ذهب وفضة لمعبد ألومبيا وفى المأساة التى صور فيها أسخولس المارد الجبار الذى وهب الناس النار والفنون وقد صفده بالأغلال، «على القوقاز المغطى بالصقيع» طغيان الاله ذاته، القلق.

قضى الاله العظيم المصنوع من ذهب وعاج، عندما سقط الندى عشية أمس أن رغام الأرض أو زبد المحيط رمز رأسه.

والأرض والمحيط سيكونان ظلالا، عندما يحين حين بروميثيوس.

لقد كان موطن أدب النثر الاغريقى ايونيا حيث تطور إلى صورتين، الفلسفة والتاريخ. وقد سبق أن تحدثنا عن الفلاسفة الأيونيين الأوائل. كان اناكسيماندر أول من عرف أنه صنف كتابا. وكان أدب اليونان الغربية شعرا

حتى شوط بعيد فى القرن الخامس عندما أدت دراسات جورجياس الصقلى الفصاحية إلى تطورات هامة فى كتابة النثر ولو أن فارمنيدس وأنبادقليس كانا قد أوضحا فلسفتهما نظما.

وكان أول مؤرخ نقدى، هقطابوس من أهل مليطوس وكان له دور بارز فى الثورة الايونية ضد الفرس. وتبين كلمات كتابه الافتتاحية، المحفوظ فى جذادة أنه ضرب على نغمة علمية جديدة بالموازنة بتواريخ البلدان، الاخبارية فى جيل أسبق. «يتحدث هقطابوس المليطوسى، انى أكتب كما أرى أنه صدق لأن تقاليد الاغريق تخال لى أنها متعددة، ومضحكة».

لقد خلق الاغريق التاريخ، كما خلقوا الفاجعة، إذ كانوا أول من فهم كنه حقيقتها الجوهريتين، التفرقة التى لم يدركها قط فى وضوح مؤرخو الجوليات الشرقيون بين الواقع والخرافة والحاجة إلى تفسير للحقائق المدونة يقوم على الاستدلال العقلى.

والقول أنهم قذفوا بشخصيتهم فى كتابتهم ودونوا انطباعاتهم وأحكامهم هو طريقة أخرى فقط لذكر الدعوى نفسها. لقد كان التاريخ العبرى لا ينسب إلى اسم بعينه، انه كان نتاج جماعة. وحتى الأنبياء يضعون التمهيد لرسالتهم ليس بالعبارة «هكذا يقول أشعياء بن عاموس» ولكن «هكذا يقول الرب». لقد كان المؤرخ الاغريقى كالفيلسوف الاغريقى يتكلم كل منهما باسمه الخاص.

«هذا هو عرض لبحث هيرودوتس الهلقرناسى و«كتب ثقوديدس الأثينى عن حرب البلوبونيزيين والأثينيين». ولقد فعلوا ذلك عن صواب لأن التاريخ والفلسفة على السواء، يعبران عن نقدالمفكر الفرد نقدا تأمليا لحقائق الحياة.

ولقد وصل إلينا مؤلفان تاريخيان عظيمان من القرن الخامس وكلاهما يرتبط ارتباطا وثيقا بأثينا فى عصر بر كليس. ان هيرودوتس اتخذ موطنه هناك أعواما قبل أن يلحق بمستعمرة بر كليس فى ثورى فى ايطاليا الجنوبية،

وكان ثقوديدس أثينى المولد وتشبع فى حداثته بتقاليد سياسة بر كليس العظيمة. وكان هيرودوتس رحالة نافذ البصيرة وزار مصر وفينقيا وبابل وسواحل الاكسين وكذلك كل أرجا العالم الهلينى ونزعته المتحمسة للاستطلاع والرغبة فى فهم ما يسمعه ويراه «الأعمال العجيبة التى قام بها الاغريق والهمج وخاصة لتذكر الأسباب التى لأجلها شن هؤلاء الحرب، الواحد على الآخر» مما يجعله على الراجح أعظم من توفرت فيه الخصائص الاغريقية من بين جميع الكتاب الاغريق.

وفى السياسة الهلينية تجيش فيه عواطف قوية نحو أثينا والحكومة الديموقراطية. انه مرارا وتكرارا يظاهر المساواة فى القوانين وحرية القول ضد دعاوى الطغيان. وفى منهاج العقل، له صفات النوع لجيل كان يتأرجح على خط الحد بين التصديق والتشكك.

انه يوشك على الدوام أن ينبئنا بأن تقاليد شعبه الدينية حكايات عجائز ولكنه لا يستطيع قط أن يوطن نفسه تماما على أن يقول ذلك. وهو يرى إلى ما وراء كل الطبيعة وتاريخ البشر، يد اله خفى «اله يشكل مصائرنا، وينحتها فى أول صورة، لما سنكون» .

ولقد ظفر، بعدالة، باسم «أبى التاريخ» ليس لمجرد أن تاريخه هو أول تاريخ موجود يفرق بين الحق والخرافة ويسعى إلى معرفة أسباب الأمور التى تحدث ولكن أيضا لأنه سعى أولا إلى أن ينظم قصته لغرض واحد وهو أن يستعرض قيام فارس والقصاص الذى لحق بها لخطيئتها، باستخدام اليونان أداة لذلك.

وكان موضوع ثقوديدس أكثر تركزا ونظرته للأمور أعظم مراعاة للنهج العلمى، وكان هدفه تدوين الحرب البلوبونيزية حتى سقوط أثينا عام ٤٠٤. وبينما

يسرد هيرودوتس قصة الخطيئة الفارسية بكل ما لدى فنان أدب من سماحة واستفاضة مزهوا فى بهاء الظفر الرائع، فان ثقوديدس سجل قصة أثينا فى وقار صارم كئيب تدفعه الرغبة الوحدة فى كشف الغطاء عن الحق فى واقعه المرير. وبين المؤلفين، حدث ليس فقط سقوط أثينا.

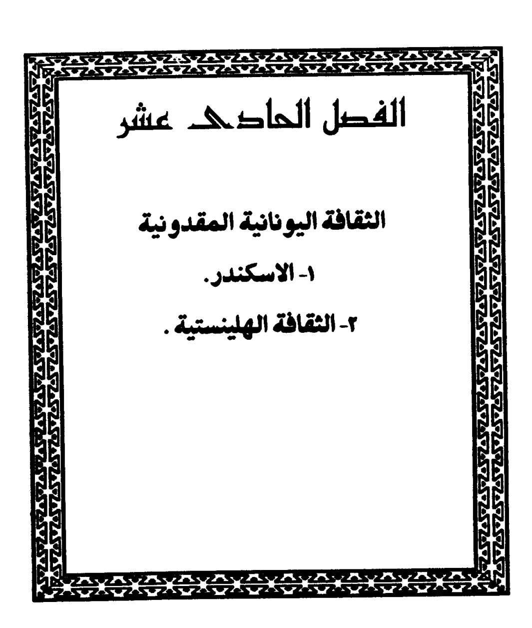
ولكن عصر الاستنارة. وفى اللغة وأكثر من ذلك فى الفكر، ينتمى ثقوديدس إلى صفوف السفسطائيين. ولما كان يكتب كسياسى لتعليم السياسيين، فانه يحلل فى دقة أسباب ونتائج الظواهر الخلقية والسياسية. وله قصة مكتوبة عن الحملة الصقلية فى شدة فاجعية لا مثيل لها فى الأدب التاريخى لأن ثقوديدس كان يعتقد كما كان يعتقد يوريبيدس أن منهاج الحياة البشية لا تقرره عوامل خارقة للطبيعة ولكن يقرره القانون الطبيعى.

وهو يبدى ضيق تشكك تام فى قبول الدعوى بوجود دافع لعمل الإنسان لا غرض من وراءه وله كل إيمان رجل ينتهج المذهب العقلى، بالعقل كمفتاح يكشف أسرار خلائق الرجال ومسلكهم. وأخيرا فى الأحاديث التى يزخر بها مؤلفه، يمكنا أن نتتبع تأثير فن الفصاحة الجديد الذى كان موطنه صقلية.

ولكن سرعان ما وجد جوا صالحا فى أثينا. وفى الربع الأخير من القرن الخامس، بدا يكون له أثر حاسم على النثر الأتيكى. واتخذت الخطابة فى المحاكم والسياسة مكانا معترفا به، كصورة لفن أدبى.

وفى القرن الرابع، لا نجد المستوى العالى للخطابة الاغريقية فى خطب ديستينس فقط، ولكن فى ديالوجات أفلاطون الفلسفية، العمل الجليل الذى وصل إلى أعظم كمال فى النثر الذى عرفته اليونان والعالم على الاطلاق، فيما هو راجح.





الفصل الحادي عشر

الثقافة اليونانية المقدونية

١- الاسكندر.

٢- الثقافة الهلينستية .

الثقافة اليونانية المقدونية

١- الاسكندر

بانبلاج فجر القرن الرابع نلج عالما جرى عليه التغيير. ولم تعد السلطة السياسية تتركز بؤرتها فى أثينا واسبارطة، ولكن مكانها انتقل إلى مراكز جديدة فى الشمال، وبدأت أحلام حكم عالمى فى مجال لم يسبق له مثيل فى التاريخ الاغريقى تثير مطامح رجال السياسة والقادة العسكريين.

ولم تكن لسيادة اسبرطة– قصيرة الأمد، تلك التى أقبت سقوط الامبراطورية الأثينية – إلا أهمية يسيرة أو لا أهمية للمدنية، وسرعان ما أيقنت المدن البحرية خواء دعوى أسبرطة الظافرة فى أن تكون محررتهم من نير الأثينيين، وأن أصبح طغيانها الصغير أغلظ من حقوى أثينا.

وكان العالم الاغريقى يتحرق خجلا وسخطا عندما أعادت فى صلح أنتالسيداس (٣٨٧) المدن الآسيوية إلى ملك فارس، ومما كان له مغزى أبعد فى خطورته، اتجاه مركز الثقل السياسى صوب الشمال، أولا إلى طيبة فى بويوثيا عندما حطمت تشكيلاتها المتكتلة المتراصة مشاة الاسبرطيين الذين كانوا مرة، أولى منعة، فى لوكترا (٣٧١ ثم عن طريق ثساليا إلى مقدونيا.

الروابط بين المقدونين والإغريق :

ان قيام مملكة مقدونيا هو الواقعة الأساسية فى تاريخ يونان القرن الرابع. وكانت تربط المقدونيين أصرة قرابة مع الاغريق فى السلالة واللغة.

ولما كانوا من سكان الجبال الأصلاب ومحاربين بنشأتهم، ويملؤهم نشاط مضطرم ويخلصون إلى رؤساء عشائرهم فقد حافظوا على عاداتهم البدائية التى كانت لغزاة العالم الايجى الأولين. على الرغم من قشرة الثقافة التى تحيط ببلاط كان قد رحب بمؤلفى الفاجعة يوريبيدس وأغاثون.

ان ملكا قويا داهية يستطيع أن يظفر ويستحوذ على اخلاص النبلاء الجامحين وأتباعهم، كان ليجد فى هذا الشعب أداة رائعة لسياسة عسكرية عظيمة.

وفى الواقع كان مثل ذلك الملك، فيليب الذى ارتقى عرش مقدونيا عام ٣٥٦ وهو فى سن الثانية والعشرين. وفى شبابه كانت تنشئته فى طيبة حتى يقدر الثقافة الهلينية، وما كان أقرب لغرضه، أن يتقن تنظيم المحاربين، للمشاة المتكتلين المتقاربين.

وعلى غرار بطرس الأعظم الروسى الذى استخدم المدنية الغربية لتوثيق شمل امبراطورية شبه همجية فقد نقل فيليب حاضرة ملكه من الداخل إلى موقع ضاح على مقربة من الساحل وأعاد تنظيم مملكته ودرب المحاربين من رعاياه على فن الحرب ..

وبهذا السلاح الذى صنعه فتح تراقيا إلى الشرق وأفاد من التفرق الدائم بين الدول الاغريقية فى اخضاع مدن ايجا الشمالية وأمكنه أحيانا بالقوة وأحيانا بأعمال السياسة التى كان فيها أستاذا لا يجارى أمكنه بهذا كله الظفر بالسيطرة على تساليا واليونان الوسطى.

وحاز ذروة النصر فى خايرونيا (٣٣٨) على جيش طيبة وأثينا مجتمعين فغدت اليونان كلها تحت قدميه.

وكانت خايرونيا- التى تتجلى فيها البطولة، تعنى أكثر من فشل جهود دمسثيتس خطيب أثينا الوطنى، لانقاذ دعوة الحرية الهلينية.

لقد دق فى ذلك الميدان المشئوم ناقوس موت دولة - المدينة المستقلة. ومنذ ذلك الحين، أصبح تاريخ اليونان السياسى تاريخ غزاتها المقدونيين.

اخضاع اليونانيان :

وكان اخضاع اليونان فى اعتبار فيليب مجرد الخطوة الأساسية لتحقيق مشروع امبراطورية، كان يعتمل فى عقول رجال السياسة والمفكرين فى اليونان خلال نصف قرن ونيف. وقد بينت هزيمة الغزاة الفرس عام ٤٨٠ تفوق جيش من المواطنين مدرب، يدفعه الولاء لدولة - المدينة الحرة فى الحرب على الوفرة الهائلة من المجندين سيئى النظام والتقويم، الذين كانت رابطتهم الوحدة فى الاتحاد، خضوعهم المشترك لطاغية شرقى -.

وتعلمت فارس أن تعترف بهذا التفوق، وقبل ختام القرن الخامس رحبت بزعماء العصابات المرتزقة من المغامرين العسكريين فى خدمتها بينما تمكنت بأربها السياسى وذهبها من بث الفرقة فى الوطن الاغريقى.

ولقد أوضح ارتداد ١٠٫٠٠٠ من المرتزقة الاغريق من قلب الامبراطورية الفارسية حتى الأكسين عبر أرض وعرة وبين أهلين معادين يناوئهم جيش من الأعداء- أن اليونان لا يمكن التغلب عليها حتى لو كانت الحرب على غير تربتها.

ومنذ تلك اللحظة (٤٠١-٤٠٠) خامرت فكرة حرب انتقام، غزو يونانى لفارس، عقول القادة الاغريق. ولقد رأى الفلاسفة وأصحاب المثل العليا من السياسيين من أمثال أفلاطون واسقراطس فى حملة صليبية قومية ضد الهمج الفرصة للاتحاد الهلينى وعلاج الصراع الداخلى.

ولكن دول - المدينة فى اليونان كانت تحرص على استقلالها حرصا جاوز الحد، دعاهم ألا يتسامحوا فى قيام تكتل سياسى. ولقد فرض الاتحاد من الخارج، الملك المقدونى.

ولما دانت السيادة لفيليب بعد خايرونيا بقوة عتاده، أعلن عن المغامرة التى طال وضع الخطة لها. وكان جيشه قد نظم وأخذ أهبته للحرب عندما مات بيد سفاح (٣٣٦). ووقع عبء تحقيق المهمة على عاتق ابنه الاسكندر.

ان الاسكندر يجىء فى ختام فصل قديم فى تاريخ العالم وبداية أخر جديد. كان غزو خشيارشاى لليونان قد استهل ناحية جديدة فى المباراة العنيدة بين الشرق والغرب. وكان اجتياح الاسكندر للامبراطورية الفارسية ختام هذه القصة فى الفاجعة التاريخية.

وكانت الكارثة تعشى البصر فى سرعتها. ففي ربيع عام ٣٣٤ عبر الاسكندر السبنطس وسحق حرس الفرس الأمامى على جرانيقس واجتاح الأراضى الساحلية فى آسيا الصغرى واستوثق التحكم فى الطريق العام العظيم التى تيسير عبر جبال الداخل حتى بوابات كيليكية.

وفى السنة التالية، ظفر بأول نصر له عظيم على الملك دارا بشخصه فى اسبوس فى الركن الشمالى الشرقى من أرض المشرق وقد عرض عليه الملك المغلوب الشطر الغربى من امبراطوريته حتى افرات غير أنه رفض فى استعلاء تصالحا فيه مساومة.

ان الاستيلاء على صور فى عام ٣٣٢ بعد مقاومة تنبىء سلفا عن مقاومة قرطاجنة أو أورشليم -كان الساميون مروعين عندما يحاصرون- جعل الاسكندر يملك زمام القوة البحرية فى شرق البحر المتوسط وأعقب هذا اجتياح كنعان ومصر.

وفى عام ٣٣١ واصل السير إلى قلب الامبراطورية الفارسية وظفر بالغلبة فى ذروتها على دارا فى جوجميلا، فى وادى دجلة. وقد كشف موت الملك الهارب، فى الصيف التالى للعالم عن غرض الاسكندر الحقيقى الذى كان إلى ذلك الحين، ملكا مقدونيا وقائدا عاما للاغريق.

وهو الآن يبرز للأمام كوارث للمملكة الفارسية، «كملك الملوك»، بدلا عن دارا. ولقد شهدت السنوات الخمس التالية سلسلة من الحملات الرائعة والتقدم دون عائق وأخضع فيها الاسكندر الولايات الشرقية حتى أكسس جاكسرتس وإلى ما وراء الهندوكوش.

واخترق ممر خيبر وفتح البنجاب واجتاز وادى السند حتى مصبه. وعندما رفض جيشه السير صوب الشرق إلى الكنج عاد الأسطول عن طريق الخليج الفارسى والقوات البرية عبر صحراء مقران المروعة.

ورجع الاسكندر إلى سوس حاضرة فارس القديمة فى ربيع ٣٢٤ وقد خصصت شهور قليلة لتنظيم الامبراطورية واسعة الأرجاء. وقبيل يونيو من عام ٣٢٣ كان قد جمع فى بابل جيشا لجيا لغزو بلاد العرب. وهناك أخذته فجأة حمى ووافته المنية بعد مرض دام عشرة أيام، وله من العمر اثنان وثلاثون عاما.

غزوات الاسكندر :

وقد فتحت غزوات الاسكندر عالما جديدا أمام اليونان، وبتوسيع مدى المعرفة أتت بنتائج هامة على الفكر العلمى. ولكن أعظم جلائل أعماله كان نشر الهلينى على العالم الشرقى. وتظهر عبقرية الاسكندر السياسية فى أعظم بيان فيما انتواه عن تدبر، من صهر الروح الهلينية والروح الشرقية فى كتلة واحدة.

فمن جهة تبنى الوسيلة الفارسية فى العيش واللبوس الفارسى والعادات الفارسية – ومارس وشجع التزاوج المتبادل واعترف بديانات الشعوب المغلوبة وصار فى جميع الأمور شرقيا أمام الشرقيين. ومن الجهة الأخرى أدمج فى نظام المشاة المتكتلين المتقاربين، الفرس وربى شبابهم على الثقافة الهلينية ورقى أشرافهم فى خدمته.

ولما كان يدرك فى وضوح أن سياسة المزج هذه يجب أن تقوم على أساس اقتصادى، جهد فى أن يخلق مذهبا للتجارة العالمية يربط النيل ودجلة والسند، بالبحر المتوسط. إن قلة من أتباعه المقدونيين كانوا قادرين على أن يسهموا فى هذه الأفكار العظيمة.

وانا لنقرأ عن سخط وعصيان بين حين وآخر فى الأعوام التى تلت عام

٣٣٠ مما كان يدفع الاسكندر إلى ندرة من أفعال القسوة هى على نقيض بين من ديدنه فى السماحة وانسانية طبعه.

وكانت أداته الهامة فى العمل على تلاحم الشرق بالغرب، تأسيس المدن على التموذج الهلينى وكانت مدن الامبراطورية الفارسية قليلة العدد وهى حقيقة تفسر نهائية انتصاراته الحاسمة فى الميدان.

وكان الاسكندر يقيم المدائن فى كل مكان أثناء تقدمه.

الاسكندرية وهى أشهرها جميعا، فى مصر، وفى وادى الفرات، وفى أقصى شمال شرقى التركستان، وعلى ضفاف السند، وعلى شواطئ الخليج الفارسى. وهذه المدائن بمستعمراتها من المقيمين المقدونيين والهلينيين كانت تكون المراكز الدائمة للثقافة الاغريقية.

وكانت نتيجة هذه السياسة، التى اتبعها خلفه، ان حياة الاقليم الشاسع من ايجا إلى السند ومن القزوين إلى الحبشة أتت عليه الروح الهلينية بالتحول، فى درجة تعظم أو تصغر.

وقد تأصل العلم الاغريقى فى بابل وناثر فن ودين وحكم الهند السياسى، بطابع العقل الاغريقى. وعندما تمعن الفكر فى أن هذا العمل العظيم يمثل جزءا فقط من سياسة الاسكندر أنجزه فى شهور الفراغ القليلة بين الغزوات، تدرك أنه حدث لا يكاد يوجد له مثيل فى تاريخ البشر.

خصائص الاسكندر :

وقد ادعت الأسرة الحاكمة فى مقدونيا أنها من سلالة اغريقية وكان الاسكندر فى خصائص الخليقة الجوهرية، اغريقيا- وفى أوقات، كانت العواطف الجامحة تحطم حدود ما كان يتجمل به من شمائل انسانية وتقويم نفسى بطبيعته ولو أنه أظهر، عن أعمال العنف القليلة المدونة، ما يوازيها من ندم

عارم.. ولم تكن الثقافة الاغريقية عنده، كما كانت عند الكثرة من ضباطه قشرة رقيقة تحجب الطبع الهمجي فيه - ان شعرها وفكرها أثارا اثارة عميقة طبيعته المتحمسة المستعمرة، وكان لمدة ثلاثة أعوام فى حداثته وهو بين الثلاثة عشرة والسادسة عشرة تلميذا لأرستطاليس أعظم مفكر فى عصره.

ولقد تغذى خياله بقصيد هومر، وفى بلاطه ومعسكره كانت تقام احتفالات الألعاب الرياضية وتمثيليات الفاجعة، وفى ساعة الانتقام من طيبة عفا عن منزل بندار من أن تلتهمه ألسنة النيران.

وعندما كان يجلس «كملك الملوك» على عرش دارا العظيم أو يتخذ فى مصر أنواع التشريف التى كان يتميز بها فرعون، لم يكن أبدا ضحية مجده الخاص، ولكن ظل قلبا وعقلا اغريقيا.

وكانت له قوة بدنية عظيمة وشجاعة ويجازف بحياته فى تهور ظاهر فى الميدان. وحدث مرة فى الهند أنه وثب مع ثلاثة رفاق داخل مدينة محاصرة وأصابته جراح كادت تقضى عليه.

وكان لزاما على ملك المقدونيين غلاظ القلوب، الذين كانوا ينزعون إلى الحرب، أن يملك زمام ولائهم بالبسالة الشخصية. إن قلة من الشخصيات التاريخية العظيمة يتجردون عن ضعة الروح، كما كان الاسكندر.

ولما كان مكشوف الطوية، صادقا، متحمسا فى الصداقة الشخصية - ويتسم بصفات الفروسية للأصدقاء والأعداء على السواء، وتستبد به كبرياء نبيلة وحب للشرف فانه قسر قواده وجنوده كليهما على خدمته بوشيجة قوية من المغناطيسية الشخصية، وكانت نقاوة خصاله الخلقية مضرب الأمثال، وأعجوبة زمانه. وبهذه الخصائص فى عقله وشخصه كان يأتلف صفاء البصيرة وقدرة على أن يلائم بين الوسائط والغايات واسمى تفوق فى فن الحرب والجمع النادر بين الخيال السياسى وفن ادارة شئون الدولة، فى ذروته.

وكان بطل خياله الابداعى (الرومانسى) أخلوس الالياذة ولكن فى الاسكندر نرى وقد أدوج بالحماس والشجاعة وحب المجد الذى كان للبطل الهومرى، ميراث الثقافة الخلقية والعقلية الزاخر الذى جاءت به السلالة الهلينية فى مجرى تاريخها الطويل.

ميراث الاسكندر :

وقد جاء فى الأسطورة أن الاسكندر وهو فى النزع عندما سأله قواده عمن يورثه امبراطوريته، أجاب «للأقوى» ولمدى عشرين سنة كانوا يتآمرون ويتحاربون من أجل الميراث، إلى أن قررت معركة أفسس فى فروجيا (عام ٣٠١) - الخطوط العريضة للتقسيم، للعصر اللاحق. وقد آلت شبه جزيرة البلقان إلى لوسماخس وكونت مملكة مقدونية منفصلة لها السيادة على اليونان الأوربية.

وكان بطليموس قد احتل مصر عقب موت الفاتح العظيم مباشرة، واستمرت أسرته فى حكم ذلك القطر إلى أن اندمج فى الامبراطورية الرومانية، ووقع معظم أملاك الاسكندر، الأقاليم الآسيوية من ايجا حتى السند، فى يد سلوكس الذى أصبح منذ ذلك الحين ملكا على آسيا.

ولا يمكننا أن نتقصى التاريخ المفصل للمشاحنات التى وقعت بين هؤلاء الحكام خلال القرنين التاليين اللذين ثارت فيهما العواصف والتغيرات. لقد كانت سياسة شرق البحر المتوسط فى أيدى حكام مستبدين، هلينيين كثيرا ما كانوا قادة قادرين فى الحرب والسياسة.

وكثيرا ما كانوا ابداعيين (رومانسيين) فى شخصياتهم وأقدارهم، ومن الجهة الأخرى، كثيرا ما كانوا مجرد أوساط، لعبا للفرص والظروف، مغامرين محبين لذواتهم أو هاوين فن، فيهم خمولة، أو عبيدا للفساد والعاطفة التى تنزع للانتقام،

وفى عصر كان يتيح فرصا لا حد لها للعبقرية الفردية فاننا لا نجد زعيما للناس من الطراز الأول إلا إلى تلك اللحظة التى سار فيها فى فجر القرن الثانى شخص البطل القرطاجنى العظيم إلى مصيره، عبر المنظر العام للعالم الشرقى يضمر إلى النهاية المريرة، كراهية لروما لا يخمد أوارها.

هنيبال :

ولكن هنيبال كان ساميا ومنفيا فى بلاد غربية، وكان حكامها الانتيجونيين والبطالمة والسلوكيين قد صيغوا فى قالب جد مغاير. وأهميتهم للتاريخ ترجع غالبيتها تقريبا إلى توسيع سياسة الاسكندرفى صبغ الشرق بالهلينية. وبخلاف ذلك فقد تابعوا طريقة التعاظم الشخصى أو اتبعوا فى مناهجهم فى الادارة النماذج التى وضعها السلف من حكام مقدونيا ومصر والامبراطورية الفارسية.

ولما كانوا اغريقا فى السلالة واللغة والعادات، فقد كانوا يديرون دفة الحكم فى القصور الهلينية بمعاونة الجند الهلينى والوزراء الهلينيين. وفى نية مدبرة نشروا المدنية الهلينية وحافظوا عليها، وسبقوا فى جيلهم رسالة روما التاريخية فى زمن لاحق، وكان تأثير هذه السياسة فى الشرق وفى الغرب على السواء لا يمكن حصره.

وكان معظم نجاحها مستقلا عن شخصية الملك الذى كان كما لاحظنا لا يعمل شيئا أو فظا جافى الطبع. أن بلوبيوس يوصم اسم البطالمة فى صراحة بأنهم شخوص لا أهمية لهم. ومع هذا فقد كان هؤلاء البطالمة عينهم هم الذين درجوا على تأليه الحكام.

لقد كان ملوك مصر القديمة يعبدون على أنهم المظاهر الجسدية لأمون (رع) وحتى الاسكندر عبد كإله أثناء حياته. وسرعان ما شاعت العادة، بين السلوكيين مثلا. وفى منشأها كانت هلينية دون أن تكون شقية.

إن الدين الألومبى كما رأينا قد صور الآلهة فى شكل الإنسان وفى نهج غريب عن ديانات الشرق، وكان اختلافهم عن الناس اختلافا فى الدرجة لا فى النوع، إلا فى واقعة خلودهم. وفى العصر الهلينى كانت الحاجة إلى الخلاص يحس بها احساسا ملحا، والأناجيل الفلسفية كانت عسيرة الفهم عسرا تجاوز الحد، لتستهوى الخيال الشعبى، لماذا إذن لا يجب اعتبار مخلص حى الها؟

وزيادة على ذلك فان الممالك التى تركز الحكم فها والتى أقيمت فى الجيل الذى جاء بعد الاسكندر كانت فى حاجة إلى رمز ظاهرى للوحدة والولاء الشخصى للحاكم. وقد حققت عادة التأليه هذه المطالب الجديدة فى عهد السيادة المقدونية كما بعد ذلك، فى عهد سيادة الامبراطورية الرومانية.

وانها تظهر للعبريين والمسيحيين الذين ترعرعوا فى عبادة اله واحد، خالصة، لعنة كفر. ولكن الاغريقى والرومانى كانا ينظران إليها نظرة جد مغايرة. ولم تكن تعنى عندهم أكثر ما يعنى الوضع فى قائمة القديسين، عند المسيحيين الكاثوليك فى زمننا، إلا قليلا.

لقد كانت طريقة طبيعية للتعبير عن العرفان بالجميل لمنافع الخلاص. ولو كان ما لدينا من سجلات وافيا أكثر مما هو عليه. لكنا على الأرجح قد وجدنا أن مهمة بسط الهلينية كانت فى أيد بيروقراطية قديرة، وأن الأداة الادارية كما حدث بعد ذلك فى عهد الامبراطورية الرومانية حافظت على كفاءتها على الرغم من شطحات الأفراد من الحكام. ومثل يسترعى النظر، لهذه الكفاءة هو تقدم الزراعة المصرية تقدما سار على مذهب منظم، فى عهد البطالمة وهى مهمة كان قد أهملها الحكام الفرس. ونتيجة لهذا، أصبحت مصر أهم مخزن للغلال فى الامبراطورية الرومانية.

وزيادة على هذا- فإن المدينة الهلينية وهى أداة السياسة العظيمة كان من شأنها بمجرد أن تؤسس، أن تزدهر عن طريق حيويتها الخاصة، العضوية.

ولقد كان الملوك السلوكيون فى آسيا، من بين الأسرات الثلاث الاغريقية المقدونية هم الذين حملوا أثقل عبء، ومع هذا فقد ساروا قدما فى العمل على نشر الهلينية بما كان له عظيم الأثر.

وكانت كل من مقدونية ومصر دولة متضامة متجانسة ومن السهل نسبيا الدفاع عنها، بينما كانت الامبراطورية الاسيوية يعوقها عدم الوحدة الداخلية والتماسك.

كما كانت الحال عينها فى فارس فى زمن مضى، وقام الدليل على أن ملوكها كانوا غير أكفاء على أن يصاولوا فى نفس الوقت منافسيهم فى الغرب، وفى الشرق، البطالمة والمقدونيين من جانب، ومن الجانب الآخر الدولة الفارثية التى نهضت فى القرن الثالث فى ايران.

وسرعان ما استعادت البنجاب استقلالها، وآلت الولايات إلى الشرق من دجلة، إلى الفارثيين، وفى بواكير القرن الثانى وجد خلفاء سلوكس أنفسهم محصورين فى الأراضى التى تقع بين الفرات والمشرق وقد حبسوا بين فارثيا وروما. وبعد مائة سنة، توارى حكمهم حتى من سوريا وواجهت جحافل الرومان الفارثيين على الفرات.

بيت سلوكس :

ومع هذا – ففى خلال هذه القرون القلائل حقق بيت سلوكس أمورا عظيمة للمدنية. وبتأسيس طائفة عظيمة من المدن فى سوريا وبلاد بابل وفى آسيا الصغرى والأراضى الواقعة حول القزوين، فانهم غرسوا الهلينية فى الشرق الأوسط ومهدوا ساحة اجتماع للفكر الاغريقى والشرقى. ولم يكن الدين من جانب واحد وحسب.

وإذا كانت الثقافة الهلينية قد تأصلت فى آسيا، فان ديانات الشرق أيضا

بدأت تسيطر على عالم البحر المتوسط. وكان الاندماج مشحونا بنتائج هامة. انه كان فى انطاكية الحاضرة السورية للسلوكيين أن تلاميذ الديانة التى قدمها الشرق إلى الغرب أطلق عليهم لأول مرة الاسم الاغريقى المسيحيون.

سقوط المدنية الهلينية :

إن قيام الدولة المقدونية كان معناه سقوط دولة – المدينة الهلينية، كوحدة سياسية مستقلة، وكان هذا الثمن الذى دفعته اليونان للفرصة التى تاحت لها فى بسط الهلينية على الشرق . وكان هذا العمل الجليل ميسورا فقط لدولة عظيمة.

وفى الأزمنة القديمة فى طول مداها، كان معنى الدولة العظيمة، الحكم الاستبدادى، وسنرى كيف أن روما أيضا كفت عن أن تكون جمهورية عندما استحوذت على امبراطورية عالمية.

إن الأساليب التى تستخدمها الأمم الحديثة للتوفيق بين ممتلكات فسيحة الأرجاء الاحتفاظ بالحرية السياسية وهى الطباعة والنقل بالبخار وطرق المواصلة بالكهرباء، وفوق هذا كله الحكومة النيابية، لم تكن معروفة للأقدمين.

ولكن توكيدنا ولو أنه صادق فى معظمه، يجب أن يقبل بتحفظات معينة. ويرجع أحد الأسباب إلى أن المدنية الهلينية ماتت موتا عسيرا ولقد شاهدت الحقبة الاغريقية المقدونية مكافحات متكررة بين القوات التى تناصر النزعة الجمهورية وتلك التى تنزع إلى الحكم الاستبدادى.

ولم يكن فى قلة من الحالات أن الجمهوريات كانت قادرة على الاحتفاظ بكيانها. وكان الأمر كذلك فيما يوالى حدود امبراطورية الاسكندر فى الغرب حيث ظلت جماعات مثل سيراكوز وطرنطم ومسيليا مستقلة إلى أن أدمجت تحت حكم روما .

وفى جهات أخرى نجد المدن الفردية تحتفظ أو تسترد استقلالها طبقا لظروف الزمان والمكان المتغيرة . وفى اليونان الأوربية فازت أثينا واسبارطة وفاز التحالف الايطولى والتحالف الأخائى بحكم ذاتى لفترة عابرة، وشبيه هذا يصدق على بوزنطية، وهرقليا، على الأكسين وخيوس وبعض بلدان ايجة، ولقد استمتعت المدينة الجزرية، رودس «خاصة» بعهد باهر من الرخاء التجارى تحت حكومة جمهورية ألغت القرصنة وبسطت حمايتها على الولايات الأضعف دون فرض ضريبة وأنشأت مدونة قانون بحرى، جليلة الشأن وقامت بالوصاية على الدين والثقافة جميعا وحافظت على ابتعادها عن المشاكل الدولية حتى منتصف القرن الثانى.

ومثل آخر : كانت فرغامس التى ازدهرت كموطن للفن والثقافة تحت حكم ولاة منها، بيت أطلس وكانوا أمراء من التجار ذوى ثراء دافعوا عن ذمار الهلينية ببسالة ضد حملات المغول الهمج على آسيا.

ولكن غالبية المدن الهلينية كانت خاضعة سياسيا لإحدى الممالك المقدونية الثلاث ولقد سمح لهذه المدن، فى معظم الحالات بالحرية التامة فى الحكومة المحلية واعترف بكثير منها مثل أزمير أو المدن الهامة فى كليكية وفينيقية ووادى الأورنط بأنها «مقدسة ومعصومة»، تقوم خارج مذهب الإدارة العادى.

وكان مركزها تحت الحكام المقدونيين، كما كان فى عهد روما، مماثلا لمركز المدن الهانسية الحرة فى زمن الامبراطورية الرومانية المقدسة.

وكان الحكام حريصين على مراعاة صور الاحترام الخليق بتقاليد دولة – المدينة الهلينية، العليا، وأن يتحدثوا ليس عن «رعية» ولكن عن «حلفاء» وعن «المساعدات الاختيارية»، بدلا عن «الجزية» وأن يقووا صالحهم المادى بمنح سخية وخاصة لمعابد المدن.

وأن يحجبوا على وجه عام، تحت قناع من الحرية المعترف بها، حقيقة الخضوع القاسية.

وكانت المدن فى دورها على استعداد بأن تتزلف إلى الطغاة بأنواع التكريم الالهى، وهذا علامة على تدهور فى مزاج دولة المدينة فى القرن الخامس. وفى جميع الأحوال، كان السلوكيون يحبون الهلينية حبا صادقا، وكانوا يعلمون تمام العلم أن بسط الصبغة الهلينية كان يمكن انجازه فقط عن طريق متعضى المدينة. ولكن عندما يضع المرء موضع الاعتبار الكلى استقلال المدن الفردي وتضاعف البلدان الجدد، فى المملكة السلوكية وسياسة التسامح التى جرى عليها حكامها للقديم منها والجديد على السواء فان الحقيقة تظل قائمة بأن سيادة دولة – المدينة الاغريقية ومعها أصل نبع روح الحرية السياسية قد ذهبت عن الوجود.

وعلى ذلك يمكننا أن نقدر المقاومة فى حماس شديد التى قامت بها أثينا ضد فيليب بزعامة ديموثينس ورفض الولايات الاغريقية من أن تعميها روعة انتصارات الاسكندر التى تأخذ بالأبصار، عن التضحية الحقيقية التى كانت تترتب على تلك الانتصارات.

ولقد شعروا – بالغريزة– أن ضربة قد وقعت على الجذور التى أفرخت منها الهلينية. وفى الواقع كان الأمر كذلك. وفى بطء ولكن فى توكيد فقدت السلالة الاغريقية نشاطها القديم فى غضون العصرين الاغريقى – المقدونى والاغريقى – الرومانى.

وكان الاغريق «أشبه بمالك أسرة قديمة لا مكوس عليها الا للملك، رهن وفقد ميراثه ولكن لا يزال يسمح له بأن يعيش فى بيته القديم. ولقد ذهب عنهم سحر الملكية الجوهرى، ومعه كل بهجة الحياة الاجتماعية وفيضها، ولو أن هذه

الكارثة كانت لتعمل على توسيع أفقهم العقلى وتوجد لهم مصالح جددا وعملا آخر يضطلعون به -

فان ينبوع جهدهم العقلى ما كان ليجرى مرة أخرى بمثل ذلك الصفاء والقوة، كما فى أيام الحرية الكاملة لدولة المدينة، الفردية. وبدون ريب، تفتحت فى نفس الوقت امكانيات جدد أمام الهلينية وقد أتت مع تبدل الأحوال الاقتصادية، نتائج اجتماعية وسياسية بعيدة المدى.

فانه بوجود معظم التجارة الشرقية فى يد اليونان، تقدمت مؤسسات الأعمال فى قياس جديد على نطاق واسع. وحلت محل مناهج المصارف القديمة مناهج أخرى، واتسعت مسافة الخلف بين صاحب رأس المال والعامل الصناعى مع النتائج التى لا معدى عنها فى أن أمان المدن التجارية الهامة أصبح يهدده الخوف من ثورة وارتفعت الأسعار فى كل مكان بحيث خرجت عن كل تناسب مع زيادة الأجور وقد فقدت الدراخمة (عملة اليونان) بين القرنين الرابع والثالث نصف قيمتها وكانت الجماهير فى خطر دائم من حدوث مجاعة ولم يكن يوجد طبقة وسطى عظيمة لتكون جسرا للهوة التى كانت تفصل نوى اليسار العظيم عن الفقراء فقرا مدقعا.

ولهذا قامت الصيحات لمجموعة الأدوية التى تشفى جميع الأدواء الثورية كالغاء الديون وتقسيم الأرض تقسيما متعادلا ومصادرة الملكية الشخصية وتحرير العبيد -

تلك التى وجدت عضدا نظريا من أفكار الرواقيين التى كانت تنتشر الآن بين الطبقات المثقفة. وعلاوة على هذا - فإن غزوات الاسكندر جلبت عالما أوسع إلى داخل مجال نظر الإنسان، أكثر مما كان يتوافق مع الاحتفاظ بوطنية تتصل بالمدينة وحسب.

وقد مهد استبداد مقدونيا وروما وهو يحطم الحواجز التى كانت تفصل

الاغريق عن الهمج والغربي عن الشرقي، الطريق للمثل الأعلى للمذهب الكوني الذي كانت تعبر عن فلسفة الرواقيين، وفي القضاء الروماني وأخيرا في الديانة المسيحية.

لقد كان يوجد شيء فيما خلقته العبقرية الاغريقية وفي روحها يتعالى على قصور السلالة التي انتجتها. كانت الهلينية نورا ليس فقط للهلينيين، ولكن للبشرية ورأت الساعة التي غابت فيها في سماء موطنها، فجر طلوعها بين الشعوب غير الهلينية.

الثقافة الهلينستية

– كان البلى الذى أصاب الهلينية جد تدرجى لأن الثقافة الاغريقية احتفظت بنضارتها وتميزها خلال الفترة المستطيلة من التدهور، لقد غاضت الينابيع، لكن الجدول كان لا يزال يفيض ولو أن جرمه أصبح أقل وفى ركود أعظم. وكانت الأمواه، أمواه اليونان.

وغرضنا هنا أن نضع شكلا مجملا لخصيصة تلك الثقافة العامة لها يطلق عليها العصر الهلينستى الذي يقع بين حكم الاسكندر وحكم روما (٣٣٠–٣٠ق.م). وهناك حقيقتان :

أولا: كان يعنى فقدان استقلال المدينة (الاستقلال المدنى) أن مهمة الحكم الخطيرة لم تعد بعد من شأن المواطن الفرد، ومنذ ذلك الحين، يسير الأدب والفكر فى جو من المصالح الشخصية وجو الحياة الاجتماعية، وهى بمعزل عن الحياة العامة.

ثانيا: أن اليونان تعى وعيا يطرد ازديادا ماضيها الذى أنجز، وهى حتى ذلك الحين كانت خالقة الحاضر والمستقبل تصبح الآن تاريخية تنزع إلى التأمل. انه عندما يسير الواعز للخلق إلى بلى ويبدأ النشاط فى الوهن تتحول السلالة صوب جلائل أعمالها الماضى لتحلل وستجل. ان بومة مترڤا لا تشرع فى طيرانها إلى أن تبدأ ظلال المساء تخيم.

– ان الأدب الهلينى والفن الهلينى: هما نتاج أحوال الحياة والفكر التى تغيرت. ان الأدب –بصفة عامة– يتميز بالثقة والعلم وبالنقد والتأمل وبمحاكاة النماذج القديمة، وصب الخمر الجديدة فى القوارير العتيقة أو مرة أخرى، بالرغبة فى تقديم التسلية الاجتماعية لجمهور مثقف وهو يعتمد اعتمادا وثيقا على رعاية العظماء.

وفى هذا المجال، كما فى مجال العمل، كان العصر عصر رجال ماهرين من الدرجة الثانية، وكان رجل العلم النابه حقا، أرطوسثينس يلقب (ببيتا) (أى من الدرجة الثانية). ولو أن هذا فيما يرجح، كان التعبير عن الغيرة التى كان يشعر بها اخصائيون نحو زميل له نظرة عقلية أكثر اتساعا من نظرتهم.

وانا إذا استثنينا رودس، وأثينا، فان مراكز النشاط الأدبى والعلمى الهامة، كانت قصور الطغاة، وكان الشعر بالطبع، أكثر نضارة أينما كانت الحياة فى أعظم حرية، كما فى صقلية فيما يوالى مدى الامبراطورية المقدونية أو فى أثينا وموطن التقاليد العظيمة، حيث كان مظهر الاستقلال السياسى على الأقل، يحافظ عليه فى حماس.

أناشيد الرعاة :

وكانت أناشيد الرعاة لثيو كريتس السيراكوزى (حوالى ٢٧٠) آخر الأعمال الجليلة التى قامت بها عبقرية الشعر الاغريقية الجديرة بالذكر، ولها مرتبة هومر وواضعى الفاجعة الأتيكية.

لقد أنشأ ثيو كريتس صورة جديدة من الأدب. وكان مصدر الالهام لشعر المراعى لجميع الأزمنة اللاحقة بما فيها قصيد المراعى، القصار لفرجل ولوسيداس للتون وادونس لشلى. وقد ازدهرت فى أثينا، المسلاة الجديدة»، فى الأخلاق (٣٣٠-٢٥٠) التى كانت تصور أنواع الخصائص والمواقف فى الحياة الاجتماعية الاغريقية، بدلا من الشخوص الأحياء الذين كان أرسطوفانس يهجوهم فى تهكم.

ولقد جلب مناندر وزملاؤه من واضعى الفاجعة، إلى المسرح، الوالد المشاغب والابن المسرف والطفيلى ومستودع الأسرار من الإناث، والمحظية والبخيل، والمغامر الثرثار، من أشباه الهرفجونيين والدجالد ولجتيين فى ذلك العصر.

وفى المسلاة والأمثال والملحمة كان أمر الحب بين الرجل والمرأة، الذى كان يخلو منه بصفة ظاهرة، الشعر الاغريقى، الأسبق قد صار موضوعا سائدا. وعلى سبيل المثال كتب أفولونيس، الشاعر الرودسى، وهو يقلد صورة الملحمة، فى عهد أسبق، فى أبيات من ستة مقاطع قصة الأرغنوط وحب ميديا ليسون ولقد عبر عن روح الرومانسية (الابداعية أجمل تعبير فى شعر المرائى الذى كان موطنه الاسكندرية).

وكانت المدنية نفسها، تحت رعاية البطالمة، مركز العلم الهلينى وكانت تقوم مكتبتان، تضم أحدهما ٧٠٠ر٠٠٠ مخطوط، وهما يدلان على الحماس الذى كان فيه يجمع الأمراء والعلماء، عيون مصنفات الماضى، وكانت مدارس من النقاد والشراح تكدح فى مهام التحرير والتفسير. وإلى جانب العالم كان يوجد الطفيلى والمتفقه. وكان العصر يجمع بين الثقافة العامة وبحث المتخصص. وبفضل البردى أصبح يوجد جمهور مثقف يعكف على القراءة وقد ازدهر النقد اللغوى والنقد الجمالى فى الاسكندرية.

وسارت فروع العلم قدما إلى الأمام بمعاونة الوسائل والمعطيات الجدد. ومن بين العلماء الذين كان موطنهم المتحف كان رجل الهندسة إقليدس وأرشميدس الذى كشف مبدأ الرافعة والجغرافى ارطوسثينس القورينوى أول من قاس درجة عرض على سطح الأرض والعالم الهومرى أرسطرخس السمثراقيوى.

ولقد كان تقدير أرطوسثنيس لمحيط الأرض بثمانية وعشرين ألفا من الأميال قريبا من الحقيقة قرابة تدعو إلى الدهش حقا، وكان أرطوسثينس أيضا هو الذى أدمج فى مصورته الجغرافية ثمرات الرحلة ذائعة الصيت التى قام بها فوثياس المرسيلى (أواخر القرن الرابع) فى محاذات ساحل أوربا الأطلنطى حتى بريطانيا وسواحل بحر الشمال إلى مصب الألب.

وفى الواقع يمكن أن يعد اغريق القرنين الرابع والثالث مبتكرى علم الجغرافيا. وفى منتصف القرن الثالث وضع الرياضى والفلكى العظيم أرسطرخس الساموسى (حوالى ٣١٠-٢٣٠) نظرية مركزية الشمس، وهو يقتفى آثار العلم الفيثاغورى والأفلاطونى.

وفى الاسكندرية أيضا أصبح علم التشريح لأول مرة أساس علم الطب (هاروفلس حوالى ٣٠٠ق.م). وفى المستعمرة العبرية فى الاسكندرية التى كانت تتمتع بميزات خاصة، أتى اتصال الثقافة الشرقية والثقافة الغربية بالثمار فى اصدار الترجمة السبعينية، النسخة الاغريقية لأسفار العهد القديم.

ان هذه الحقبة تسترعى النظر أيضا بصنفاتها التاريخية وأشهرها مؤلف بلوبيوس (القرن الثانى) وهو رجل سياسة جمهورى اغريقى حمل كرهينة إلي روما فى زمن فتح مقدونيا واستمتع بصحبة الرهط الاسقيفيونى، ذائع الصيت.

ولقد سجل فى لغته الأصلية توسع الدولة الرومانية وقد ألهم بذلك - وهو اعتراف نادر من مؤلف اغريقى - الاعتقاد فى صلاحية السلالة الرومانية لحكم العالم.

ومن الأمور ذات المغزى عن نجاح سياسة بسط الهلينية كان تاريخ مصر الذى وضعه الكاهن الوطنى مانيثون وتاريخ بابل كذلك الذى وضعه الكاهن الوطنى بروسس وكان عالما بابليا، يحمل الاسم الاغريقى سليوكس هو الذي ناصر النظرية الجديدة لمركزية الشمس فى السموات، فى القرن الثانى.

ولقد أوجد الجو السياسى الذى كانت تتوفر فيه حرية أعظم فى أثينا ورودس دافعا لقيام مدارس الفصاحة ذائعة الصيت.

وكان العهد أيضا عهد تنظيم المعرفة فى المدارس والمكتبات. ولقد قامت مراكز للجامعات، على أنموذج أثينا، فى العالم الهلينى، كما فى رودس، وفرغامس وطرسوس فى كليكية .

وفى ختام تاريخها، فنيت الثقافة الاغريقية اعياء من فرط التعب فى أكاديميات العلم، ولكن كان فى أكاديميات العلم أنها نهضت مرة أخرى وسرت فيها الحياة، فى ايطاليا فى عصر النهضة. ومظهر آخر من مظاهر الأدب الهلينستى جدير بالملاحظة ، لأجل مواطنيهم ولكن وفقا للنظرة العالمية الجديدة لجمهور كان عالميا، وفى الوقت ذاته تدرب على ثقافة الماضى.

الفن فى العهد الهلينى :

وكان الفن فى ذلك العهد كذلك ، منذ بداية القرن الرابع فصاعدا يعبر عن النظرة إلى الحياة التى تبدلت، وإذا كان فن العمارة وفن النحت فى عصر فيليب والاسكندر يعوزهما استقرار وعظمة الطراز السابق فانه يوجد كسب يعوض عن الخسارة، فى اتقان الصنعة اتقانا متزايدا وتصوير العواطف الإنسانية فى حرية أعظم وقدرة عجيبة على ابراز الخصائص الفردية.

وكلما تقدم الزمن أصبحت آيات التدهور ظاهرة للعيان فى حب للأناقة التى تفيض زخرفا، وما يبذل من جهد واع لمحاكاة المذاهب العتيقة.

ومن بين أروع آثار القرن الرابع التذكارية، يمكن دراسة عملين منحوتين، فى المتحف البريطانى «الضريح» وهو القبر الذى أقيم فى هلقرناسس لماوسلس ملك كاريا (حوالى ٣٥٠) وهو عمل، حمل سقوفس الفارسى عبء القيام بجزء منه و«محراب نريد» من اكسنتئس فى لوقيا.

والاثنان يقومان شاهدين على ما ظفرت به الثقافة الاغريقية من طول باع بين السلالات غير الهلينية فى آسيا الصغرى. وفى ألومبيا لا يزال يمكن رؤية هرمس لافراكسيطيلس وهو نحات من المدرسة الأثينية خلفت تماثيله للالهة أفروديت طرازا جديدا من الجمال النسوى فى الفن.

وربما كان أعظم تقدم فنى اختص به ذلك الزمن قيام التصوير. ولقد جلس

الاسكندر مرارا إلى النحات لوسبوس وإلى المصور الاغريقى العظيم زفلس القلفونى. ولا توجد صور بين أيدينا ترجع إلى ذلك العصر ولكن قسمات زعماء الحكام محفوظة على عدد عظيم من الجواهر والعملة.

وفى فن العمارة، عاين القرن الرابع استخدام تاج الأعمدة الكورنثى ذى الزهور (على سبيل المثال أثر خرجى للوسقراطس. فى أثينا، حوالى ٣٥٥) وفى اليونان الأصلية، حلول الطراز الدورى الصارم محل الطراز الأيونى الزاخر، وعندما نصل إلى القرن الثالث نجد أحسن فن كأحسن شعر، يزدهر حيث تكون الحياة على أعظم جانب من الحرية.

وفى اسكندرية كان يوجد اليسير مما هو جدير بالتسجيل فيما عدا احياء مصطنع للفن المصرى الوطنى تحت رعاية البطالمة، ولقد ازدهر بطبيعة الحال تخطيط المدن.

ولما كان تخطيط المدن موضع اهتمام الاغريق منذ أن استخدم بر كليس هبوداموس المليتوسى لرسم موقع ثورى فى مربعات، ومنذ أن أعاد ديونوسيوس الأول وضع سيراكوز، فقد ازدهر، بطبيعة الحال، فى عهد حكام مقدونيا وأقيمت الاسكندرية وانطاكيا فى تخطيط محكم يسير فى مذهب منسق.

وأعظم كل المدن جمالا، فى الموقع والبناء، كانت فرغامس وهى من صنع أمراء بيت أطلس وكان كل من فرغامس ورودس مركزا للفن الحى فى القرنين الثالث والثانى. وقد نمت الأولى حول حصن، ربوة إلى أن أصبحت حاضرة الأمراء المثقفين الذى على غرار أسرة مديشى فى عصر النهضة، كانوا يجمعون حولهم الفلاسفة والفنانين.

ولقد كانت رسوم فرغامس المنحوتة التى تخلد ذكرى انتصارات أطلس

الأول (٢٤١- ١٩٧) وأمنيس الثانى (١٩٧-١٥٩) على الغال أجمل ما وصل إليه ذلك العصر. وفى تاريخ معين سابق، توجت رودس مقاومة البطولة التى قابلت بها قوات الطغيان، باقامة التمثال الهائل وهو تمثال لاله الشمس، يبلغ ارتفاعه ١٠٠ قدم ونيف ومن صنع أحد تلاميذ لوسيوس.

ولقد شكلت مجموعة لاوقون على نهج المدرسة الرودسية وكان فروطقنس الرودسى أحد عظماء المصورين فى زمنه. ويمثل ما جاء بعد ذلك من تطورات فى فن النحت، أعمال معروفة جيدا مثل أبولو بلودير وفينوس (أفروديت) ميلوس.

وتصوير المناظر المألوفة أو الريفية، وصور مناظر داخل المنزل، كامثال صور عظام الفنانين الهولنديين فى القرن السابع عشر كان له ذيوع ويقدم تمثيلا لمشاهد الحياة الاجتماعية «فى المسلاة الجديدة». وفى عهد السليوكيين ذاع الفن الاغريقى صوب الشرق، فى القارة الآسيوية. ويؤكد لنا الباحثون المعاصرون أنه كان عن الاغريق الذين حكموا لمدة قصيرة فى البنجاب أن الهنود تعلموا نحت الحجر وإقامة الأبنية به.

ويجب أن نتذكر أيضا أن أدب وفن العصر الهلينستى وضعا طابعهما على أدب وفن روما وعلى هذا، فعن طريق روما، أثرا على المدنية الخالقة تأثيرا أكثر عمقا من تأثير الأعمال المثالية العظيمة فى عصر بر كليس.

الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس